

مجلة مجمع اللغة العربية



بحوث مؤتمر
الدورة الخامسة والخمسين
١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م

الجزء الرابع والستون
رمضان ١٤٠٩ هـ
مايو ١٩٨٩ م



مجمع اللغة العربية بالقاهرة
١٥ شارع عزيز أباظة
المعهد السويسرى سابقا (بالزمالك

مجلة مجمع اللغة العربية

(تصدر مرتين في السنة)

الجزء الرابع والستون

رمضان ١٤٠٩ هـ - مايو ١٩٨٩ م

المشرف على المجلة:

الدكتور مهدي علام

رئيس التحرير:

إبراهيم التريزي

الفهرس

تصدير :

● للأستاذ ابراهيم التري

ص ٥

● كلمة الدكتور أحمد فتحي سرور
وزير التعليم
في افتتاح المؤتمر

ص ٧

● كلمة افتتاح المؤتمر
للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٩

● كلمة الدكتور شوقي ضيف
الأمين العام للمجمع

ص ١١

● كلمة الأعضاء العرب
للدكتور عدنان الخطيب

ص ٢١

● كلمة الختام
للدكتور ابراهيم مذكور

ص ٢٤

البحوث :

● الأرقام العربية بين مشرق الوطن العربي
ومغرب - صلة الكلام في تسوية الأرقام
للدكتور عدنان الخطيب

ص ٢٧

● بشائر في أفق العروبة
قصيدة للأستاذ حسن عبد الله القرشي

ص ٤٢

● دواب الأرض في القرآن الكريم
للدكتور محمد رشاد الطوبى

ص ٤٥

● شعراء مغمورون « عبد الله بن عمرو
ابن أبى صبح المزنى »

للاستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

ص ٥٩

● أفكار وقضايا حول معجم موحد لألفاظ
الحضارة في الوطن العربي
للدكتور عبد الكريم خليفة

ص ٨١



- من قضايا السيرة النبوية « تصحيح »
لفاهيم خاطئة
للدكتور محمد الطيب النجار
ص ٩٦
- الجراحة في الاسلام
للدكتور مهدي محقق
ص ١٩٢
- ليس في اللغة واو للاستئناف
للدكتور محمد نائل احمد
ص ٢٠٨
- دور مؤسسات التعليم العالي في التدريب
والبحوث في مجال الدراسات الاسلامية
للدكتور حسن الفاتح قريب الله
ص ١١٩
- آدم وحواء وابليس في القرآن الكريم
للدكتور حسين مؤنس
ص ٢١٦
- ألفاظ حضارية بطل استعمالها
للدكتور احمد السعيد سليمان
ص ١٥٢
- ألفاظ الحضارة في الوثائق العربية
ذات الطابع الدولي
للدكتور عبد الهادي التازي
ص ٢٣٦
- المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة
العربية للأوربيين في الجزائر
للدكتور ابو القاسم سعد الله
ص ١٦٤
- مدخل الى الألفاظ الأسبانية المأخوذة
من العربية
للدكتور محمود علي مكي
ص ٢٥٩
- الألفاظ العربية في اللغة البربرية
للأستاذ محمد الفاسي
ص ١٨٧
- احياءات بديع الزمان لابن شهيد في
التوابع والزوابع
للدكتور شوقي ضيف
ص ٢٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

للمؤلف إبراهيم التريزى

ألفاظ الحضارة أشد ارتباطاً بالإنسان ، وأكثر استعمالاً في حياته ، من غيرها من الألفاظ . . لأنها تتصل بشئونه اليومية في البيت ، والشارع ، ومحل العمل ، ومعاهد التعليم ، ونوادى الرياضة ، والأسواق . . . وكل ما يتصل بحياة الإنسان من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن . . وحرقة وتجارة . . وزراعة وصناعة .

وبهذا تختلف ألفاظ الحضارة باختلاف البيئات والبلدان ، والأزمان .
فألفاظ الحضارة في البوادي غيرها في الحواضر . . وحول شواطئ الأنهار غيرها على سواحل البحار .

كما أنها تختلف من عصر إلى عصر . . لأن حضارة الإنسان في تطور متواصل ؛ بما يستحدث من وسائل المعيشة وأدواتها ، وما قد يطرأ على بعض عاداته وظواهر حياته في أسرته ومجتمعه من تغيير يقتضيه التطوير الحضارى ، الذى يمتد إلى مختلف مناحى الحياة ، فى نشاطها الإنسانى المتجدد . .

ولكل ما سبق من اختلاف وتطور عدل المجمع عن تسميتها « مصطلحات الحضارة » - كما يخطئ البعض فى ذلك - إلى تسميتها « ألفاظ الحضارة » ورأى أن يجعل موضوعه المقترح لمؤتمر هذه الدورة الجمعية (الخامسة والخمسين) : « ألفاظ الحضارة فى الوطن العربى » . . وهو يهدف بالبحوث

التي تعد في هذا الموضوع إلى وضع معجم موحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربي .

ولا يفوتني التنويه بأن المجمع شغل نفسه بألفاظ الحضارة منذ منتصف الأربعينيات . . وبالجهد الكبير الذي بذله المرحوم الأستاذ محمود تيمور في هذا السبيل ، وقد كان مقررّاً للجنة ألفاظ الحضارة ، وتابع مسيرته المرحوم الأستاذ بدر الدين أبو غازی . . حتى أخرج عن المجمع « معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون » .

إبراهيم التريز
رئيس التحرير

١- كلمة الدكتور أحمد فتحي سرور وزير التعليم

الأستاذ الحليل رئيس المجمع :

الأساتذة الأعضاء الأجلاء :

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته .

يشرفني أن أفتتح مؤتمركم ، وأن أحيايكم وأرحب بكم ، وأخص بالتحية والترحيب الأعضاء العرب ، وغير العرب ، الذين تركوا ما لديهم من شواغل في بلادهم ، وحرصوا على القدوم إلى القاهرة ؛ ليشاركوا زملاءهم الأعضاء المصريين في أعمال مؤتمرهم المجمعى .

أيها الأساتذة الأجلاء :

هاهى دوراتكم الجمعية تتواصل عاماً بعد عام ، حتى تبلغ عامها الخامس والخمسين وأنتم عاكفون على بحث كل ما يتصل بلغتنا العربية من قريب وبعيد ، والتصدى لمشكلاتها وقضاياها في مختلف المجالات . ثم تصدرون القرارات اللغوية بشأن العديد من قواعد اللغة وأصولها ؛ تيسيراً على الكاتبين والقارئى . . وبشأن الألفاظ والأساليب المستحدثة التى ترمى بالخطأ والخروج على

اللغة ، فتجيزون منها ما لا يخرج على الضوابط اللغوية ، أو ماله أصل لغوى صحيح ، وفى ذلك أيضاً تيسير على الكاتبين والقارئى ، بإثراء لغتنا المعاصرة بهذه الألفاظ والأساليب واستحداث ما يجرى منها على سنن العربية وضوابطها العامة .

ولم يكن الرسم الهجائى للكلمات العربية بعيداً عن بحوثكم ودراساتكم ، كما لم يكن كذلك الرسم الطباعى للحروف العربية . . ولا يفوتنى التنويه هنا بأن جامعة الدول العربية حين اتجهت - منذ سنوات - إلى معالجة قضية رسوم الحروف العربية فى مجال الطباعة ، لم تجد خيراً من مشروع الكتابة العربية الذى أعده مجمعكم ، ليكون النموذج الأمثل والأوفى فى هذا المجال .

ولا يفوتنى التنويه كذلك بأن بعض دور الطباعة والصحف قد عمدت إلى تطبيق المشروع المجمعى ، وفى طليعتها صحيفة « الأهرام » التى أعلنت ذلك ، مشفوعاً بالإشادة والعرفان لمجمعكم العريق الحليل .

وما أنتم في مؤتمركم هذا تعمدون إلى معالجة قضية ذات أهمية بالغة في عالمنا العربي وهي قضية « ألفاظ الحضارة العربية » في منظورها العربي الصحيح . . . وهي قضية ذات شأن جليل وخطير ؛ حيث تختلف بعض هذه الألفاظ باختلاف البيئات العربية ، ومجتمعاتها ، وتاريخها ، وروافدها الحضارية في مختلف بلدان العالم العربي . . . مما يجعل الحاجة ماسة وملحة للتقريب بين ألفاظ الحضارة العربية ، عن طريق البحث والدراسة . ثم العمل على تحقيق ما يصدر بشأن ذلك من قرارات وتوصيات .

إن اللغة العربية هي وسيلة التعبير عن حضارتنا العربية . ومهما اختلفت ألفاظها فإنه يجب المحافظة على جوهر المعنى الحضاري الأصيل الذي تعبر عنه ، الأمر الذي يعبر عن أهمية العمل الجليل الذي أنتم مقبلون عليه . وإننا نتطلع إلى جهودكم في هذا السبيل بكل الأمل والتقدير .

وفقكم الله تعالى ، وحفظكم حماة ورعاة للغتنا العربية الخالدة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .



٢- كلمة افتتاح المؤتمر

للاستاذ الدكتور إبراهيم مدكور
رئيس المجمع

مصطلحاته التي تصدر كل عام وقد وصل
عددها إلى ثمان وعشرين مجموعة .

وبدأ منذ سنوات في إخراج معجمات
متخصصة أذكر من بينها معجم الفيزيقا
النووية ، ومعجم الفيزيقا بوجه عام والمعجم
الفلسفي ، ويحرص على أن يتابع هذه السلسلة
من المعجمات العلمية آملا أن ينتهي بها إلى لغة
علمية واحدة في العالم العربي جميعه كما كان
الشأن إبان الحضارة الإسلامية ولا شك في أننا
نسعى جميعا إلى توحيد لغة العالم شرقا وغربا
والطلب على هذا اللون من التأليف شديد
وملحوظ

ولم يفت مجتمعنا في العقد الثاني من تاريخ
إنشائه أن يتجه نحو ما أسماه « لغة الحياة العامة »
وهذه تسمية قال بها « لطفى السيد » أستاذ
الجيل في الأربعينيات وحاول أن يشكل لجانا
لجمع هذه اللغة من مستعملها وناطقها في
المصنع والمتجر والنادى ومظاهر الحياة
المختلفة ، وترتب على ذلك تكوين لجنة خاصة
هي « لجنة ألفاظ الحضارة والفنون » وتعمل
هذه اللجنة بانتظام ويسهم فيها أعضاء قدروا
بمهمتهم وعرفوا كيف يواجهونها ، وأذكر
من بينهم المرحوم « محمود تيمور » الذي يعد

أبها السادة :

إن مؤتمرا هذا خاتمة دورتنا الجمعية
السنوية ، وما أسعدها من خاتمة ، فإنها تتيح
لنا فرصة لقاء ملائتنا العرب والمستعربين من
أعضاء عاملين ومراسلين ، نسعد بهم حقا
لأنهم يسهمون معنا عن قرب في خدمة اللغة
العربية وإن كان لا يفوتنا أن نستعين بهم عن
بعد في كل ما يتصل برسالتنا المشتركة ، ونحاول
دائما أن نبعث إليهم ببعض أعمالنا التمهيدية
في لجاننا لكي يبدوا رأيهم فيها ، ويلبي كثير
منهم هذه الدعوة ، ويدلون بدلوهم وكأنهم شهود
وحضور ، ولهم بوجه خاص إسهام في
« لجنة المعجم الكبير » التي يغدونها بملاحظاتهم
وإضافاتهم ، ولهم في لقائنا السنوي هذا ما يعين
على تدارك ما فات ، واستكمال ما تدعو إليه
الحاجة . وقد درجنا على أن نضع تحت أنظارهم
كل ما اتخذته مجلسنا من قرارات وما أبداه من
توصيات طوال العام المجمعى .

وإلى جانب الرسالة اللغوية البحتة التي
بضطلع بها المجمع في لجانها الأدبية واللغوية
يعنى بأمرين هامين هما « لغة العلم » و « ألفاظ
الحضارة » ولجميعنا إسهام ملحوظ في هذه
اللغة ، وطوال ربع القرن الأخير أقر ثروة
علمية لها وزنها ، أخرجها أولا في مجموعات

بحق من مؤسسى « أَلْفَاظ الحضارة » وسار
على نهجه زملاء آخرون أمثال « محمد خلف
الله أحمد » و « بدر الدين أبو غازى » .
وانتهى الأمر بهذه اللجنة أن أخرجت معجما
صغيرا أشرف عليه « بدر الدين » وجمع فيه
كل ما أقر من أَلْفَاظ الحضارة حتى عام ثمانين
وتسع مئة وألف . وفيه حصر للغة المنزل
والأدوات المنزلية ، وبعض الحرف
والصناعات ، وألوان التربية الرياضية ككرة
القدم وألعاب القوى ، وأملنا كبير في أن
تسود هذه الألفاظ في العالم العربى جميعه ،
وأن تجد سبيلها إلى صحفنا وإذاعاتنا ، بل
وإلى معجماتنا اللغوية . ولا أزال أذكر
ملاحظة أبدأها المرحوم « عبد الرزاق
السنهورى » يوم أن رأى معجمنا الوسيط في
طبعته الأولى ، ولاحظ أنا أقررنا كلمة
« أكرة » وأدخلناها في معجمنا وكذلك خطوة
إلى الإمام يجب أن نتبعها .

ولا شك في أن أَلْفَاظ الفنون والنشاط
الفنى بمختلف صوره تحتاج إلى تغذية وأداء
عربى ، وخطا مجمعنا في هذا السبيل خطوات
يكفى أن أذكر أن من بينها مصطلحات في
فن النحت والخزف كما عرض لمصطلحات
الموسيقى والسينما . ونعتقد أن لغة كرة القدم
بوجه خاص أصبحت شائعة وعامة في العالم
العربى جميعه ، ونحن على يقين من أن الفنون
الأخرى ستأخذ سبيلها إلى هذا التوحيد
والاستعمال العام المعترف به .

وأظنكم تتفقون معى على أن « لغة
الحضارة » كانت جديرة بأن تحمل راية
البحث فى لقائنا هذا وسنسعد بكل ما يعرض
حولها من بحث ودرس .

والسلام عليكم ورحمة الله .



٣- كلمة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف الأمين العام للمجمع

السيد الدكتور وزير التعليم

السيد الدكتور رئيس المجمع

السادة الزملاء أعضاء المؤتمر

السيدات والسادة :^{١٤٧}

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته وبعد

فلإننا نلتقى اليوم للاحتفال بافتتاح مؤتمر المجمع في دورته الخامسة والخمسين إغزازا ووفاء للعربية لغة القرآن المحيية التي شرف الله بها أمتنا والتي ظلت تجمع شعوبها طوال أربعة عشر قرنا إلى اليوم على لسان واحد وفكر واحد ومشاعر واحدة وآمال واحدة، وستظل أمتنا تضمها إلى صدرها حريصة على بيانها الناصع وعلى ما يتيح لها النمو والإنطلاق في مسيرتها الحضارية العصرية ، وهو ما جعل مصر تنشئ مجمعها اللغوي منذ خمسين عاما أو تزيد جامعة فيه صفوف من أعلام نهضتها اللغوية والأدبية والقانونية والعلمية وأعلام اللغويين في الأقطار العربية مع أفذاذ من المستشرقين آملين في أن يضطلع المجمع بكل

ما يتيح للعربية استيعاب المصطلحات العلمية والفنية الغربية وألفاظ الحضارة العصرية .

ودأب المجمع منذ إنشائه على تكوين لجان علمية تنهض بهذا العمل العلمي الجليل مؤلفة من بعض أعضائه ومن خبراء جامعيين مرموقين كل في علمه أو فنه ، وتصوغ بكل لجنة مع من يوازرها من أعضاء المجمع اللغويين مصطلحاتها العلمية في اجتماعات أسبوعية ، وتعرض اللجنة حصيلتها السنوية على مجلس المجمع ليدل فيها أعضاؤه مجتمعين بأرائهم ، وتنقحها اللجنة على هدى تلك الآراء ، ثم تعرضها على مؤتمر المجمع السنوي ليناقشها أعضاؤه ، حتى إذا أقروها أصبحت نهائية ثمرة أو نتيجة لشورى جماعية كبرى ، وهي شورى تفسح - بوضوح - لفكرة توحيد المصطلحات العلمية في أقطارنا العربية إذا يقرها كل أعضاء المؤتمر من مصر وشقيقاتها العربيات في المؤتمر السنوي ، مما يعطيها صورة بيضاء من الإجماع العلمى العربى .

ومجمعنا بذلك أدى - ويؤدي - أداء
سديدا الأمانة العلمية بالمقامة على عاتقه من
الإعداد القويم لجعل العربية - في عصرنا -
وافية بمطالب العلوم والفنون ومسميات
الحضارة ، وقد استطاع أن يخرج إلى اليوم
عشرة معاجم علمية ، بل تزيد ، سوى
ما ينشره سنويا من مجموعات لمصطلحات
علمية وفنية وحضارية ، وجميعها تقف
بأبواب الجامعات تنتظر الأذن لها بدخولها
فيها . ولن يتحقق لها ذلك إلا مع تعريب
العلوم في الجامعات . وحينئذ تخلق العربية
بأجنحة قوية في آفاق العلم العالمية . وقد
أخرج المجمع معجما نفيسا لألفاظ القرآن
الكريم يطبعه الآن للمرة الثالثة ، ويخرج معجما
لغويا كبيرا للعلماء المتخصصين ، وأخرج
معجما وسيطا لطلاب الجامعات وأوساط
المثقفين ومعجما وجيزا لتلامذة التعليم العام
وبجانب ذلك عنى المجمع بتيسير قواعد العربية
للناشئة ، وله قرارات في أحد مؤتمرات
القريبة تحقق هذا التيسير على خير وجه .

وسيمثل شأن مؤتمر المجمع في هذا العام
شأنه في الأعوام الماضية منعقدا لمدة أربعة
عشر يوما تعرض فيها عليه حصيلة عام من
جهد اللجان العلمية وما وضعت من مصطلحات
علمية وفنية ومسميات حضارية وحياتية
وقرارات لغوية ومواد معجمية . وكل ذلك
يتدارسه أعضاء المؤتمر دراسة علمية جادة
مثمرة ، ولا يصبح أى قرار لمصطلح علمي

أو لفظ حضاري أو قياس لغوي معتمدا إلا
بعد أن يرتضيه المؤتمر ويقره ، فهو صاحب
السلطان الأعلى في تأييد القرار المقترح أو
رفضه ، ويستمع المؤتمر في أثناء ذلك من
أعضائه العاملين والمراسلين إلى العديد من
البحوث الصافية القيمة التي تفيد وما تثير
من مناقشات خصبة اللغة والأدب والعلم
فوائد محقة .

السيدات والسادة :

يسعدني - كما تعودنا في لافتتاح كل مؤتمر
مجمعي - أن أعرض على حضراتكم صورة
مجملة للنشاط المجمع منذ عقدنا المؤتمر
السابق حتى أصبحنا على مشارف هذا المؤتمر .

المؤتمر السابق :

قد عقد المؤتمر السابق أربع عشرة جلسة
منها أربع علمية ، أولاها جلسة الافتتاح وفيها
تحدث الدكتور أحمد فتحي سرور وزير
التعليم والدكتور إبراهيم مذكور رئيس المجمع
والأستاذ المرحوم عبد السلام هارون أمين
المجمع السابق والدكتور إسحق الحسيني عن
الأعضاء العرب .

والجلسة الثانية عقدت لتأبين المرحوم
الدكتور عمر فروخ عضو المجمع عن لبنان ،
وألقي كلمة المجمع في توديعه الدكتور عبد الكريم
خليفة رئيس المجمع الأردني .

والجلسة الثالثة كانت لمحاضرة الدكتور كمال بشر عضو المجمع موضوعها : « اللغة بين التطور وفكرة الصواب والخطأ » .

والجلسة الرابعة عقدت لتأبين المرحوم الدكتور أحمد عبد الستار الخوارى عضو المجمع العراقى ، وألقى كلمة المجمع فى توديعه الدكتور عدنان الخطيب عضو المجمع من سورية ، واشترك فى توديعه اللواء الركن محمود شيت خطاب عضو المجمع المراسل من العراق بكلمة ألقى بالنيابة عنه .

والجلسات العشر الباقيات كانت مغلقة ، عرض فيها على أعضاء المؤتمر ١٨٣٠ مصطلحات انيزيقاوالحيولولوجياوالهيدرولوجياوالكيمياء والصيدلة والطب والنفط والنبات والحيوان والرياضيات والجغرافيا والقانون (قانون العقوبات) والاقتصاد والفلسفة (المنطق الرمزي) والتربية وعلم النفس والتاريخ والآثار والأصول والألفاظ والأساليب .

وقد أقر المؤتمر المواد المعجمية وما عرض عليه من قرارات لجنة الأصول وهى : استغناء الفعل المبني للمعلوم بمادته عن الفاعل ، واستغناء الفعل المبني للمجهول بمادته عن نائب الفاعل ، وجواز إثبات الياء فى اسم الفاعل المنقوص النكرة .

وأقر المؤتمر من أعمال لجنة الألفاظ والأساليب .

مجموعة من كلمات دارجة ردتها اللجنة إلى أصول عربية .

وأيضاً أقر للجنة طائفة من الألفاظ المستدركة على المعاجم المتداولة ، وهى ثلاثة وثلاثون لفظاً مستخرجة بشواهدها الصحيحة من كتاب البيان والتبيين للجاحظ .

وقد حفل المؤتمر السابق بكثير من البحوث والدراسات ، ودارت كثرتها حول موضوع « لغة الأعلام » بالإضافة إلى موضوعات متنوعة أدبية ولغوية وفلسفية وتاريخية . وعطرت أنفاس الشعر أجواء المؤتمر بقصائد أربع هى « أخى » للدكتور حسن على إبراهيم ، « ونحية مودة وأسى » للدكتور إبراهيم السامرائى ، « والفصحى رباط وحدة الأمة وأداة إرتقاء العلم والحياة » للأستاذ محمد بهجة الأثرى ، « ونحية المجمع » للدكتور عبد الله الطيب .

توصيات المؤتمر السابق :

أصدر المؤتمر فى جلسته الختامية قرارات وتوصيات أهمها :

١- يؤكّد المؤتمر توصياته السابقة التى تنص على أن يكون التعليم الجامعى والعالى فى الوطن العربى جميعه باللغة العربية ويرحب المؤتمر بالتوصية التى أصدرها اتحاد الأطباء العرب بأن يكون عام ١٩٨٨ م هو بدء الوقت فى تعليم الطب باللغة العربية على مدى عشر سنوات .

٢- يوصى المؤتمر بضرورة الحرص على تعلم القدر الكافي من القرآن الكريم حفظا وتلاوة وتفسيرا في مراحل التعليم الاساسى .

٣- يوصى المؤتمر أن تلتزم كليات الإعلام ومعاهده بدراسة الجوانب النحوية والصوتية للكلم في العربية دراسة تعين الإعلاميين على معرفة الطريق السديد للنطق بالكلم نطقا سليما ، مع دراسة نصوص من الأدب العربى فى عصوره المختلفة بحيث تصقل ذوقهم الأدبى وتقفهم على أسرار البلاغة العربية .

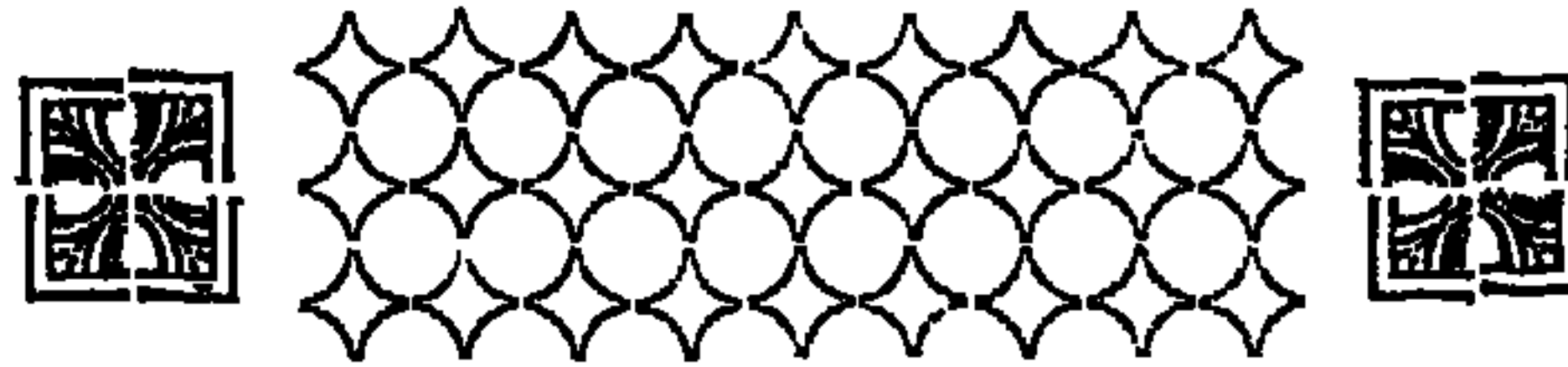
٤- يوصى المؤتمر بأن تعقد للمذيعين دورات تدريبية متصلة تغرس فيهم النطق القويم للألفاظ العربية ، بحيث تجعلهم يتفادون الأخطاء اللغوية الكثيرة التى تجرى على ألسنتهم .

٥- يوصى المؤتمر بأن يعنى فى جميع مراحل التعليم العام بتدريس قواعد اللغة العربية وزيادة الساعات المقررة لها .!

٦- يؤكد المؤتمر ضرورة العمل بحزم على مقاومة كتابة لافتات المحال التجارية ونحوها فى جميع أرجاء العالم العربى وكذلك فى المؤسسات على اختلاف أنواعها بأى لغة غير العربية السليمة كما يوصى بتجنب كتابة الأسماء الأجنبية بحروف عربية حفاظا على الإلتناء العربى .

٧- يؤكد المؤتمر ضرورة توحيد المصطلحات العلمية فى الوطن العربى ويوصى بتكوين هيئة تتولى إدارة مركز للمعلومات تسجل فيه جميع المصطلحات العلمية لاستخدام الآلة الحاسبة .

٨- يدعو المؤتمر إلى الحرص على أن تكون الخطب الرسمية والبيانات الموجهة إلى الجماهير بلغة عربية سليمة ، لما لهذا من أثر فى التوجيه اللغوى السليم .



أعمال المجلس واللجان

عقد مجلس المجمع منذ انتهاء المؤتمر السابق إلى اليوم ثلاثين جلسة ، منها جلستان علنيتان لتأبين الزميلين الراحلين العزيزين الأستاذ عبد السلام هارون والدكتور محمد زكي شافعي تغمدهما الله برحمته وجزاهما بخير ما يجزى به عباده العاملين المخلصين . واستقبل المجمع في جلسة علنية عالماً جليلاً نسعد بضمه إلى رحابه هو الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح إبراهيم ، أما سائر الجلسات الباقية فقد نظر المجلس فيها نحو ٢٧٩٠ مصطلحاً في الفيزيكا والكيمياء والصيدلة والطب والحيولوجيا والنفط والمعالجة الإلكترونية للمعلومات وعلوم الأحياء والزراعة والهندسة والرياضيات والآثار والجغرافيا والاقتصاد والقانون والتربية وعلم النفس والفلسفة وألفاظ الحضارة المتصلة بمصطلحات الموسيقى . ونظر المجلس في قرارات لجنة الأصول ولجنة الألفاظ والأساليب ، وستعرض على المؤتمر تلك القرارات وما أنجزته لجنتنا المعجم الكبير من مواد جديدة .



المسابقة الأدبية

كان موضوع المسابقة الأدبية في الدورة العامة المجمعى الحالى ترجمة وافية للمرحوم الجمعية السابقة وهو « مجموعة قصص قصيرة » ولم يتقدم أحد لنيل جائزتها ، واقترحت اللجنة الخاصة بتلك المسابقة أن يكون موضوعها في

مسابقة احياء التراث

وكان موضوع مسابقة احياء التراث تحقيق نص لغوى أو أدبي لم يسبق نشره تحقيقا علميا سديدا ، وفاز بالجائزة الدكتور أحمد خان عن تحقيقه لكتاب « خلق الإنسان في اللغة »

لأبي محمد الحسن بن عبد الرحمن . ووافق المجلس على أن يكون موضوع المسابقة في العام المجمعى الحالى نفس الموضوع في العام الماضى .

جائزة جديدة

وافق المجمع في هذه الدورة على إنشاء جائزة سنوية جديدة تمنح لأهم بحث يصور جمال الأداء القرآنى لغة وأسلوبا، وتُمنول من الهدية المقدمة إلى المجمع من فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى عضو المجمع وقدرها خمسون ألف جنيه وأودعت الهدية بذلك فيصل الإسلامى المصرى .

مطبوعات المجمع

أصدر المجمع في الدورة السابقة المطبوعات التالية :
٢ - الأجزاء الثالث والخامس والسادس من كتاب « التكملة والذيل والصلة للزبيدي » .

١ - الأجزاء السابع والخمسين والثامن والخمسين والتاسع والخمسين من مجلة المجمع .
٣ - الجزءين السابع والعشرين والثامن والعشرين من مجموعة المصطلحات العلمية والفنية .

وقييد الطبع الآن

١ - محاضرات جلسات مجلس المجمع ومؤتمره للدورة الخمسين .
٣ - بحوث ومحاضرات العيد الخمسيني لمجمع اللغة العربية .

٢ - محاضرات جلسات مجلس المجمع ومؤتمره للدورة الحادية والخمسين .

صلات المجمع الثقافية

لحضور ندوة تقييس وتوحيد المصطلحات
مجال التطبيق في المدة من ١٣ إلى ١٧ من
مارس المقبل ، وقرر إيفاد الزميل الدكتور
عبد الرزاق عبد الفتاح إبراهيم لحضور هذه
الندوة . كما وافق المجمع على قبول الدعوة
الموجهة إليه من معهد الإنماء العربي للإشتراك
في أول مؤتمر علمي له يدور حول الكتابة
العلمية باللغة العربية : واقع وتطلعات ،
وسيعقد المؤتمر في عمان بالأردن في نوفمبر
المقبل ، وقرر المجمع إيفاد الزميل الدكتور
محمد رشاد الطوبى لتمثيله فيه .

ووافق المجمع على قبول دعوة من معهد
أتاتورك للدراسات التركية لحضور مؤتمر
الثقافة التركية قبل العثمانيين في شهر سبتمبر
المقبل وقرر المجمع إيفاد الدكتور أحمد السعيد
سليمان لتمثيله فيه ، ولا تتوقف صلات المجمع
الثقافي عند المجمع والهيئات إذ يتلقى دائماً من
أفراد الدارسين بحوثاً ومقترحات لغوية
يحيلها على اللجان المختصة لدراستها تمهيداً
لنظرة فيها ، وباستمرار يتبادل مطبوعاته مع
الهيئات والمؤسسات الثقافية ودعمها للروابط
الثقافية بين المجمع وعلماء العالمين العربي
والإسلامي إختار المجمع في الدورة السابقة ستة
عشر عضواً مراسلاً من المهتمين بشؤون اللغة
العربية لمعاونته في أداء رسالته ، وهم :

يحرص المجمع دائماً على توثيق صلاته
بالمجامع العربية والهيئات الثقافية في مصر والعالم
العربي والإسلامي والدولي ، فيشارك فيما تعقده
من مؤتمرات وندوات ، وينظر فيما تقدم إليه
من مصطلحات ومسابئل لغوية ويحيلها إلى
اللجان المختصة لإبداء الرأي فيها ثم عرضها على
المجلس وقد مثل المجمع الزميل الدكتور
محمود حافظ في إفتتاح الموسم الثقافي للمجمع
الأردني في شهر إبريل وألقى فيه محاضرة عن
اللغة العربية والتعليم العام والجامعي ومثل
المجمع الزميل الدكتور مجدى وهبة في الإتحاد
الدولي للمجامع ببروكسلي في شهر يونية ،
وقدم فيه التقرير السنوي عن أعمال لجنة
إحياء مؤلفات ابن رشد . ومثل المجمع الدكتور
محمد مهدي علام نائب رئيس المجمع في مؤتمر
التعريب بالرباط في شهر سبتمبر وشارك في
أعماله ، وقدم إلى المجمع تقريراً إضافياً عن
قراراته . ورشح المجمع الدكتور عبد الحليم
منتصر ، والدكتور محمود حافظ لتمثيله في
مؤتمر مصر عام ٢٠٠٠ الذي انعقد في أواخر
ديسمبر .

ومثل المجمع أيضاً الدكتور محمود مختار
والدكتور أحمد السعيد في ندوة اللغة العربية
والكبيوتر بمؤسسة الأهرام في الشهر الحالي :
ووافق المجمع على قبول الدعوة الموجهة
إليه من المعهد القومي للمواصفات بتونس

من جمهورية مصر العربية - الأستاذ
الدكتور رشدى راشد ، ومن: السودان -
الأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله ،
والأستاذ سر الختم الخليفة ، ومن الأردن
الأستاذ الدكتور أحمد سليم سعيدان ، والأستاذ
الدكتور محمود السمرة ، ومن السعودية
الأستاذ عبد العزيز الرفاعي ، والأستاذ محمد
بن عمر بن عقيل ومن فلسطين الأستاذ أحمد
شفيق الخطيب ، ومن الجزائر الأستاذ
الدكتور أبو القاسم سعد الله والأستاذ الدكتور
عبد الرحمن الحاج صالح ، والأستاذ الدكتور
عمار الطالبي ، ومن باكستان الأستاذ الدكتور
ذو الفقار علي مالك ومن أندونيسيا الأستاذ
الدكتور فؤاد فخر الدين ومن نيجيريا الشيخ
الحاج أبو بكر محمد قمي والأستاذ الدكتور
علي أبو بكر ومن السنغال الأستاذ إبراهيم
محمود جوب .

صلات المجمع الثقافية

جائزة الدولة التقديرية

نال جائزة الدولة التقديرية في الآداب في
العام الماضي العالم الجليل المرحوم
الأستاذ عبد السلام هارون تقديراً لجهوده
طوال حياته في إحياء التراث ونشر كنوزه
النفيسة .

مضو جديد :

وإذا كان المجمع ودع زميلين جليلين
هذا العام فإنه سيستقبل - عقب هذا المؤتمر -
علماً جليلاً فاز بعضويته هو الزميل الأستاذ
عبد الكريم العزباوى .

ولا يفوتنى أن أبعث بأطيب أمنيات الصحة
والعافية للائخوة الزملاء الذين حالت ظروف
طارئة دون حضورهم هذا المؤتمر والله أسأل
أن يسعدنا برويتهم في المؤتمر المقبل إن شاء
الله .

الزملاء المعتذرون هم :

الأستاذ الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي ،
الأستاذ الشاذلى القليبي ، والأستاذ الدكتور

أحمد الطرابلسي ، والأستاذ الدكتور رودلف
زلهام ، والأستاذ عبد الله كنون ، والأستاذ
الدكتور سعيد خدوري ، والأستاذ محمد بهجة
الأثري ، والأستاذ الدكتور محمود السمرة
والدكتور شرباتوف .

السيدات والسادة :

يسعدنى فى ختام كلمتى أن أشكر كل من
شاركوا فى هذا الحفل ، كما يسعدنى أن أحيي
أزكى تحية باسم المجمع الزملاء المجمعين
الوافدين من الأقطار العربية والإسلامية وكذلك
من الأقطار الغربية لشهود هذا المؤتمر
والمشاركة الخصبه فيه بعلمهم الغزير وآرائهم
القيمة ، فلهم منا أجزل الشكر وأصدق الود
راجين لهم طيب الإقامة بيننا فى بلدكم مصر .

والسلام عايكم ورحمة الله وبركاته



٢- كلمة الأعضاء العرب للدكتور عدنان النخيب

إلى المؤتمر السنوي لجميع اللغة العربية ،
وما شعرت مرة بغربة الديار وأنا في مصر ،
وما تركتها سنة إلا وشعرت بأن قلبي
زاد تعلقاً بها ، وما عدت يوماً إلى دمشق إلا
وكان التحنن إلى مصر ملء جواني إلى أن
أوثوب إليها مرة أخرى .

أنا لست الوحيد من أهل الشام في شعوري
هذا ، كما لست الوحيد من أبناء الوطن العربي
في حبي مصر ، لأن كل شامي - على
ما أعتقد - بل كل عربي ، ما دام
على فطرته ، إنما يحب مصر كحبه البلد الذي
ولد أو عاش فيه ، حتى إذا ما جاءها يوماً
تمنى ألا يفارقها ، وإذا غادرها كانت جل
أمانيه ألا يطول غيابها عنها . إن ديوان العرب
قد امتلأ بشعر الحنين إلى الأوطان ، وقد
جمع الجاحظ في رسالة له ، وشلا من خضم
ما قاله الشعراء في هذا الحنين كما علل علماء
النفوس هذا الشعور حتى أنهم (فلسفوه) غير
أنهم قصّروا في تعليل شعور العربي ، وقد
يملاً قلبه الحنين إلى أكثر من ربع ، وإلى أكثر

سيدى الرئيس الحليل سادى الأجل :

يسعدنى أن أحمل إلى مصر ، التأييد مجدها
في الحضارة والعمران ، العظيم شعبها في
الدفاع عن العروبة والإسلام ، العميم فضلها
في الهبوب إلى نصرة المستنجد بها من العالمين
العربي والإسلامي ، الشديد بأس أبنائها إذا
ما غضبوا لعسف حاق بمقهور ، الخاوة
شمالهم إذا ودعوا ، الفائق كرمهم إذا ما
ما استضيفوا .

لا بل أناجّد سعيد بأن أحمل اليوم إليكم
من بلاد الشام ، خالص الحب وجزيل التقدير
وأمهات الأطفال في بلاد الشام ، عرف عنهم ،
من قديم الزمان ، بأنهم يرضعن أبناءهم حب
مصر وسائر بلاد العرب ، حتى إذا ما ألحقهم
بالمدارس ، وكان نشيدهم صباح كل يوم :
« بلاد العرب أوطاني . . » .

سادى الأجل :

مندريع القرن أو يزيد ، وأنا ألبى الدعوة

من بلاد ، وإلى أكثر من موطن في بلاده
الواسعة الأرجاء .

سادتي الأفاضل : لقد احتل الشعر عند
العرب مكانة مرموقة بسبب من خصب خيالهم
وشدة حبهم البلاغة والإيجاز ، ولطاوعة لغتهم
الحميلة لأفكارهم المختلفة حتى أنهم كانوا
يبالغون في تكريم الشاعر إذا نبغ في إحدى
قبائلهم ، ويدفعون به إلى الأفق الواسع
الرحيب حتى يصبح شاعر العرب قاطبة .

وشد عن هذا التقليد العربي الأصيل
تلقيب كاتب من ألمع كتاب عصرنا الحديث ،
وشاعر من فحول شعراء العالم العربي ،
لقد كان هذا الشاعر يغوص على المعاني
ويولدها ، ثم لا يبالي بما يقع عليه من لفظ
مادام يؤدي المعنى الذي التقطه أو ولده ،
كان يستقصى المعاني ثم يعرضها على قارئه ،
وقد زانها فكره العميق واطلاعه الواسع على
التاريخ وعلمه الزاخر في كل من الأدب
العربي وصنوه الفرنسي .

كل الربوع ربوع العرب لي وطن
للضاد ترجع أنساب مفرقة
تمنى العصور وتبقى الضاد خالدة

ما بين مبتعد منها ومقرب
فالضاد أفضل أم برّة وأب
شجى بحلق غريب الدار مغتصب

* * *

كالسهم ريش فإن سددته يصب
والدهر يزحف بالأرزاء والنوب
وضاع قومي بين الحد واللعب
فراحة المرء بعد الكد والتعب

* * *

من مبلغ فتية الحيين مأساة
فيم التخاذل لافلت جموعكم
مالي وللناس ، جد الناس كلهم
لا تطلبوا الراحة الكبرى بلا تعب

كان شاعرنا قد ولد في إحدى مدن الشام ،
ثم جاء مصر ، وفيها استوفى معارفه ولمع
نجمه ، وفيها عاش طوال حياته إلى أن قضى
نحبه ، وكان يجمع في قلبه الواحد حبين ،
واستطاع أن يوفي حتى الولاء للبلدين ، مما
دفع العرب إلى أن يغدقوا عليه لقب : شاعر
القطرين .

وعندما وضعت الحرب العالمية الأولى
أوزازها ، وتقاسم المستعمرون من رائجها ،
الأقطار العربية ، وصنعوا فيها حكومات
موالية لهم ، متخاذلة مع شقيقاتها العربيات ،
جاء خليل مطران يزور بلاد الشام ، فاستقبل
ببالغ الحفاوة والتكريم ، وفي أحد المهرجانات
وقف شاب في ميعة شبابه ، كان شبه
مغمور ، إلا عند قلة من النباه كانت تذنباً
له بمستقبل باهر ، وأنشد قصيدة ، وكان
مما جاء فيها :

أبن الشباب وفتيان غـ... طارفة
 اليعربسون لا حقد ولا غضب
 غنيت قومي بالأشعار أطربهم
 وأحزن الشعر بيت راح ينشده
 خير التصائد ما أوحته عاطفـ...
 كالأسد في الغيل ما واثبها تثب
 قد يسلب الحق بين الحق والغضب
 لو يسمع القوم شذو الشاعر الطرب
 دمع تحدر من أجفان مكتئب
 فسار في كل دنيا غير مغترب

لقد كان الشاعر المغمور يومئذ ، محمد سليمان الأحمد شاعر العربية الكبير بدوى الجبل .

سیدی رئیس الجلیل :
 سادتی الأفاضل :
 المناضلون فی الزود عنها ، الناشطون فی
 ردّ کید الکائدين الجاحدين بقديسيها .

لقد شرفت اليوم بالتحدث إليكم بمناسبة
 افتتاح الدورة الخامسة والخمسين لمؤتمر
 مجمع اللغة العربية ، اللغة التي شرفها الله
 عز وجل بالتنزيل الحكيم ، ولمصر أن
 تفاخر شقيقاتها العربيات بمجمعها هذا ،
 العامل ماوسعه على النهوض بالعربية ،
 لتؤدي الفصحى رسالة العلم والحضارة
 على ما يحب أنصارها ، المتفانون في خدمتها ،
 ولإني لأزداد شرفاً ، إذ أعلن باسم الزملاء
 الوافدين على مصر من سائر أقطار الوطن
 العربي عن خالص تقديرهم وعميق شكرهم
 لمصر ولجميعها الموقر على ما يلاقونه من فائق
 الترحاب وعلى ما يسدى إلى الفصحى من
 جليل المكرمات .
 والسلام عليكم ورحمة الله .



كلمة الختام للأستاذ الدكتور إبراهيم مذكور رئيس المجمع

في ختام جلستنا هذه لا يسعني إلا أن أكرر
ترحيبي بمن حضر معنا من الإخوة العرب ؛
والمستعربين وشكراً لمن حضروا الجلسة
جميعاً .





عشرون

الأرقام العربية

بين مشرق الوطن العربي ومغربه

صلة الكلام في تسوية الأرقام
للدكتور عدنان النخيب

١. - عودة الى ماض بعيد :
« . . وأعلن الأستاذ الرئيس موافقة المجلس على أن تبعث لجنة تيسير الكتابة بموافقتها على تعديل كتابة رقم (٢) فقط » ، كان هذا في الجلسة الختامية لمجلس المجمع في سنة ١٩٥٦ التي كان يتولى سدة الرئاسة فيها المغفور له استاذنا الجليل أحمد لطفي السيد^(١).
إن موافقة المجلس الكريم تمت بعد أن عرضت عليه مذكرة اللجنة الخاصة بتيسير الكتابة التالي نصها :
(ورد المجمع كتاب من المراقب المالي
- لوزارة التربية والتعليم يشير فيه إلى صعوبة التفريق بين رقم ٢ و ٣ حين يكتبان بالخط النسخي في الكتب وسائر المطبوعات ، ويقترح عمل رسم جديد لرقم ٢ على نحو رسمه في الخط الرقعي ١
وقد أحيل الاقتراح إلى لجنة تيسير الكتابة فدرسته مع الأستاذين محمد علي المكاوي وشفيق مري الخبيرين باللجنة الفنية في تيسير الكتابة ، فقدم الأستاذ محمد علي المكاوي مذكرة أقر فيها اقتراح المراقب المالي لرقم ٢ بحيث لا يبعد عن القديم

(*) ألقى في الجلسة الثانية في يوم الثلاثاء ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩ م .
(١) - جلسة مجلس المجمع الثلاثون والمنعقدة بتاريخ ٢٨ من مايو سنة ١٩٥٦ انظر ص ٢٩٧ من محاضر جلسات المجمع في الدورة الثانية والعشرين طبعت في القاهرة سنة ١٩٧٩ وانظر ص ٣١٧ من كتابنا عن « العيد للذهبي لمجمع اللغة العربية » دمشق ١٩٨١ .

وتمحو أثر الاشتباه (٢) وأضاف إلى ذلك
تغيير الرقم (٥) احساناً له في مظهره وسط
الأرقام (٣) ، وتغيير الرقم (صفر)
أيضاً له (٤) .

بمقاييس حروف الطباعة .

(٢٨ / ٥ / ١٩٥٦)

٢ - عيوب صور الأرقام :

تتقاسم العالم العربي اليوم سلسلتان من
الأرقام مختلفتا الصور والأشكال ، أرقام
مشرقية تسمى (الأرقام الهندية) ، وأرقام
مغربية وليدة (الأرقام الغبارية) ، وكلتا
السلسلتين من ابداع الحضارة الإسلامية ،
ولا يجحد عربتهما إلا مكابر .

ووافق الأستاذ شفيق مري على هذا الاقتراح
ولما عرضت المذكرة على الأستاذ إبراهيم
مصطفى وافق على ما يختص بالرقم (٢)
ورقم (٥) أما الصفر فإنه يرى ألا يجوف .

وهذه صورة الأرقام المقترحة للثنتين
والخمس والصفر هكذا (٢) (٥) ، (٥)
مقابل (٢) ، (٥) ، (٥) .

ولقد حاولنا فيما سبق أن كتبناه أثبات
عروبة الأرقام المشرقية رداً على من يقول
بأعجميتها ، وليس لديهم من حجة إلا
القول بأنها كاسمها هندية الأصل (٥) لأنهم
يدعوننا إلى نبذها واحلال (الغبارية)
محلها ، وهي التي يطلق عليها الفرنجة اسم
(الأرقام العربية) اعترافاً بحقيقتها ، وتغنيينا

ومع هذا نسخة كتاب المراقب المالي ،
ومذكرة الأستاذ محمد على المكاوي ،
وطابع للأرقام العشرة مكبرة ومصغرة
صنعتة دار المعارف ليبدو فيه شكل الأرقام

(٢) من الواضح أن الاقتراح تغياً لاكتفاء بإحدى صورتى الرقم (٢) وهي معروفة في القلم الرقعى
وشائعة في الكتابة العادية وفي التخطيط .

(٣) أنالم أطلع على اقتراح الأستاذ المكاوي ، ولعله كان يود الرجوع إلى كتابة الرقم (٥) على الصورة
التي كان عليها عندما تطور عن حرف (هـ) التي ترمز إلى العدد (٥) في حساب الجمل وهذه الصورة
ما زالت مستعملة عند كثير من الأمم الإسلامية .

(٤) من الواضح أن الاقتراح فيما يتعلق بالصفر الذي رفضه المجلس كان يتضمن كتابة الصفر كدائرة
مفرغة أى بشكل يشبه رمز الصفر في الأرقام الغبارية التي أخذها الفرنجة عن العرب في الأندلس .

(٥) من روائع الأدلة على عروبة الأرقام الموصوفة بالهندية لوحة ابن البواب المؤرخة سنة ٤١٤ هـ
بتلك الأرقام قبل تطورها انظر الملحق رقم ١ .

في هذا المقام الإشارة إلى الموضوع عن كل تفصيل فيه . (٦)

إن عيوب صور الأرقام نشأت من تشابه صور بعضها ، و أهل الحساب كأصحاب الآلات الحسابية في خوف دائم من اختلاط المتشابه ووقوع القارىء في الخطأ ، وكل أمانهم أن يبادر أصحاب الرأي إلى الموافقة على تعديل الأرقام بحيث يرفع التشابه بينها ، ولم تخل أرقامنا المشرقية من عيب تشابه بعض صور فيها ، بعد أن تطورت إلى ماهى عليه اليوم في الآلات الراقمة أو الحاسبة أو في التخطيط ، ولم تنفرد هذه الأرقام بهذا العيب دون الأرقام الأخرى ، كما أن المراقب المالى لوزارة التربية والتعليم في مصر وحدها لم يكن أول من كشف عن مساوئ صور بعض الأرقام ، كما أنه لم يكن آخر من طلب تعديلها (٧).

(٦) يقوم أفراد من كبار علماء المغرب العربى بحماسة بالغة ، بدعوة عرب المشرق إلى تبني الأرقام التي يستعملونها بحجة أعجميتها ، ثم استعمال الأرقام الغارية التي يستعملها الفرنجة ويطاقون عايتها اسم (الأرقام العربية) .

وتلقف رجال في مختلف أقطار المشرق العربى تلك الدعوة الآثمة وأخذوا يعملون لتحقيقها بغيرة قومية واضحة وبجاس متفاوتات بتفاوت الأقطار التي ينتمون إليها ، وبحسب ما لدى بعضهم من ساطات تنفيذية ، غير عائبين بكون الأرقام المشرقية ، فضلا عن عروبتها الأصيلة التي لم يستطع عالم إثبات أعجميتها ، غدت جزءا لا يتجزأ من التراث العربى الإسلامى الذى لا يجوز لأحد التفكير في التخلي عنه على حد قول الجميع الفقهي لرابطة العالم الإسلامى في دورته السابقة سنة ١٤٠٤ هـ تأييدا لقرار مجلس هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية الصادر عام ١٤٠٣ هـ انظر مجموعة قرارات مجلس الجميع الفقهي الإسلامى لرابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة ١٤٠٥ .

(٧) كان مما نشر مؤخرا في نقد الأرقام المشرقية النقدان التاليان :

أولا : نقد لجنة الأصول والتراث في مجمع اللغة العربية الأردنى المنشور في عدد كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٤ من مجلته ، واحصر النقد في العيبيّن التاليين :

١ - عيب رمز الصفر (٠) الذى قد يختلط بالنقطة .

٢ - عيب الرقم (٢) الذى يمكن الالتباس معه بالرقم (٣) .

ثانيا : نقد محمد حسين صفورى المنشور في عدد حزيران (يونيو) ١٩٨٥ من مجلة المجمع الأردنى وقد ورد فيه : « . . هذه الصيغة في نظرنا تشكو من شكل الصفر الذى يسهل أن يختلط مع نقطة آخر الجملة ، أو يكاد أن لا يظهر بوضوح عند الكتابة أو الطباعة ثم شكل العدد (اثنين) وشكل العدد (ثلاثة) وهما متشابهان وكثيرا ما يصعب تمييز الواحد منهما عن الآخر » .

٣ - الصفر وقيمه في الكتابة العربية :

لقد مرت على أرقامنا المشرقية عصور تجاوزت الألف من السنين تطورت خلالها تطورا عظيما ، إذ كانت في نشأتها مختزلة من الحروف العربية بترتيبها الأبجدي وبحسب قيمتها بحساب الحُجُل ، كما اثبتنا ذلك في عديد من بحوثنا ، وكانت الأرقام في نشأتها الأولى أشكالا بدائية يصورها الناس تصويرا لاقاعدة له ولا ضابط يحدده ، إلى أن غدت اليوم جزءا من علم الخط العربي ، تطبق عليها قواعده ويلتزم فيها بضوابطه .

لقد ارتبطت أرقامنا المشرقية في تطورها وما آلت إليه ارتباطا وثيقا بالحروف العربية وطبيعتها في الليونة والانسياح حتى أصبحت منذ أكثر من قرن لدى علماء الخط ورجال الفن وحدة لا تتجزأ من حيث جمالها الفني ومقاييسها المحددة وقواعدها الدقيقة .

إن ماوجه إلى أرقامنا المشرقية من عيوب ينحصر في صورتين أساسيتين هما :
أولا : عيب صورة الرقم (اثنين) التي انتهت في الطباعة والتخطيط إلى هذا الشكل (٢) وهي صورة تقلل من فرص التمييز بينها وبين صورة الرقم (ثلاثة) التي انتهت إلى هذا الشكل (٣) .

وهو عيب وجد حتملا في قرار مجلس مجمعنا الموقر المشار إليه آنفا (٨) .

ثانيا : عيب صورة (الصفر) وهي صورة تشابه النقطة وقد تختلط معها (٩)

أما العيب الذي أسنده الخبير على مكاوي إلى شكل الرقم (٥) فهو عيب ينجم عن الأخذ برأى من يقترح تفادي عيب (الصفر) بتجوييف النقطة التي تدل عليه أو بتغيير آخر كجعل رمزه في الأرقام المشرقية مشابها لرمزه في الأرقام الغبارية . (١٠)

(٨) إن الحل الذي تضمنه قرار مجلس مجمع القاهرة المؤرخ في ٢٨ من مايو ١٩٥٦ للسابق الإشارة إليه ، جاء في مشروع مجمع اللغة العربية الأردني لسنة ١٩٨٥ فقد وردت فيه التوصية التالية : (نوصي الذين يستعملون لأشكال المشرقية :

أولا : أن يستعملوا الشكل (٢) للاثنتين بالكتابة والطباعة . (انظر صفحة رقم ٢٣ من المشروع وص ٢٢٩ من عدد مجلة المجمع الأردني المذكور في الهامش السابق) .

(٩) سبق أن أشرنا في الهامش رقم ٣ ما كان اقترحه الخبير محمد علي المكاوي بشأن صورة الصفر أما في مشروع الرموز الأردني فقد جاء في التوصية نفسها المشار إليها في الهامش السابق ما يلي : (.. ثانيا : (نوصي) أن يستعملوا للصفر شكل (٧) فيكتبوا مثلا العشرة والمئة هكذا : ١٧ ، ١٧٧ إلخ .) .

(١٠) لهذا جاء في تقرير لجنة الأصول والتراث في المجمع الأردني المشار إليه في الهامش رقم ٧ أن الزميل عبد المجيد صغير اقترح أن يكتب للصفر على هذا الشكل (٧) .

إن قواعد الخط العربي^٦ تؤلف اليوم علماء ثابتا ومحددا بالنسبة لأكثر أنواع الخطوط العربية الأعميلة ومقاييس الحروف في هذه الخطوط إنما تعتمد على (الصفير) أو على النقطة بالتعبير الدارج والصفير أو النقطة في علم الخط عبارة عن مربع صغير ضلعه يساوى طول قطعة القلم الذى يكتب به . فإذا ما روعيت القواعد المجمع عليها بدقة كانت الكتابة في غاية الجمال ومنتهى الذوق الفنى الرفيع (١١) .

إن القواعد المشار إليها تقضى بأن رمز الصفير في الخط العربى لا يمكن الاستغناء عنه وأن بقاءه ضرورة يقتضيها جمال الخط ، على أن نحاول إيجاد وسيلة أخرى بمنهنا العيوب التى تسند إليه والتى قد ينجم عنها أخطاء فادحة إذا وقعت بسببه عند استخدام الآلات والأجهزة الراقمة والطابعة والحاسبة آلية كانت أو الكترونية .

٤ - كيف نتفادى عيوب الصفير :

والكى نتفادى عيوب رمز الصفير مع الانبقاء على شكله الشائع يمكننا الأخذ بأحد هذين الاقتراحين :

الأول : العودة في كتابة الصفير إلى أحد

العهود التى مر بها في تطوره : وذلك برسم دائرة تحيط به ترسم بقلم أشد دقة من القلم الذى تخط به الأرقام المرافقة له ، ويمكن أن تكون الدائرة مفرغة منتظمة أو بيضوية أو مخصرة على أن يكون ارتفاعها يساوى ارتفاع الأرقام المرافقة له (١٢) .

الثانى : إضافة تاج أو مظلة إلى رمز الصفير على صورة هلال مفرغ أو أعمى أو على صورة أنشودة أو تويجة يرتفع كل منها إلى علو سلسلة الأرقام التى ينتمى الصفير إليها (١٣) .

لقد عرضت هذين الاقتراحين على بعض أساتذة الخط في سورية ، وكان أحدهم الأستاذ محمود هوارى خريج مدرسة أميرين من أمراء الخط العربى هما الأستاذ بدوى الديرانى السورى والأستاذ حامد الآملى العثمانى تغمدهما الله برحمته . فاستبعد من الأشكال مارأى أنه لا يتفق بسهولة مع قواعد الخط الثابتة ، ثم وجد بالتجارب أرجحها وأيسرها فى الرسم بالقلم نفسه الذى كتبت به الأرقام المجاورة ثم كتب بخط يده الشهادة المرفقة (١٤) .

(١١) انظر نماذج عن هذه القواعد فى الملاحق ذات الأرقام ٤ - ٦ .

(١٢) انظر نماذج عن هذا الاقتراح فى الشكل الأول من الملاحق رقم ٧ .

(١٣) انظر نماذج عن هذا الاقتراح فى الشكل الثانى من الملاحق المذكور آنفا

(١٤) انظر شهادة الخبير فى الملاحق رقم ٨ .

٥ - نهاية البحث وما أرجو تحقيقه :

كان العالم العربي بأسره ، من مشرقه إلى مغربه يقرن الأرقام الهندية بالحروف العربية ولا يفرق في الهوية بينهما ، بينما يقرن الأرقام الغبارية بالحروف اللاتينية ويعتبرهما شيئا واحدا ، فلما أعلنت دول المغرب العربي استقلالها وطردت المستعمرين من أراضيها أخذت العربية في تلك الدول تتصارع مع لغة المستعمرين الشائعة بين شعوبها ، وكان لكل منها أنصارها ، وكان حظ الأرقام الغبارية فائقا إذ اقترن باجماع المتصارعين على الحروف بوصفها عربية الأصل فأقرت إلى جانب الحروف العربية .

ولكن لم يكتف أخواننا علماء المغرب الكبير بالأجلاء بنبد الأرقام المشرقية مع الكتابة بالحروف العربية بل قاموا يتهمون أرقامنا بالعجمة متذرعين بوصفها بالهندية غاضين الطرف عن سبب هذا الوصف الذي كان بسبب أثر الهندود في وضع النظام الحسابي الذي نقله العرب عنهم وأخذوه العالم بأسره بعدئذ .

أما رموز الأرقام نفسها فهي عربية المنشأ ، وعربية التطور وعربية الأسلوب

في ليونتها ولا يمتها وليونة الأرقام الشرقية واضحة وهي على نقض شقيقتها الغبارية المزواة التي تبدو مقحمة اقحاما بين أنواع الخطوط العربية ، باستثناء الخطوط ذات الثزعة الكوفية منها .

واليوم وبعد أن انتقلت جامعة الدول العربية من قلب العالم العربي في مشرقه إلى مغربه أخذت كفة الأرقام الغبارية ترجح بفضل الحو المغربي من جهة ، إضافة إلى الحساس القومي لدى طائفة من شباب المشرق الذي يبلغ حد الهوس مع ضعف في معرفة التراث والتاريخ الصحيح من جهة ثانية .

لكل هذا جئت أناشدكم مستثيرا حميثكم في الدفاع عن العربية وعن الصحيح من أساليب النهوض بها . اتخذ الإجراءات التالية :

أولا : اعتبار قرار مجلس الجمع المؤرخ في ٢٨ من مايو (آيار) سنة ١٩٥٦ مرفوعا إليكم للنظر فيه ومن ثم موافقتكم عليه .

ثانيا : الأخذ باقتراح تسوية رمز (الصفر) بالإبقاء عليه مع إضافة ما لا يفسد شكله ولكن ينفي عنه عيب التشابه مع النقطة (١٥) .

كتابي على حاله لا بد من تعالاه من قبله

على يد محمد بن المرحوم محمد بن محمد

سنة ٩٤٠ هـ

لوحة رائعة بخط ابن البيهقي نقلتها الخزائن من ديوان السادة
كله بخطه ومحمود في دار الكتبة المصرية برقم (٢١٤٥) أدب ١

خط الفارسی "اسی"
 سے چادر زبردست طرح میں لکھا

کے بال تمام ان پر چھوڑ دیا ہے

بے انتہائی خوبصورت اور دلکش خط
 میں لکھا ہے کہ اس خط میں
 ایک نئی بات ہے

مذکورہ بالا متن

بیت خیر ولا ھست در رب عالم
و لا ھست فی عالم غیر رب عالم

بیت خیر ولا ھست در رب عالم

بیت خیر ولا ھست در رب عالم

Yeni talimatlar bağlanan (Hakkı) devlet dairesi ile
bağlanarak (Hakkı) devlet dairesi ile bağlanarak (Hakkı)
in (Hakkı) devlet dairesi ile bağlanarak (Hakkı) devlet dairesi ile bağlanarak (Hakkı)

Yeni talimatlar bağlanan (Hakkı) devlet dairesi ile

ملحق رقم ٥

٩٠٧٠٦٤

٩٦٠٤٥

١٥١٤

١٨٨

١١٥

المسجل الأول



المسجل الثاني

طبع رسم

DRAWER

M. ALHAWARI

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطاط
محمد بن الهادي

الخطاط محمود الهادي يعلن بأن تقادري عيب استعمال شكل
انصيف الحالي في الطباعة باللاتينية الحديثة ويكون اللبما
تفوق قواعد الخط العربي المبنية مقاييسه على النقطة. وأنا
أؤيد رأي الدكتور عدنان الخطيب وأرى أن أرجح الشكل الصفر
الملائم للحرف العربي هو الشكل التالي.

صلى الله عليه وسلم

دمشق في ٢١ جمادى الآخرة ١٤٠٧ هـ الموافق ٢١ كانون الثاني ١٩٨٧ م

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٩ ١٠

٢٠ ٣٠ ٤٠ ٥٠ ٦٠

الملحق رقم ٩



عشرون

الشكل المقترح لرقم عشرون

عدنان الخطيب
عضو المجمع من سورية

بشائر في أفق العروبة

(قصيدة)

للأستاذ حسن عبد القادر

لَمْ غَابَ فِي سَمَاءٍ بَعِيدَةٍ ثُمَّ آتَتْ أَطْيَفُ الْمُحَمَّدِ
وَمَرَّ ضَمَاعٌ وَرَاءَ عِجَافٍ مِنْ سِنِينَ ذُنَابِهَا مَرُودَةٌ
ثُمَّ عَادَتْ تَرِفٌ مِثْلَ رَفِيفِ الْغَمِّ فَجَرَّتْ، تُحْيِي أَوطَارَنَا الْمَوْعِدَةَ
وَحَدَّ (الْمَغْرِبُ الْكَبِيرُ) سُرَاهُ وَبِهِ جَدَّدَ الْإِخَاءُ خُلُودَهُ
قَبْلُ أَحْيَا (الْخَلِيجُ) وَحْدَةَ شَعْبٍ ثُمَّ أَذْنَى مَسَارَهَا وَخُدُودَهُ
وَبَدَتْ (مِصْرُ) فِي سَمَائِلِهَا الْغُرُ بِجَمْعِ الْقُلُوبِ جِدَّاسٍ بَعِيدَةٍ
تَنْثُرُ الزَّهَرَ فِي الدُّرُوبِ وَتَسْمُو بِرَأُوهَا أَوطَارُهَا الْمَعْمُودَةِ
هِيَ بَيْتُ الْقَصِيدِ فِي أُمَةِ (الْعُرُ بِ) وَمِنْهَا الزَّمَانُ أَهْدَى نَشِيدِهِ
حَمَلَتْ رَايَةَ الْكِفَاحِ وَمَاذَا لَتْ ، تَبْ- أَرَى أَيَّامَهُ الْمُشْهُودِ
فَأَحْمَدِ السَّبْرَ كَمْ أَنْارَ سَبِيلًا كَمْ بِهِ حَقَّقَ الزَّمَانُ وَعْدَهُ
لَا أَرَى الْأَفْقَ غَائِمًا مِثْلَمَا كَانَتْ ن ، وَلَكِنْ أَجِسُ ثُمَّ رُعْدَهُ
فَانْتِلَافُ النُّفُوسِ يَرْجُو مَزِيدًا مِنْ صَدَاءِ الْعُرُوبَةِ الْمَمْدُودَةِ
وَرِفَاقُ الْكِفَاحِ مَازَالَ فِيهِمْ عَاتِبٌ ، غَاضِبٌ ، وَرُؤْيَا عَنِيدَةٍ .

* * *

* أُلْقِيَتْ فِي الْجُلُوسَةِ الثَّانِيَةِ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ٢٢ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ ١٤٠٩ هـ الْمَوَاقِقِ ٢٨ مِنْ فَبْرَايِرِ
(شَبَاط) سَنَةِ ١٩٨٩ م .

لا تسلني عن أرض (لبنان) غاب (أرض)
ويح (لبنان) قد عراه ذبول
غاله آله ، ورب سـلام
نحن في موسم الربيع ، فلم لاه
كلما شاقني عيب - رؤايب
إن أكن قد عشقت منه قدبما
أبطل الإنسان فيه مضاعا
شهر الغدر فيه أمضى سلاح
فدا صرحه حمى مستباحا
أترى يستعيد مجدا مضاعا
لهن نفسي لجزنة قد تهاوت
نكس الدهر ثم أعـلامه جز

لأرض (وأستهدف الجوى غريده
وأسى أرت الصراع وقوده
نمناح في محنة الأمانى البلدة
نتفيا ظلاله النشودة ؟
تجاملت ، مرسلا تنهيدة
إننى رافض بحق جـديده
وتظلل المذابح العريضة
وأستجد العـدو فيه المكية
أترى يكسر الإخاء فيه قـوده
فنجى أطيافه ، ووروده ؟
ولحـرية غدت مفتـودة
رأ ، فهل يستعيد خضرا بـنده ؟

* * *

في (فلسطين) عاصف هال (صهي)

نمض الثائرون أكنان ذل
من صـغار عادوا كبارا بعزم
تركوه في ذملة اللعـر يهنى ،
منهمقوا الجمر ، فاستحالوا شرارا
صعقـوه حجارة بـارك اللـه
أرخصـوا من عـناده مستبدا
وأرتدوا حلة النضـال انيـدة
راع زحف العدو ، فل حديد
لم يبالوا تـهـديده ووعـيده
حنزتهم إلى الزجهاد انعتبـه
نشوذة اللـه تـستـمـر شـهيدـه

وَذِيَارُ الْأَحْرَارِ مَهْمَا أَسْتُضِيِمَتْ
صَمِيدُ النَّاشِثُونَ فِي خَيْمَةِ الْقَهْ
أَذْكُرُونَا أَمْجَادَ مَاضٍ عَرِيقَ
أَرْجِعْ—وَالْأَدْوَلَةَ بِرَغْمِ الْمَآسَى
مَصْرُخُ الْبَغَى حَانَ فَالْبَغَى مَخْذُو
فَهِيَ تُخْزِي الْبَاغِي ، وَتَعْجِمُ عُدَّةَ
رَفَأْضَحُوا عَلَى الزَّمَانِ شُهُودَهُ
' فِي زَمَانِ الْمَطَامِحِ الْمَحْمُودَةِ
وَأَسْتَعَادُوا كِيَانَهُمْ ، وَوُجُودَهُ
لُ ، وَأَخْ—أَلَامُهُ غَذَتْ مَوْوُودَةً !

* * *

أُمَّةُ الْعَرَبِ غُرْبَةُ الرُّوحِ طَالَتْ
قَدْ تَدَاعَى عَلَيْكَ فِي غَفْلَةِ النَّصِ
فَاسْتَعَزَى بِوَحْدَةٍ تَرْفَعُ الظُّلْمَ—
إِنْ تَوَحَّدَتْ فَاَنْتَصَ—أَرْكَ آتِ
قَدْرٌ أَنْ تَعِيَ الْمَصِيرَ شُعُوبِ
مُنْذُ حِينٍ وَنَحْنُ نُرْقُبُ صُبْحًا
أَتَسْرَاهُ يَجِيءُ! أَبْعَدُ ثَنَاءً—
وَلَوْى الدَّهْرُ عَنْ أَمَانِيكَ جِيدَهُ
ر ، خَبِيثٌ يُضَارِ يَحْتُجُّ الْجُنُودَهُ
م ، وَتُعَلِّي رَايَاتِنَا الْمَعْقُودَةَ
أَوْ تَفَرَّقَتْ فَلَا أَمَانِي بِ—مَدِيدَةٍ
قَدْرُ الْعَرَبِ ، وَخُدَّةَ مَشْهُودَةٍ
قَدْ أَطَالَ أَزْوَارَهُ ، أَوْشُرُودَهُ
فَنَنَاجِي بِفَرَحَةِ الْقَلْبِ عِيْدَهُ !

حسن عبد الله القرشي
عضو المجمع المراسل من السعودية



دواب الأرض في القرآن الكريم

للككتور محمد رشاد الطوبى

تقد كرم الله سبحانه البشر ، كما أظهرت الدراسات الدقيقة وتعالى تلك الدواب ، : التي أجريت على البعض منها - وذلك مختلفة الأنواع ، المتعددة الأشكال بعد نزول القرآن الكريم بأزمة طويلة - والأحجام والألوان ، والتي منها ما يدب على سطح الأرض ، أو يستقر مختبئاً في لمبقاتها السطحية ، أو يطير في أجواز الفضاء كرمها الله سبحانه وتعالى بالآية التالية :

﴿ وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ (صدق الله العظيم)
 فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى آية كريمة أخرى ، أكثر شمولاً من الآية السابقة بما يتعلق بمخلوقات الله سبحانه وتعالى ، وتلك هي :

الكلمات البسيطة الواضحة أن الله سبحانه وتعالى قد رفع من شأنها ، وأعلى من قدرها .
 (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس)
 لتصبح في منزلة الأمم التي يعتر بها بنو نوح

(*) ألقى في الجلسة الثانية في يوم الثلاثاء ٢٢ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٨ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩ م .

والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ
وكثيرٌ من الناسِ) - صدق الله العظيم .

لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى راضٍ
عن جميع الدواب ، لأنها تسجد له وتسبح
حمده ، ولكنه غير راضٍ عن كل الناس ،
بمنهم من آمن ومنهم من كفر .

إن الأصل في اشتقاق كلمة «الدواب»
هو أنها تدب على سطح الأرض ، ويسمى
لانتقالها صوت ، وهى كلها تشترك في
ذلك ، من النملة الصغيرة ، الى هى من
أصغر مخلوقات الله حجماً ، إلى الفيل وهو
أضخم الحيوانات الأرضية المعاصرة على
الإطلاق . ولكل منهما في القرآن ذكر ،
كما أن لكل منهما في القرآن قصة مشهورة
ولا أظن أن هناك من لا يعرف قصة
النملة التى شاهدت سليمان وجنوده يجتازون
الوادي الذى تعيش فيه ، فخاطبت أفراد
قومها قائلة :

(يا أيُّها النملُ ادخلوا مساكنكم
لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا
يشعرون) - صدق الله العظيم .

ولما كان سيدنا سليمان عليه السلام على
معرفة بلغة الحيوانات على اختلاف أنواعها
فقد أدرك قولها على الفور ، وتبسم منه
صاحكاً ، وسوف نستعرض بعد قليل موجزاً
عن لغة الطير والحيوان .

ما قصة الفيل . وهى التى وردت في
قوله سبحانه وتعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ
الْفِيلِ) - صدق الله العظيم .

وتشير تلك الآية الكرمة إلى جيش
« أبرهة الحبشى » الذى أعاد جيشه أ
كبيراً على رأسه فيل ضخم هاجم
به بلاد العرب ، وغزا مكة المكرمة
ببيل الإسلام ، ولكن الله سبحانه وتعالى
سم يتركهم كثيراً يتمتعون بهذا النصر ،
ل سرعان ما أرسل عليهم « طيراً أبابيل »
أبادت هذا الجيش عن آخره ، وانقذت
مكة المكرمة من الدمار .

وبين هذين الحدين - النملة وما هو
أصغر منها بكثير كالبكتريا والطحالب
الدقيقة والحيوانات وحيدة الخلية ، والفيل
وما هو أضخم منه بكثير مثل حوت العنبر

والهرقل وحوت بسكاي وغيرها من الحيتان البحرية^٢ ، بين هذين الحدين ينتشر « المليون نوع » من الحيوانات التي استطاع علماء التصنيف توصيفها^٣ وتبويبها^٤ في مختلف بلاد العالم إلى :

Phyla	شعب ^١
Classes	طوائف
Orders	ورتب]
Families	وقصائل
Genera	وأجناس ^٦
Species	وأنواع
Races	وسلالات

وهي في مجموعها تستوطن كل مكان على اليابسة أو في البحر ، حيث تستغل جميع البيئات والمناطق الجغرافية وغيرها ، فمنها على سبيل المثال ما يعيش في الصحارى لجرداء ، أو في السهول المنبسطة التي بخضر آدمها بعد هطول الأمطار ، أو أعلا نم الجبال المرتفعة ، أو على سفوحها المنحدرة ، أو في داخل الكهوف والسراديب التي يصعب الوصول إليها ، كما أن منها ما يعيش في الأحراش والأدغال والغابات ،

أعلى أشجارها وشجيرات المتشابكة الفروع والأغصان ، كما يسبح في أنهار تلك الغابات ومستنقعاتها ومصادرها المائية الأخرى أنواع عديدة من الحيوانات المائية ، كما أنها تستخدم أيضاً مساق تلجأ إليها الحيوانات الأرضية عند اشتداد القيظ ، وخصوصاً في مواسم الحرارة والجفاف .

و هناك عدد كبير من تلك الدواب ورد ذكرها في القرآن الكريم^٥ ، بدءاً من تلك الحيوانات الصغيرة كالنمل والنحل والذباب والبعوض والجراد والقمل وغيرها^٧ من الحشرات ، ومروراً بالحية والثعبان والهدد ، وانتهاءً بالخيل والبغال والحمير والأنعام والإبل والقردة وغيرها من ذوات الأقدام .

وقد ذكر كل من تلك الدواب إما في إحدى المناسبات التاريخية أو إشارة لإحدى قصص الأنبياء والمرسلين ، أو تذكراً لما تؤديه للإنسان من خدمات في حياته ، المنزلية أو الحقلية ، أو لإمداده بما يحتاج إليه من طعام أو ملابس ، أو غير ذلك من الفوائد والمزايا المتعددة التي لا حصر لها

* * *

منطق الطير :

سبق أن ذكرنا أن للحيوانات لغة يتفاهمون بها فيما بينهم ، ويوجد في القرآن الكريم ما يقطع بصحة هذا القول ، ومن ذلك على سبيل المثال قصة الحديث الذي تم بين الهدد وسيدنا سليمان عليه السلام ، فقد كان هذا الرسول الكريم يتفقد الطيور والحيوانات الأخرى فلم يجد الهدد بينهم ، كما يتضح من الآية الكريمة التالية :

(وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)

(صدق الله العظيم)

وماهى إلا فترة وجيزة حتى حضر الهدد ، معتذراً عن تأخره ، وموضحاً أن السبب في هذا التأخر كان لأمر عظيم ، فقد شاهد وهو يطير في جو السماء قوماً يعبدون الشمس من دون الله ، وتشولى أمرهم سيدة لها « عرش عظيم » ، وكانت تلك السيدة هى بلقيس ملكة سبأ ، فما كان من سيدنا سليمان إلا أن أمر الهدد بأن يحمل رسالة يلقيها عليها وعلى أتباعها من القوم

الظالمين ، داعياً لهم جميعاً بالهدى والاسلام في قوله الصريح الواضح :

(أَأَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَاتُونِي مُسْلِمِينَ)

(صدق الله العظيم)

وبقية القصة معروفة لاداعى للاسترسال فيها ، مع أنها من أمتع القصص التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ولا يهمنا في هذا المجال سوى الحديث الذي دار بين سيدنا سليمان والهدد ، وذلك لأن هذا الطائر المشهور كان بطبيعة الحال يتكلم « بلغة الطيور » ، وهو ما يوضحه لنا القرآن الكريم في قوله سبحانه وتعالى :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ)

(صدق الله العظيم)

وواضح هنا أن المقصود « بمنطق الطير » هو « لغة الطيور » التي يتفاهمون بها فيما بينهم ، كما يشخاطب بنو البشر .

اللغة في مفهومها العام :

لا بد لنا قبل الدخول في تفصيلات أخرى فيما يتعلق « بلغة الطير والحيوان » من إيضاح المقصود بكلمة « لغة » في مفهومها العام ، كما هو وارد في المعاجم

العربية والأجنبية ، فقد جاء في « المعجم الوسيط » على سبيل المثال أن اللغة « هي أصوات يُعَبَّرُ بها كل قوم عن أغراضهم » ، وجاء في معجم اكسفورد الكبير أن « اللغة هي طريقة التعبير بالكلمات المسموعة » وجاء في معجم وبستر أن « اللغة هي نظام للتخابر بين بنى البشر بواسطة رموز مكتوبة أو صوتية » .

يتضح من تلك التعريفات وغيرها أن اللغة الحقيقية تعتمد على عنصرين أساسيين ، وهما : صدور أصوات من مصدر ما ، ثم سماع هذه الأصوات ، وفي الإنسان يتحقق العنصر الأول باهتزاز « الأحبال الصوتية الموجودة داخل الحنجرة » ، ويقوم اللسان الموجود في أفواهنا بتكثيف تلك الأصوات عند مرورها عبر تجويف الفم إلى الخارج ، أما سماع هذه الأصوات والاستدلال على مفهومها فهو من وظائف الأذن ، وهي عضو السمع عند الإنسان ، وغيره من الطيور والفقاريات الأخرى .

ولذلك فإن الطفل الصغير المصاب بالصمم ، لا يستطيع سماع الأصوات أو الكلمات التي نتبادلها فيما بيننا ، ولذلك

فإنه يصبح فيما بعد من البكم الذين لا يتكلمون ، ولست في حاجة إلى القول بأن الإنسان يتعلم في طفولته جميع الكلمات التي ينطق بها كل من حوله من البشر ، أي أنه يتعلم اللغة تعليماً ، ولا يولد على معرفة بها على الإطلاق ، ونستطيع أن نتلمس العلاقة بين الصمم والبكم في كثير من الآيات القرآنية الكريمة ، ومنها على سبيل المثال :

(صُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)

(صدق الله العظيم)

والواقع - مع أن البكم أو الخرس لهم لغة خاصة يتفاهمون بها ، وهي لا تعتمد إطلاقاً على الأصوات ، ولذلك فقد قيل في تعريفها إنها لغة الأصابع ، وجاء في قاموس اكسفورد مثلاً أن « لغة الأصابع » عبارة عن : « التفاهم برموز متفق عليها مسبقاً بواسطة أصابع اليدين » .

لغة الطير والحيوان :

ونستطيع من هذا المنطلق إن نتدرج بسهولة إلى المقصود « بلغة الطير والحيوان » فهي تختلف في مفهومها العلمي اختلافاً واضحاً عن « لغة الإنسان » ، كما أنها

تعتمد في كثير من الحالات على طرق وأساليب متباينة ، يتوقف كل منها على نوع الحيوان الذي يمارس استخدام هذه اللغة أو تلك ، فقد تكون في كثير من الحالات على شكل أصوات أو صيحات أو تغريد ، وفي حالات أخرى لا تكون صوتية على الإطلاق ، وتستخدم فيها بعض الحواس الأخرى كالشم واللمس والإبصار وغيرها .

كما أنها قد تكون في بعض الحالات على شكل « إشارات ضوئية » تصدر عن مجموعات مختلفة من الحيوانات يطلق عليها اسم « الحيوانات المضيئة » ومن أشهر أمثلتها « الذباب المضيء » الذي ينتشر في كثير من المناطق الاستوائية ، وكذلك « الديدان المتوهجة » ، وكلاهما من الحشرات غمدية الأجنحة ، وقد أجريت عليهما كثير من التجارب العملية التي أوضحت أن الذكور فقط هي القادرة على إنتاج أضواء قوية ، وأنها لا تصدرها إلا في ظلمة الليل ، وقد وصفت تلك الأضواء بأنها من « الإشارات التزاوجية » التي يصدرها الذكور لتستدل بها الإناث على أماكن وجودها .

وأيا كانت وسيلة هذا التفاهم فقد اعتبرها العلماء المختصون لغة لهذه الحيوانات أو الحشرات أو الطيور ، طالما أنها تستخدم في نقل المعلومات والمشاعر والاحتياجات الغذائية أو الجنسية من فرد إلى آخر .

ويحتوى عالم الحيوان بصفة عامة وعالم الطيور بصفة خاصة على عدد كبير من الأنواع ، يستطيع أفراد كل منها أن يتفاهموا فيما بينهم بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التي سبق ذكرها ، وقد استطاع العلماء المختصون بدراسة « سلوك الحيوان » أن يوضحوا لنا أن التفاهم الذي يتم بين أفراد النوع الواحد ، قد يكون بقصد التحذير من أخطار تلوح في الأفق ، أو التنبيه إلى اكتشاف مصادر غذائية جديدة ، أو التجمع في قطيع واحد أو سرب واحد ، وخصوصاً أثناء الانتقال أو الهجرة من مكان إلى مكان ، أو بقاء الأسرة متماسكة حتى لا يضل صغارها عن الكبار في موسم التكاثر ، أو غير ذلك من الأسباب .

هجرة الطيور :

ننتقل بعد ذلك إلى موضوع هجرة الطيور ، تلك الهجرة التي تعتبر من أدق

الظواهر الحيوية ، واكثرها شمولاً في الحفاظ على الحياة ، وفي تلك العملية التي تمارسها أنواع خاصة من الطيور عاماً بعد عام في دقة ونظام ، تلعب « الأصوات » دوراً أساسياً في تجمعاتها قبل بدء الرحيل ، ثم المحافظة على الآلاف المؤلفة التي يتكون منها السرب الواحد متماسكة متآزرة ، لايفضل منها فرد ، أو ينحرف عن خط سير الجماعة في كل من رحلتى الذهاب والعودة . .

وتعيش تلك « الطيور المهاجرة » طبيعياً في الأقاليم الشمالية الباردة من نصف الكرة الشمالى ، في كل من آسيا وأوروبا وأمريكا الشمالية ، وهى في الواقع من سكان تلك المناطق ، ولكن عند حلول فصل الشتاء ، تشتد برودة الجو ، ويتساقط الجليد على سطح الأرض ، ويقل الغذاء تدريجياً حتى يكاد ينعدم .

ولا تجد تلك الطيور أمامها وسيلة للعيش سوى القيام بهجرة جماعية نحو الجنوب ، حيث يكون الجو أكثر دفئاً ، والغذاء أكثر وفرة وتنوعاً ، وقد لاحظ علماء الطيور أنها تحدث في تلك الفترة من

تاريخ حياتها ، كثيراً من « الإشارات الصوتية » المتتالية ، وأنها لاتنقطع عن ترديد تلك الأصوات ، حتى تتجمع منها في النهاية أسراب ضخمة مستعدة للهجرة نحو الجنوب .

ويتكون كل واحد من تلك الأسراب من أعداد ضخمة من الأفراد من نوع واحد فقط ، ويكون لكل منها مرشد أو دليل من أقوى تلك الطيور وأعظمها شأناً ، حيث يسير في مقدمة السرب وكأنه رمز للكفاح والصمود ، ويقطع البعض من تلك الأسراب آلافاً من الكيلومترات في تلك الرحلة الجماعية ، ولما كانت هناك أنواع من الطيور لاتهاجر إلا ليلاً ، كان من الضروري صدور أصوات مميزة ، ليبقى السرب متماسكاً أثناء الطيران ، وخصوصاً في الليالى الحالكة الظلام ، التي لايجدى فيها الإبصار .

وبعد انقضاء فصل الشتاء الأوروبي تعود تلك الطيور إلى أوطانها مرة ثانية ، حيث تكون أجسامها قد امتلأت شحمياً ولحماً ، وأصبحت مستعدة للتكاثر في تلك الأوطان ، ومن الغريب أن بعضاً من تلك الطيور التي تهاجر من انجلترا إلى جنوب

أفريقيا ، تعود بعد رحلتى الذهاب والعودة إلى نفس المناطق التى هاجرت منها ، وأحياناً إلى نفس الأعشاش التى كانت تبيض فيها من قبل .

ومن أشهر الطيور المهاجرة التى تصل إلى مصر :

السمانى (السلوى) والكركى (الغرنوق والعنز (اللقلق الأبيض) والوروار والغر والشهرمان والبلبول والخضارى والشرشير والبجع والحبارى والدريجة والشنقب والطيئوى وقنبرة الماء وغيرها .

اصوات لا تسمع :

يستطيع الإنسان سماع الأصوات التى تصدر من الأنواع المختلفة من الطيور ، ومنها على سبيل المثال زقزقة العصافير ، أو هديل الحمام واليام ، أو تغريد البلابل والكروان . أو تلك الصرخات الحادة التى تطلقها الطيور البحرية عندما تشاهد سرباً من الأسماك يسبح بالقرب من سطح الماء .

ولكن هناك أصواتاً أخرى لا يستطيع الإنسان سماعها على الإطلاق ، وتلك هى أصوات الخفافيش ، والخفافيش من الحيوانات الثديية ، الأنثى منها تحمل

وتلد وترضع صغارها ، كما تفعل الأنثى من بنى البشر . وهى من الحيوانات الليلية التى تختبئ فى أوكارها أثناء النهار ، ولا تخرج للبحث عن غذائها إلا ليلاً .

وقد لوحظ منذ قديم الزمان أنها قادرة على الطيران بسرعة فائقة ، وفى الظلام الحالك ،

دون أن ترتطم بالأشجار أو الحواجز الأخرى التى تعترض طريقها ، ولم يكن من المستطاع تفسير تلك الظاهرة ، إلا بعد التجارب الواعية التى أجراها عالم الأحياء الإيطالى المشهور « سبالنزانى » ، فقد كان

يضع فى معمله عدداً من الأحبال ، يدها فى مختلف الاتجاهات ، وقد علق بها أجراس خفيفة الوزن سرعان ما تسمع جلجلتها عند لمس الأحبال ، ثم يطفى بعد ذلك أضواء المعمل ، ويتركه فى ظلام حالك ، ويطلق الخفافيش موزع التجربة من أقفاصها ، فكانت تطير فى مختلف الاتجاهات ، حتى لتكاد تلمس وجهه ، وهو قابع فى سكون تام ، فى أحد الأركان دون أن يصدق جرس واحد من تلك الأجراس العديدة ، وعرف بعد ذلك أن الخفافيش تصدر أثناء طيرانها الليلي « أصواتاً فوق

«سمعية» ، لا تستطيع الأذن البشرية إدراكها ، وأن تلك الأمواج الصوتية تنعكس من الحواجز التي ترتطم بها ، فتلتقطها أذن الخفاش ، رتنحرف عن تلك الحواجز فلا ترتطم بها . وقد استخدمت تلك المعلومات فيما بعد في تصنيع « أجهزة الرادار » .

دابة الأرض :

بين دواب الأرض جميعاً على اختلاف أشكالها وأحجامها دابة صغيرة اختصها الله سبحانه وتعالى، بحدث عظيم ، وتلك هي « دابة الأرض » التي ورد ذكرها في الآية الكريمة التالية :

(فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتِهِ)
(صدق الله العظيم)

إن ما يدور حول تلك الدابة من حديث يدل بشكل قاطع على أن المقصود بها هو « الأرضة » (النملة البيضاء) .

وكانت الأرضة معروفة عند العرب حيث وصفت بأنها دويبة صغيرة تشبه النملة . وقد اشتق اسمها من فعل « أرض »

بمعنى أكل ، أما المنسأة فهي العصا الخليفة التي تكرر عادة في حوزة الراعي ليهش بها على الأغنام أو يتوكعها عليها ، وموجز تلك القصة أن سيدنا سليمان عليه السلام قد أدركه الموت وهو واقف على قدميه . ومركز على عصاه المصنوعة من الخشب . وكانت الأرضة قد وصلت إلى تلك العصا من باطن الأرض ، وأنحلت تنخر فيها من الداخل تدريجياً حتى أتت عليها تماماً ، ولم يبق منها سوى قشرتها الخارجية الرقيقة ، وسرعان ما سقط سيدنا سليمان بعد ذلك على الأرض ، حيث أعلنت وفاته بعد هذا السقوط .

والواقع أن « الأرضة » تختلف كل الاختلاف عن « النمل الحقيقي » الذي يعرفه كل إنسان ، والذي يعيش معه في المنازل والحدائق والمزارع والمصانع وغيرها . فالنمل الحقيقي له جسم صلب داكن اللون عادة ، ولكن « الأرضة » جسمها لين فاتح اللون ، وهذا هو السبب في إطلاق اسم « النمل الأبيض » عليها ، ولا يوجد للأرضة خصر ضيق بين الصدر والبطن كما في النمل الحقيقي ، كما أنهما يختلفان أيضاً في العادات الغذائية .

فالنمل الحقيقي يأكل كل شئ و يعيش عليه من بقايا الحيوانات الحية أو الميتة والأوراق النباتية والفطريات ورحيق الأزهار والعصارات النباتية وما يستطيع الوصول إليه من طعام الإنسان كالخبز والسكر والخضراوات والمشروبات الحلوة وغيرها ، بينما لا تتغذى الأرضة إلا على الخشب والمصنوعات الخشبية ، كما تتغذى في الغابات على جذور الأشجار وسيقانها وفروعها المختلفة .

وفي مجتمع « الأرضة » يمكن تمييز أربعة أنواع من الأفراد ، وهى الذكور والملكات والجنود والشغالة ، ولكل منها وظيفة محددة تودى لصالح هذا المجتمع ، وتكون الذكور عادة قليلة العدد صغيرة الحجم وظيفتها الوحيدة هى إخصاب الملكات .

ولكل مستعمرة ملكة واحدة لا تقوم بأي عمل من الأعمال داخل المستعمرة سوى انتاج البيض ، ويوضح لنا عالم الحشرات « اسكيريتش » (Escherich) فى بحث أجراه على أحد الأنواع الإفريقية من الأرضة أن الملكة تضع ما يقرب من

ثلاثين ألف بيضة فى اليوم الواحد ، أى ما يقرب من عشرة ملايين بيضة فى العام ، ولما كانت الملكة تعيش ما يقرب من عشرة أعوام فى المتوسط فهى تضع مائة مليون بيضة خلال حياتها . وتوضح لنا تلك الأرقام السرعة التى تنتشر بها الأرضة إذا ما صادفت البيضة الصالحة لحياتها .

وهناك من الأفراد من تخصصوا فى الدفاع عن المستعمرة وسكانها وهم الجنود ، وهم يختلفون عن بقية السكان بشكل واضح ، إذ أن لهم رؤوسا كبيرة وفكوكا قوية حادة تستخدم كسلاح فتاك فى الهجوم على أى دخيل يحاول اقتحام المستعمرة أو التعرض لسكانها ، وبذلك يعيش باقى السكان فى أمن وسلام ، ومن الغريب أن هولاء الجنود قد يكونون من الذكور أو من الإناث على حد سواء .

والشغالة أيضا بعضها من الذكور ، والبعض الآخر من الإناث ، وهى تقوم بجميع الأعباء المنزلية المتعلقة بحياة

المستعمرة وازدهارها ، ومنها على سبيل المثال جمع الغذاء الكافى لجميع سكان المستعمرة ، ثم القيام بإطعام الملكة والجنود و « الحوريات » الصغيرة التى تفقس من البيض ، وبناء الأعشاش الجديدة اللازمة للسكان الذين يتزايد عددهم يوماً بعد يوم ، وأيضاً عمل الممرات أو السرايب التى تربط جميع الأعشاش ببعضها ببعض لسهولة الاتصال فيما بينها .

والواقع أن تلك الشغالة هى التى تقوم بقرض الخشب وابتلاع أجزاء من التربة ، متخذة من تلك المواد طعاماً لها ، وبعد هضم هذا الطعام تبقى الشغالة جزءاً منه لإطعام الملكة والجنود والحوريات الصغيرة كما ذكرنا من قبل . وهى تستخدم فى بناء الأعشاش والممرات مادة من جزيئات التربة تبللها بلعابها ، ثم تقيشها بعد فترة من الزمن فتصبح صالحة للاستعمال - « كمادة لاصقة » ، ويقول عالم الحشرات

المشهور هويلر (Wheeler) - إن هذه المادة تصبح بعد جفافها فى صلابة « الأسمنت » الذى يستخدمه الإنسان فى عمليات البناء والتشييد .

ومن أطرف ما عرف عن تلك الدابة الصغيرة أنها قد مارست « زراعة الحدائق » قبل أن يعرفها الإنسان بأزمته بعيده ، إذ تقوم الشغالة بالتجول بين نبات الأرض لتجمع منه بعضاً من الفطريات (وهى من النباتات البسيطة الخالية من الكلوروفيل) ثم تقوم بزراعتها داخل المستعمرة ، حيث تنمو إلى حدائق مزدهرة تسر الناظرين ، ويوضح لنا « هويلر » أن « حدائق الفطريات » التى تتم زراعتها على هذا النحو ، تصبح بعد نموها « دوراً للحضانة » فى مستعمرات الأرضة ، فهى تموج بالآلاف العديدة من الأفراد حديثة الفقس ، وتقوم تلك الأفراد الصغيرة فى غدوها ورواحها داخل تلك الحدائق بجنى ثمارها ذات القيمة الغذائية العالية . ومن الغريب أن الشغالة الناضجة وكذلك الجنود لا يقتربون من ثمار تلك الحدائق على الإطلاق ، بل يتركونها لمن هم فى حاجة إليها من صغار النمل .

ولا يقتصر العيش فى جماعات منتظمة يسودها الهدوء والدقة والنظام على الأرضة وحدها ، بل هناك أيضاً حشرات أخرى كالنمل أو النحل تمارس مثل تلك « الحياة

الاجتماعية » ، حيث وصفها الله سبحانه وتعالى بأنها « أُمَمٌ أَمْثَالَنَا » ، والـ كفى اخترت من بينها جميعاً تلك الأرضة التي أكلت عصا سيدنا سليمان عليه السلام ، ويرجع هــذا الاختيار في الأساس لأن « الأرضة » قد أخذت تنتشر في وقتنا الحاضر انتشاراً سريعاً في بعض القرى المصرية من صعيد مصر ، حيث طاعتنا الأنبياء بأنها دمرت قرية بكاملها وشردت جميع سكانها ، وتلك هي « قرية السلام » بمحافظة أسوان ، ثم أخذت بعد ذلك تنتشر في كثير من القرى المجاورة ، حيث تلتهم المنازل المصنوعة من الخشب وكل ما تحتوى عليه من الأثاث أو المصنوعات الخشبية كما عرفنا أيضاً أنها انتقلت إلى كل من السويس وبورسعيد ، حيث بدأت في مهاجمة المنازل الخشبية ، وخربت مئات الأطنان من الخشب المستورد في مخازن الجمارك والتجار ، مما استدعى القيام بحملة مكثفة يقوم بها حالياً المختصون في وزارة الزراعة لمكافحة تلك الآفة الخطيرة ووقف انتشارها إلى أماكن أخرى .

الإنسان ودواب الأرض :

هناك من الآيات البينات ما يدل بشكل واضح على أن الله سبحانه وتعالى قد أشار إلى الإنسان نفسه على أنه من دواب الأرض ، ومن ذلك على سبيل المثال الآية الكريمة التالية :

« وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى » . (صدق الله العظيم)

وآية أخرى مشابهة :

« إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » . (صدق الله العظيم)

ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى قد ميز الإنسان عن جميع المخلدات -وقوات الأخرى بالعقل والحكمة وحسن التدبير ، كما أوضح دون لبس أو غموض أنه سبحانه وتعالى قد وضع كل تلك المخلوقات في خدمة الإنسان لينعم بالحياة الحرة الكريمة .

ولا تقتصر المنافع والمزايا على تلك -الدويبات الصغيرة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ومنها النحل على سبيل

المثال ، وهى التى يقول عنها فى كتابه
الكريم :

« يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ
أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » .

(صدق الله العظيم)

بل تمتد تلك المنافع والمزايا فى الأساس
إلى تلك الدواب الكبيرة التى تودى للإنسان
خدمات لا تعد ولا تحصى . فهناك مثلاً

دواب الحمل التى تستخدم فى الركوب
وجر العربات وحمل الأثقال ، وهى التى
ورد ذكرها فى الآية الكريمة التالية :

« وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا
وَزِينَةً » . (صدق الله العظيم)

بل إنها تستخدم أيضاً فى الحرب والقتال
مصدقاً لقوله سبحانه وتعالى :

« وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ
رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ »
(صدق الله العظيم)

وهناك أيضاً تلك الدواب التى يتخذ

الإنسان من لحومها وألبانها طعاماً له ،
ولأطفاله فى مختلف بلاد العالم ، وتلك
هى « الأنعام » التى ورد ذكرها فى الآية
الكريمة التالية :

« وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ » .

(صدق الله العظيم)

وفى آية أخرى أكثر شمولاً :

« وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ
وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا
وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ » .

(صدق الله العظيم)^(١)

وقد جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم
الذى أصدره المجمع عام ١٩٧٠ أن كلمة
« الأنعام » تطلق فى الأصل على الإبل ،
كما أنها تطلق أيضاً على الإبل والبقر
والغنم على التوسع . وهى جميعاً من ذوات
الأربع (أى تلك التى تمشى على أربعة من
الأرجل) .

(١) الصوف للغنم ، والشعر للمعز ، والوبر للإبل .

الأصابع الأخرى . حيث يستطيع الإنسان
عن طريق تلك اليد القابضة الإمساك
بمختلف الآلات والأدوات .

ويعزى كثير من العلماء تفوق الإنسان
وتقدمه في العلوم والفنون ، وإتقانه لكثير
من الحرف اليدوية التي تحتاج إلى مهارات
عالية ، ونجاحه في ولوج الميادين الزراعية
والصناعية وغيرها ، يعزون كل تلك
القدرات إلى امتلاكه تلك اليد القابضة
التي يقع فيها الإبهام في مواجهة الأصابع
الأخرى في اليد .

تلك نبذة موجزة عن « دواب الأرض
في القرآن الكريم » ، وهي التي تشكل
في مجموعها موضوعاً متسع الأرجاء ، ومتعدد
النواحي والأغراض ، لعل أكون قد وفقت
فيها في إيضاح بعض الجوانب العلمية
والتطبيقية التي لاتخفى أهميتها على أحد ،
وعذري في ذلك هو ضيق الوقت الذي منحه
لي لإتمام هذا الحديث .

والله ولي التوفيق .

محمد رشاد الطوبى
عضو المجمع

أما الإنسان - وهو الذى وضعه الله
سبحانه وتعالى على رأس تلك المخلوقات
جميعاً - فهو يمشى على رجلين اثنتين
فقط ، ويكون في سيره معتدل القامة ،
مرفوع الرأس بطريقة لا يدانيه فيها أى
مخلوق آخر على الإطلاق . وهو ما تشبه
إليه الآية الكريمة التالية :

« لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ »

(صدق الله العظيم)

وهناك آية أخرى مشابهة تقول :

« الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ » .

(صدق الله العظيم)

وتحتوى كل من هاتين الآيتين على
إشارة واضحة إلى حسن القوام واعتدال
الجسم ، كما هو مشاهد وملحوس .

وقد أدت استقامة القامة وارتكاز الجسم
على رجلين اثنتين بدلاً من أربع ، إلى
تحرير الرجلين الأماميتين ، حيث تحولتا
إلى ذراعين يستخدمهما الإنسان في مختلف
الأعمال والأغراض ، ولعل من أهم تلك
التحورات انزلاق الإبهام ليصبح في مواجهة

شعراء مغمورون

(عبد بن عمرو بن أبي صبح المزني)

للاستاذ عبد العزيز أحمد الرفاعي

١ - أخباره

كتاب (جمهرة نسب قريش) ، الجزء الأول ، الذي حققه الأستاذ (محمود محمد شاكر) . . ولم يصدر بعد الجزء الأول شيء.

وحينما أقول يكاد ، فإنما أعني أنني - عدا ما ذكرت - لم أقف حسب اطلاعي الضئيل على شيء من شعره في كتاب مطبوع إلا في (التعليقات والنوادر) لأبي هارون بن زكريا الهجري ، المتوفى حوالي سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م ، والقطعة واحدة من أربعة أبيات ، جاءت في كتاب (الورقة) ، نقلها صاحب (الفهرست) وسيأتي الكلام عنها بعد قليل .

أما ماورد لدى كل من الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) في (تاريخ بغداد) ، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) ، من شعره ، فهو ينتهي بروايته إلى الزبير بن بكار .

شاعر من شعراء القرن الثاني الهجري ، قلما

هذا

عنيت به المصادر الأولى ، أو ترجمه المترجمون . . بالرغم مما يتميز به شعره من طلاوة ، حتى كتاب الأغاني الضخم ، الذي استقصى الكثير من الأخبار والأشعار ، لم يرد فيه ذكر هذا الشاعر ، أو أي خبر عنه ، مع أننا نجد أبا الفرج مؤلف الكتاب ، ينقل الكثير الكثير عن الزبير بن بكار - والزبير هو المصدر الأول لأشعار هذا الشاعر - ولكنه لا ينقل إلى الأغاني شيئاً من خبره ولا شعره .

والزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ = ٨٧٠ م) ، يكاد يكون المصدر الوحيد الذي نقل إلينا طائفة من شعر هذا الشاعر في القسم الذي طبع من كتابه عن أنساب قريش . . أعني

(*) ألقى في الجلسة الثالثة في يوم الأربعاء ٢٣ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢٩ من فبراير (شباط) سنة ١٩٨٩ م .

ولم أقف على من ترجم له ترجمة
مستقلة من قدامى المؤرخين ، إلا النديم أو
ابن النديم في (الفهرست) . .

وقد دل على (الفهرست) الأستاذ
(محمود محمد شاكر) في هاش ٦٧ و
٦٨ من كتاب (جمهرة نسب قریش)
الجزء الأول ، في الفقرة (١١٩) .

وبالرجوع إلى (الفهرست) طبعة =
(رضا - تجدد) وجدته قد ترجم له في
(فصحاء الأعراب) ، وجاءت ترجمته
في ص (٥٥) وهذا نصها :

« ابن أبي صبيح ، عبد الله بن عمرو
بن أبي صبيح المازني ، أعرابي بدوي ،
نزل بغداد ، وبها مات . كان شاعرا
فصيحاً ، أخذ عنه العلماء ، وله مع الفقعي
أخبار طريفة قال دعبل : حضر الفقعي
داراً فيها أولمة ، وحضرها ابن أبي صبيح
الأعرابي ، فازدحما على الباب ، فغلب
ابن أبي صبيح ، ودخل قبل محمد وقال :

ألا ليت أنك أم عمرو

شهدت مقاومي كي تعذريني

ودفعني منكب الأسد عني

على عجل بناحية زبون

بمنزلة كأن الأسد فيها
رمتني بالحواجب والعيون

و كنت إذا سمعت بحق خصم

منعت الخصم أن يتقدموني « اه :

أما خصمه الفقعي ، الذي زاحمه على
باب الوليعة ، فقد ترجم له أيضا صاحب
الفهرست ، قبله مباشرة ، ويبدو أنهما
يزدحمان حتى على باب الفهرست للترجمة ،
ولكن الفقعي كان هذه المرة هو الغالب ،
فقد تقدمه في الترتيب ، وهذا نص
ما أورده صاحب الفهرست (ص ٥٥
أيضا) :

« الفقعي ، واسمه محمد بن عبد الملك
الأسدي ، راوية بني أسد ، وصاحب
مآثرها وأخبارها ، وكان شاعرا ، أدرك
المنصور ومن بعده ، وعنه أخذ العلماء
مآثر بني أسد ، فمن شعره يمدح الفضل بن
ربيع :

الناس مختلفون في أحوالهم

وابن الربيع على طريق واحد

وله من الكتب المصنفة « كتاب مآثر

بني أسد وأشعارها » أ ه (١)

(١) يبدو أنه كان محظوظا أيضا عند الزركلي ، فقد ترجم له في (الأعلام) ولم يترجم للخصم فذهب إلى
أن وفاته نحو سنة ٢١٠ هـ = ٨٢٥ م ، وقال انه أدرك أيام المنصور العباسي ، ومدح الرشيد والمأمون ،
وبعض رجالهما ، واعتمد على (كتاب الورقة) لابن الجراح .

ولكننا نجد ابن الجراح ، محمد بن داود المتوفى سنة ٢٩٦ هـ = ٩٠٩ م ذكر ابن أبي صبيح في كتابه (الورقة) ص ١٤ ، حينما ترجم لخصمه : محمد بن عبد الملك الفقعسي الأسدي ، سالف الذكر في ص ١٣ ، (ورب ضارة نافعة) . فقال مانصه :

« قال ابن أبي خيثمة : قال دعبيل : حضر محمد بن عبد الملك الفقعسي دارا فيها وليمة وحضرها ابن أبي صبيح الأعرجي ، وكان بدويا نزل بغداد ، ومات بها ، وكان شاعرا مجيدا ، فازدحما على باب الدار ، فغلب ابن أبي صبيح ، ودخل قبل محمد ، فقال ابن أبي صبيح : (ثم أورد الأبيات الأربعة التي سلف ذكرها) .

ونحن نرى تشابه النصين عند ابن الجراح وابن النديم ، ماعدا بعض الاختلاف ، فرواية ابن الجراح تقول : إنه كان شاعرا مجيدا ، ويقول ابن النديم : كان شاعرا فصيحاً . وهو عند ابن الجراح ابن أبي صبيح ، بضم الصاد وبعدها باء فياء بتصغير صبيح ، ولكنه عند ابن النديم ابن أبي صبيح بصاد ثم باء فحاء ، وهو يقول في تعريفه (المازني) نسبة إلى (مازن) وابن الجراح لم ينسبه إلى قبيلة .

وابن الجراح كان أسبق وأقدم ، وقد نقل ابن النديم من كتابه (الورقة) الشيء الكثير . . وربما اعتمد عليه في نقل هذا النص مع شيء من التغيير . . وكلاهما ينقل الشعر عن (دعبيل) ، وهو دعبيل بن علي بن رزين الخزاعي (١٤٨ - ٢٤٦ هـ = ٧٦٥ - ٨٦١ م) الشاعر المعروف ، له كتاب (طبقات الشعراء)^(١) ، وربما كان هو مصدر هذه النصوص .

ولكن لا يفوتنا أن ابن الجراح ، يقول في بداية نصه (قال ابن أبي خيثمة) . . وابن أبي خيثمة هو أحمد بن زهير (١٨٥ - ٢٧٩ هـ = ٨٠١ - ٨٩٢ م) ، وهو من أبرز تلامذة المصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري ، صاحب كتاب (نسب قريش) ، وأحد كبار الرواة للأخبار والأشعار ، وعليه اعتمد ابن أخيه (الزبير بن بكار) في كتابه (نسب قريش) ، أو جمهرة نسب قريش . . وهذا يقودنا إلى السند الزبيري . ولا يبعد أن يكون كتاب (جمهرة نسب قريش) ، هو مرجع هؤلاء الذين نقلوا أخبار بن أبي صبيح أو على الأقل طرفاً من أخباره - بيد أنني لا أستطيع الجزم مادام جزء كبير من هذا الكتاب لم ينشر بعد ، غير ما هو مفقود منه لم يعثر عليه حتى الآن .

(١) انظر عنه (تاريخ التراث العربي) لسزكين ج ٤ من المجلد العربي الثاني الخاص بالشعر ، ص ١ وما بعدها ، وهو يقول عن هذا الكتاب : « وهو كتاب كثر النقل عنه » .

على أنه وقد تطرق الحديث إلى كتاب (الفهرست) وما أورده من تعريف عن ابن أبي صبيح - مهما كان ضئيلاً - فلا أود أن أتجاوزه دون أن أذكر أنه قال عنه في باب (الفن الثاني - من المقالة الرابعة ص ١٨٧) من طبعة تجدد: « ابن أبي صبيح مقل » ، وسواء أنقل هذا من كتاب (الورقة) لابن الجراح أم لم ينقله ، فهو يعطينا معلومة انتهى لايها علمه ، وهي أن هذا الشاعر مقل . . فهل كان مقلاً حقاً؟ هذا ما أرجو أن أعود لاليه بالحديث فيما بعد إن شاء الله .

المصدر الأقدم - اذن - الذى نجد فيه ذكر ابن أبي صبيح هو كتاب (جمهرة نسب قريش) ، ولكنه ليس المصدر الوحيد، فهناك مصدر آخر هو كتاب (التعليقات والنوادر) لأبي علي هارون بن زكريا الهجرى ، المتوفى نحو سنة ٣٠٠هـ = ٩١٢م ، أى أنه كان معاصراً لابن الجراح^(١) .

وقبل أن اتعرض بالتفصيل ، لما جاء فى هذين المصدرين . . أود أن أقف قليلاً عندما جاء من اختلافه فى اسم الشاعر ونسبته . . فهل هو ابن أبي صبيح أو ابن أبي صبيح كما جاء عند ابن الجراح ؟ وهل هو من مازن ؟ كما قال صاحب الفهرست ، وتابعه على ذلك الأستاذ (سيزكين) فى (تاريخ التراث العربى) ؟

أقول هو عند الزبير بن بكار فى جمهرته ، وعند (الهجرى) فى تعليقاته وهما أسبق وأقدم (ابن أبي صبيح) أى بدون تصغير ، كما هو عندهما مَزْنَى لَمَازْنَى . . وبين النسبتين فرق ، كما هو معلوم . . وبعض كتب الأنساب تذكر اسم (عبد الله بن عمرو المزنى) فى النسبة إلى مزينة . . كما هو عند السمعاني (ت ٥٦٢هـ) ، ولا أستطيع أن أجزم أيقصد هذا الشاعر ، أو علماً آخر . ؟ ذلك أن شاعرنا اشتهر بلقب (ابن أبي صبيح) يلزم اسمه . . ومهما يكن الأمر فهو ليس مازنيا وقد يكون الخطأ فى (الفهرست) تحريفاً من الناسخ .

وقد جاء فى شعر هذا الشاعر ما يجزم بأنه من مزينة مضر ، وهو قوله بمدح مصعب بن عبد الله بن مصعب بن ثابت الزبيرى :

أنى لأحبس نفسى وهى صادية

عن مصعب ، ولقد بانئتلى الطرق

رعوى عليه كما أرعى على هـرم

قبلى زهير^٢ وفينا ذلك الخلق

وزهير الذى يعنيه هو (زهير بن أبي ساسمى) وهو شاعر مَزْنَى من مضر: بل هو يصرح بمزينة فى قوله مادحاً مصعباً :

لسارت لاليه مدحة مزنية

يلد بها فى المنشدين نشيد

(١) لأستاذنا العلامة الشيخ حمد الحامى كتاب مطبوع عن الهجرى .

ولا ينبغي أن يفوتني عندما أعزو معظم ما انتهى إلينا من شعر إلى رواية الزبير ابن بكار ، أن أذكر أن هذا يروى الكثير مما ورد في كتابه (جمهرة نسب قريش) عن عمه مصعب بن عبد الله بن مصعب الزبيري ، وهذا كان صديقا حميا للشاعر ، وطالما امتدحه الشاعر ، وسيأتي من الشواهد ما يدل على ذلك . . على أنه مما يلفت النظر حقا ، أن مصعبا لم يشو إطلاقا إلى اسم صديقه الشاعر في كتابه (نسب قريش) ، وذلك لأن منهجه فيه كان إيراد الأنساب فحسب ، متجنبيا الأخبار والأشعار ، وكأنما كان يدخرها لكتاب آخر ، أو كأنه ادخرها لابن أخيه أعني الزبير بن بكار ، الذي كان مولعا بالاستطراد الأدبي ، فذكر أخبارا وأشعارا كثيرة إلى جوار الأنساب ، وحسنا فعل ، فقد أصبح كتابه وثيقة تاريخية مهمة ، ومما يؤسف له أن لا يصدر منه إلا قسم واحد فحسب ، وأن يظل باقيه مطويا حتى الآن . . وغني عن القول ، أن بعض القدامى قد أكثروا منه النقول ، ومنهم على سبيل المثال ، ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ ، في كتابه (تاريخ دمشق) .

* * *

قال صاحب (الفهرست) ص ١٨٧ ، إنه مقل . . أي في شعره ، ولكن النصوص التي رأيتها فيما نشر من (جمهرة نسب قريش) تدل على خصب إنتاجه وشاعريته . . وهي جزء من شعره لأكله ، وربما كان في سائر الكتاب ، مما لم ينشر بعد ، أو فيما لم يصل إلينا من مخطوطته نصوص أخرى ، فإن الزبير بن بكار كان حفيبا به ، لصلة الوثيقة بآل الزبير ، فهو كثير المدح لهم ، والثناء عليهم ، وفيما وقفت عليه من نصوص (الجمهرة) ما يدل على أن الشاعر طرق باب الأرجوزة . وإن لم يورد من أرجوزته إلا أبياتا معدودة .

وفي محاولة لاستقراء شيء عن حياته وأسرته ، فيما اطلعت عليه من شعره ، وجدت بعض الإشارات التي نستطيع أن ندرك منها المعلومات التالية :

١ - أن له أبناء يفخر بهم ، كما يفخر بأجداده وأسرته أو عصبته :

أبي الضميم لي قلب ذكي وصارم
وأنف حمى قد أبى الذل والخللا
وأبناء صدق ماجدون ، وأسرة

مصالييت ، كانوا لابطاء ولا نكلا (١)

(١) التعليقات والنوادر لأبي على المجري ، تحقيق الدكتور محمود عبد الأمير الحمادي ٢ / ٢٩٠

٢ - انه ذكر في شعره (شبيسة) ، وهي في أغلب الظن اسم زوجته . وذلك في قصيدة كافية طويلة ، والشاهد في مطلعها :

قالت (شبيسة) ، إذ قامت تودعني
والدمع يجري على الخدين أسلاكاً
لا يلهينك عنا ، بعد فرقتنا
بُعْدُ المزار ، وأن صاحبت أماركا
وهو يكتنحها بأم عمرو ، إذ يرد بعد البيتين
تتمة الحوار :

فقلت : لو كنت أنساكم يوماً نسيتمكم
إذ قال لي مصعب : لو شئت أجزاكا
خطان في شبر قرطاس يطير به
منا جرى ، وتمضي . قلت : كلاكا
لا بد من نظرة أشفي بها كمدى
من أم عمرو ، قليلاً ثم ألقاكا^(١)

فعمره على ما يبدو ابنه من (شبيسة) ،
ويؤيد ذلك أن مناقضه أبا مدرك ، حاتم
ابن مدرك السلمي^(٢) قال يخاطبه وقد انعقد

بينها صالح في مسجد رسول الله صلى الله عليه
وسلم :

دعاني أبو عمرو إلى الله دعوة
أصاب بها مافي فوادي ولا يدرى
إلى خلق من خير من وطئ الحصا
وفي روضة بين الأساطين والقبر
فتبنا وأشهدنا الزبير ، وأن نعد
بنقض فما من توبة آخر الدهر^(٣)
فقد كناه الشاعر هنا . . بأبي عمرو . .

ونعلم من نص آخر ورد في (جمهرة
نسب قريش) ١ - ٢١١ ، أن له ابناً اسمه
(عدى) ، وهذا هو النص :

« أنشدني عدى بن عبد الله بن عمرو
ابن أبي صبيح المزني لأبيه ، يمدح مصعب
بن عبد الله بن مصعب ، حين أجمع المسير
إلى اليمن ، لميعاده مصعباً أن يطلع أهله ثم
يأتيه بصنعاء فقال :

« تقول ابنة الزيدى : أصبحت وافدا
على ملك أي الملوك تريد ؟ »
إلى آخر القصيدة . .

(١) الأبيات من قصيدة طويلة وردت في (جمهرة نسب قريش) ١ - ٢٨ وستردي أشعاره .
(٢) يبدو أن هذا الشاعر من الأغفال الذين لم تترجم لهم المصادر التي بين أيدينا ، يقول الأستاذ (محمود
محمد شاكر) محقق كتاب (جمهرة نسب قريش) ١ - ١٠٨ في الهامش عند إيراد هذه الأبيات : (لم أجد
له ترجمة) ، ويقول محقق كتاب « التعليقات والنوادر » لأبي علي الهجري ، ٢ - ٢٥٤ في ذكر بعض
مناقضاته لابن أبي صبيح ، ورد اسمه في اللسان في مادة (نهض) هجو أبا البوق ، ولم يرد ما يفصح عنه
شيئاً في المصادر الباقية أقول : لم يذكره الزركلي في (الأعلام) ، ولم أجد له سيزكين في كتابه (تاريخ
التراث العربي) ، المجلد الثاني - الجزء الرابع (الشعر) .

(٣) جمهرة نسب قريش للزبير بن بكار ، ص ١ - ١٠٧ .

أقول : ولعل المراد بابنة الزيدى هنا هو
(شمسية) .

* * *

ولا يعين ما وقفت عليه من النصوص
والأنخبار على تعيين مولده ، ولا موضع
ميلاده ، ولا منزله ، ولا تاريخ وفاته
ولكنها تفيدنا بما ذكره عن ممدوحيه الذين
سجد أسماءهم في النصوص التي سأوردها
— إن شاء الله — ما يجعلنا نقول إنه من شعراء
القرن الثاني من الهجرة ، وإنه كان يقصد
الزبير بن عدي في المدينة المنورة وفي صنعاء
وإنه كان صديقا حسيما لمصعب بن عبد الله
بن مصعب ، وإنه لحق به في صنعاء
عندما ولي هارون الرشيد أباه (عبد الله بن
مصعب) إمارة اليمن ، حيث احتفى الأب
والابن به ، ونزل ضيفا في دار الإمارة ،
وقد بلغ من حفاوة مصعب به أنه كاد أن
يحملة معه إلى صنعاء ، لولا أن الشاعر استمهاه
ريثما يصل إلى أهله فيزورهم ويودعهم ،
وذلك ما صرح به في قصيدتيه . . (قالت
شمسية) . . و (تقول ابنة الزيدى) . . .
وهذا يدل على أن أسرته لم تكن تقيم في
المدينة ، وأن منزله يحتاج إلى عدا أو جرى
أو نجاب . . . إذ قال لي مصعب لو
شئت أجزاءك ، خطان في شبر قرطاس
يطير به منا جرى ، ونمضي . . ؟ قلت
كلا . . لا بد من نظرة أشنى بها كمدى من
أم عمرو . . .» .

وهو فيما تدل عليه نصوصه الشعرية شديدا
الالتزام للزبيرين وليس لمصعب وأبيه فقط
. . بل لغيرهم أيضا ممن سترد أسماؤهم
في أشعاره ، وهذا مناقضه حاتم بن مدرك
يقول له .

« . . وتندرننا آل الزبير ، كأننا
طلبنا يحزم ، أو حملنا لهم ذحلا »
وهذه النصوص تدل على أن شاعرنا كان
أعرابيا متبديا ، وأن دياره قريبة من المدينة
المنورة ، يسهل على العدا أن يصل إليها على
قدميه ، فهو إذن يسكن حوالى المدينة
المنورة ، مما يدل على أنه من مزينة .

وبالرغم من أن إحساسا بخامرئى — مما
رأيت من طلاقة الشاعر ، وانصرافه للمديح
خاصة لمن عاش في كنفه من الزبيرين
ودخوله أحيانا في بعض المعارك الشعرية
وتطرقه إلى شئ من الغزل — أن شعره كان
كثيرا جدا ، ولكن لم يصل إلينا منه إلا هذا
القدر الذى تداوله بعض المؤلفين .

أما وقد أوردت ما وسعنى الوقوف عليه
من معلومات عن هذا الشاعر ، فقد حان
أن أنتقل إلى الجزء الثانى من المقال ، وهو
إيراد ما عثرت عليه من شعره في المصادر
القليلة التى أتيت لى الاطلاع عليها ، ولعل من
الباحثين من يستطيع أن يضيف إليها نصوصا
جديدة ، خدمة لتراثنا الشعرى والادبى .

٢ - أشعاره

الباء

١ . قال يمدح أبا بكر بن عبد الله بن
مصعب الزبيري :
فقي همه أن يشتري الحمد بالندى
فقد ذهبت أخباره كل مذهب

لعمرك ان المنتمى بابن مصعب
لمعتدل الحجرة ، جزل المواهب
مفيد ومتلاف كأن نواله
علينا نجاء العارض المتنصب

وان امرأ بين الزبير اذا انتضى
وبين أبي بكر لمحض المضارب
المصدر : ٢١٣/١ من جمهرة نسب
قريش ، وقد جاءت الأبيات أيضا في
تاريخ دمشق لابن عساكر ، المجلد السادس
عشر من المخطوطة ص ٥٥٠ . وفيه البيت
الأخير : (بحار) بدلا من (نجاء) . والنجاء :

جمع نجو ، وهو السحاب أول ما ينشأ ،
والعارض : السحاب المثل يعترض الأفق ،
كما جاءت الأبيات في ج ١٣/١١٣ من
تاريخ بغداد . وفيه في البيت الأخير ،
(المتنصب) بدلا عن (المتنصب) .

المعنى : أن من كان عبد الله بن مصعب
أباه ، فهو على طريق مستقيمة ، أجزل
الله له المواهب ، كيف وقد جاء من جدين
عظيمين هما الزبير بن العوام ، جده من
جهة آبائه ، وأبو بكر الصديق جد عبد الله
بن الزبير لأمه ، فهو ابن أسماء بنت أبي بكر
ذات النطاقين .

الدال

١ - قال يمدح عبد الله بن مصعب
الزبيري ، وابنه أبا بكر :

أكرم بنى شرف ألقى مكارمه
فوق الثريا فعلى فوق ما وجدا
ذاك ابن مصعب الموفى بذمته
أعطى الخزيل ، وأوفى كل ما وعدا

٢ - قال يمدح مصعب بن عبد الله بن
مصعب الزبيري :

إذا شئت يوما أن ترى وجه سابق
بعيد المدى فانظر إلى وجه مصعب
ترى وجه بسام أغر كأنما
تفرج تاج الملك عن ضوء كوكب

من فتية صبروا في كل نائبة
حتى نفوا عنهم ما عاب فانتقدا

بيض بها ليل سيم الملك شاملهم
لا يسأل الناس عنهم : من هم أبدا

إن امتدحكم فقد جلت صنائعكم
مجرى المديح وقد راخيتم الأمددا

قد رثتموني ، فهذا ريشكم خضل
بادر عليّ ، وقد أنعمتم رغدا

إن الحوارى والصدىق وابنهم
وابن الرباب ، بنوا بنيانكم صعدا

ثم الأميران شدا عقد عروتكم
ولا سبيل إلى حل السدى عقدا

نعم الأميران بكّار والسيده
ما أشرف الوالد الميمون والولدا

المسالسان بعسل الله قبضته
والمصلحان ، بإذن الله منا فسدا

والحافظان لما أوصى الإله به
من حق ذى الحق إن غابا وإن شهدا

والصادران معا عن كل ما تركنا
والواردان جميعا كل ما وردا

، والطاعنان صدور الخيل مقبلة
والضاربان إذا غاب القنا قصدا

أعز بمن كان عبد الله نساصره
ومن يكون أبو بكر له عضدا

المصدر : ١ / ١٤١ و ١٤٢ من جمهرة
نسب قريش للزبير بن بكار.

٢ - وقال يرثى عبد الله ومحمدا ابني
مصعب بن ثابت :

قل للأمير جزاه الله عارفة
وأهل ودى جميعا من بنى أسدا

إلى نذرت إن الرحمن سلسمني
حتى أقوم صحيحا غير ذى أود

مشيسا بحقكم حتى أؤديه
هل يردن ذاك من حرّ على كبدا

أو ينشرن ذاك عبيد الله لى أبدا
أو ينشرن لى أخاه آخر الأبد

أن يشمت اليوم حسادى بموتهما
فقد يموتون قبل اليوم من حسدا

وقد أرائنا وعبد الله يحملنسا
كحامل الغيث بين الغور والنجد

فإن جزعت فثل الشر أجزعنى
وإن صبرت فأدنى لى إلى الرشد

وإن شكرت فقد أبقى الإله لنا
خلائقا من بنيه ثبت العمد

إن يعقب الله يوما من مضيبته
فبالأمير ، ولالاسج بى كمدى

المصدر : ١ / ١٥٢ و ١٥٣ من جمهرة
نسب قريش والمقصود ببنى أسد هنا :

أسد بن عبد العزى جد الزبيرين :
والأبيات على ما يبدو موجهة للأمير أبي
بكر بن عبد الله بن مصعب ، الذى خلف
أباه فى إمارة المدينة المنورة ، وهو المعروف
ببكار .

٣- قال يمدح مصعب بن عبد الله
ابن مصعب ، حين أجمع المسير إلى اليمن
لميعاده مصعباً أن يطلع أحله ثم يأتيه بصنعاء :

نقول ابنة الزبدي : أصبحت وافدا
على ملك أى الملوك تريد ؟

فقلت لها : مستورد حوض مصعب
فقلت : وأنى والمسير بعيسى ؟

فقلت لها : لو كنت فى سجن عارم
بدمياط ، قد شدت على قيود

لسارت إليه مدحسة مزينة
يلد بها فى المنشدين نشيد

أرى الناس فاضوا ثم غاضوا ومصعب
على العهد يطنغى بحره ويزيد

إذا صدرت بالحمد عن حوض مصعب
وفود ، وحلت بعد ذاك وفود

تهلل فياض الندى عاجل القرى
إذا أهل وهناً ققطق وجايد

أقول لمغتاض على كباثما
بليته حامي السنان حديد :

تبرد بعبي فى الحلاء فإنه
ثنى العيب غنى مشهد وجدود
وبغرة أملاك تنجيت نوءها
فأسديتها والحاسدون شهود
تعلقت الحساد منها زمانة

فلم يبق إلا أن يموت حسود
المصدر : جمهرة نسب قريش ١/ ٢١١
و ٢١٢ ، وقد رواها الزبير بن بكار عن
عدى بن عبد الله بن عمرو بن أبي صبح
المنزى ، ابن الشاعر . وقد نقلها ابن عساكر
فى تاريخ دمشق ١٦ / ٥٥٢ - المخطوط ،

وفى البيت الرابع إشارة صريحة إلى
قومه (مزينة) ، ويغنى فى البيت السادس
معناها يزيد ، ومعنى ققطق فى السابع :
صغار البرد والبغرة : فى البيت العاشر
معناها الدفعة الشديدة من المطر .

الراء

قال يمدح مصعب بن عبد الله :

فما عشنا إلا الربيع ومصعب
يدور علينا مصعب ونودور
وفى مصعب ان غبنا القطر والندى
لنا ورق مغرورق وشكير
متى ما يرى الراوون غرة مصعب
ينير بها لشارقه ، فتنير

يروا ملكا كالبدن أما فشاؤه
فرحب ، وأما قدره فكبير
له نعم من عند قَصْر دونها
وليس بها عما يريد قصور
عددنا فأكثرنا ومدت فأكثر

فقلنا كثير طيب وكثير
لعمري لئن عدت نعاء مصعب
لأشكرها إني إذا لشكور
المصدر : جمهرة نسب قریش ١ /
٢١٢ ، ونقلها ابن عساكر في المجلد
السادس عشر .

المخطوط ص ٤٩٥ ، كما نقل خبرها
الوارد في الجمهرة ونصه : « حدثنا الزبير
ابن بكار ، وكان أبو غزية محمد بن موسى
الأنصاري ، كثيرا ما يجلس إلى ، فجلس
إلى ليلة بين المغرب والعشاء الآخرة ،
في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وهو إذ ذاك قاض ، فتحدثنا إلى أن
ذكرنا الشعر ، فقال : ابن أبي صبح
المزني أشعر الناس ، حيث يقول لعمرك
ثم ذكر الأبيات . »

أقول : وترجمة محمد بن موسى في
أخبار القضاة ١ / ٥٧ مات سنة ٢٠٧
وفي هامش ص - ٢١٢ من جمهرة نسب
قریش ذكر المحقق بعض مصادر
ترجمته ،

ومعنى (الشكير) في البيت الثاني :
الورق الصغير يتلو الورق الكبير في
النمو .

الصاد

وقال :

أبي قلبه من أن يتخلصا
وقد محّ سربال الشباب وقلصا
رمين وأرماهن في كسل موطن^١
فأحذينه نبل الخبال ، وأشخصا
إذا شئن أن يوطئنه جبل عاثر
ليصطدن منه فرصة ...

تلبس أراد ، وأبرزن أوجهها
حسانا ، وأظهرن الحمان المخرصا
وفيهن طورا أن دعت قلت : نادب
أجاب ، وان نصنصن قلت تنصنصا
سقى الله من نوء الثريا طعائننا
أ تيممن نجدا ، واختصرن المرخصا
طعائن ممن سار فاحتل رأبغنا
وودان ، أيام الجلا ، فالأخصما
أقمن به حتى أتى الصيف قادمنا
وقضى لبانات الربيع فأشخصنا

المصدر : التعليقات والنوادر لأبي على
المجري : مصورة مخطوطة الجمعية الآسيوية
في (كلكته) ، أطلعني على محل الشاهد

أستاذى الشيخ حمد الجاسر ، جزاه الله
خييرا ، وخطها غير جلي ، وقد استعنت
ببعض الأصدقاء على حل رموزها ،
وتركت محل كلمة بياضا لعدم وضوحها ،
وذلك فى البيت الثالث .

الألفاظ الغريبة :

١ - مح : بلى ، قلص : تقلص .

٢ - أحذينه : أعطيته ، وأشخص :

يقال الشخص أشخص السهم إذا مرق
أعلى الغرض (الهدف) ، والمقصود أن
سهامهن أصابته وأخطأ سهمه فلم يصبنه .

٤ - المخرصا : أى الذى ازدان بالخرصان
وهى حلق الذهب والفضة وما يماثلها .

٥ - أشخص (فى البيت الأخير) :
ارتحل .

الفاء

قال يمدح عبد الله بن مصعب وإبنه
أبا بكر ومصعبا :

يا أيها الرجل المهلى الفناء لسه

من كل شعب يسداني ثم يختلف
دع عنك ليلي ، فما ليلي بجازية

لا تجلهن ولا يلجج بك الكلف
واذكر بأحسن قول أنت قائله

آل الزبير ، فقد أعطوا وقد عطفوا
وقد سقوك بسجل من سجالهم

حتى رويت ، وقد زادوا وقد لطفوا

وقد كفناك ندام نوء غيرهم
فلا تعول على الغرف الذى غرفوا
قد كان لى فى أبى بكر ووالده
ومصعب ذى الندى من تالد خلف

والثابتيون قوم فى ودادهم
غنم الحياة ، وفى أحقادهم تلف

اللاحظون بنور الله إن غضبوا
والشاملون. بيمين حيثما انصرفوا

والفارطون فلا توبى حياضهم
بالواردين ، وإن ذوادها قصفوا

ان ابن مصعب الميمون طائره
ثبى على خير ماسدى لسه السلف

لا يدرك الناس فى المجراة غايته
ولو تعالوا ، ولو خبوا ولو خنفوا

تمشى الملوك على أذيال لأمته
إن سارساروا وإن أوما وقفوا وقفوا

يا ابن الزبير لقد فرجت من كربى
ورفلتنى لك الفيضات والتحف

وقد جبرت جناحى بعسد رقتيه
حتى انتهضت ، وحتى مسنى الترف

وقد تخلصتنى من بين مأسدة
أذلنى لهم السلطان والصحف

ادركتنى بعسد أن دارت عقابهم
وقد بللت لها رأسى وقد وحفوا

المصدر : جمهرة نسب قریش ١ / ١٤٠ وينظر أيضا ١ / ١٢٢ .

ومعنى البيت التاسع أنهم يتقدمون قومهم وقوله لا توبى حياضهم : أى لا تنقطع من الماء . وقصفوا : تراحموا :

وفى البيت العاشر ، معنى ثبى : اقتنى وسدى : خلف :

وفى البيت الحادى عشر أراد الشاعر أن الناس لو جاروه لما استطاعوا اللحاق به مهما استعملوا من أنواع العدو :

وفى البيت الثالث عشر : أراد فى الشطر الثانى : أنك جعلتني أرقل فى فيضك وتحفك :

وفى البيت السادس عشر (الأخير) يقول : أدركتني بعد أن تهيأت لاستقبال الحالقة ، وبللت رأسى لخلق لمتى ، وهو نوع من التعزير كان يخضع له المغلوب والأسير ، ومعنى وحفوا : أسرعوا .

القاف

١ - وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله ابن مصعب من أرجوزة يقول فيها :
يا بكر أدعوك وفيما صادقا

ثم قال فيها :

وقد رأيا الحلق المصالحا
وهى تسامى ترسل الشقاشقا

إن نظرت يوما - إليه باسقا
أو كر فيها ناظرا أو ناطقا

ألفت على الأرض له العناققا

المصدر : جمهرة نسب قریش ١ / ١٨٥ .

المعنى : الحلق : جمع حلقة المصالحق : ذات الضجيج تسامى : تتعالى . الشقاشق : الهدير . العنققة : الشعر تحت الشفة السفلى : أى أن حلقات الرجال التى تهدر بضجيجهم إذ جاءها فنظر أو نطق أبدت خضوعها واستمعت إليه . :

٢ - وقال يمدح مصعب بن عبد الله :
وقد علمت ، ألا والله يعلمه
ما قلت زورا ولا من شيمتى الملق

إنى لأحبس نفسى ، وهى صادية
عن مصعب ، ولقد بانى لى الطرق
رعوى عليه كما أرعى على هــرم .
قبلى زهير ، وفينا ذلك الخلق

مدح الكرام ، وسعى فى مسرتهم
ثم الغنى ، ويد الممدوح تندفق

المصدر : جمهرة نسب قریش ١ / ٢٠٧
تاريخ دمشق ١٦ / ٥٤٩ مخطوط .

المعنى : الرعوى : الرعاية والإشفاق وهو يشير فى هذا البيت الثالث إلى أن زهير بن أبى سلمى ، وهو مزنى مثله ،

كان يشفق على ممدوحه هرم بن سنان. ذكر
محقق الجمهرة الأستاذ محمود أحمد شاكر
في الهامش نقلا عن الأغاني ٣٠٥/١٠
أن هرما كان قد حلف أن لا يمدحه زهير
إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا
يسلم عليه إلا أعطاه ، فاستحى زهير مما
كان يقبل منه ، فكان إذا رآه في ملا قال :
عموا صباحا غير هرم ، وخيركم استثنيت .

وفي البيت إشارة إلى كونه من مزينة ،
ولعله يقصد بالغنى في البيت الرابع
(الأخير) التعفف .

٣- وقال يمدحه أيضا :

إذا رفعت أحراسه السير واستوى
على ظهر مصفوف عليه الفسارق
يدا ملك في صورة البدر طالعا
فيالك حسنا زينته الخلائق

خلائق أحرار الملوك ونورها
يلوح عليها نظمها المتناسق
فتى لم تفتسه خطبة مجمع التقي
إلى المجد إلا ضمها فهو رائق

فنحن بفضل الله في فضل مصعب
لنا صابح من ذى ندهاء و غابق
ستباغ عني مصعبا - غير باعد - الله
مدائح تدروها الرياح الزواقع

جزاء بآلاء له ان شكسرتها
شكرت عظيما لم تصفه المناطق
ألم تُلَفني ذا خلة فاصطنعتني
وأطلقت مالي ، وهو في الرهن غالق

وأُنقذتني من لُجة السدين بعدما
غرقت ، وغاشى لجة الدين غارق
وأغنيتني عن سواك وأنبتت
رياحك ريشي والنجاء الدوافق

وأسببت إسبال الربيع وأخصبت
رياضك للجسادين ، والله رازق
فاقسم لا أحصى الذى فيك ماسح
بمدح ، ولكنى جزوف مخارق

ولا ضن نصحا عنك بالغيب مؤمن
تنى ، ولا عسداك إلا منافق
ولا خفت إلا الكاشحين ملمة
عليك ، ولكنى بنى العرش واثق

المصادر : جمهرة نسب قريش ١ /
٢٠٩ ، ٢١٠ ، وهى فى مخطوطة تاريخ
دمشق لابن عساكر ١٦ / ٥٥١ و ٥٥٢
وقدم وأخر فى البيتين الأخيرين .

وفي البيت التاسع إشارة إلى أن ممدوحه
فك الرهن الذى كان فيه ماله ، ولعل هذا
يفسر لنا قوله فى القصيدة الفائية التى
سلفت حينما قال :

وقد تخلّصتني من بين مأساة
أذلني لهم السلطان والصحف
أدركتني بعد أن دارت عقابهم
وقد بللت لها رأسى وقد وحنوا

الكاف

١- قال يمدح مصعب بن عبد الله :

قال (شميصة) إذ قامت تودعني
والدمع يجرى على الخدين أسلاكاً
لا يلهينك عنا ، بعد فرقتنا
بعد المزار ، وإن صاحبت أملاكاً
فقلت : لو كنت أنساكم يوماً نسيتمكم
إذ قال لي مصعب لو شئت أجزاك

خطان في شبر قرطاس يطير به
منا جرى ونمضي . قلت : كلاك

لا بد من نظرة أشفي بها كبدي
من أم عمرو ، قليلاً ، ثم ألقاك

دع عنك ما فات ، واكس الرجل معترفاً
أعطاكه مصعب أيام ألفاك

عاري جناحك قد حُصّت قواديمه
قد عضك الدهر عضات فادماكا

يا ذا الندى ، ليس لي في غيركم وطر
أغنيتني بالغنى ، والله أغناك

إن امتدحكم ، فخير القول مدحكم
وقد نال بغير المدح جدواكا

يا أوسع الناس فضلاً بعد والده
إن تعطى خيراً فإن الله أعطاك
مجدا تطأطأ عنه كسل ذي شرف
فيمنع الناس أن يجروا بمجراكا

مد ابن أسماء كفيه بمكرمة

وابن الرباب فقلاً مصعب هاكا
أنت ابنتنا ، ما اجتمعنا قط في رجل

فيستطيع له الساعون إدراكاً
ثم الأمير أدام الله صالحه
نعم المبواً بحمد الله بـواكا

رقاك في المجد حتى نلت ذروته
فن بغاك محلّ النجم وافساكا

المصدر : جمهرة نسب قریش ٢٠٨/١
و ٢٠٩ ، ومخطوطة تاريخ دمشق لابن
عساكر ١٦ / ٥٤٩ و ٥٥٠ وفيه البيت
الثالث بدون (فقلت) وهي هنا زائدة ،
وبها يتخلل الوزن وفي الخامس (كبدي)
محل (كمدي) .

وقد ذكر (الزبير بن بكار) قصة
هذه الأبيات ، بعد إيرادها ، فقال :

« حدثني عبد الله بن عمرو بن أبي
صبيح المزني قال : لما استعمل عبد الله
بن مصعب على اليمن ، قال لي مصعب
بن عبد الله : امض معنا إلى صنعاء . فقلت :
لم أعلم أهلي ذلك . فقال : ترسل رسولا

ونكتب معه بحاجتك ، وتمضي معنا
وتكفاهم . فقلت : لا بد لي من مطالعتهم ،
ثم ألحقكم ، وهو حين قلت هذه القصيدة
ثم قدمت عليهم صديعاء ، فأزلىني عبد الله
ابن مصعب معه في دار الامارة ، وأجرى
على خمسين ديناراً في كل شهر ، وأكرمني
ثم غرضت (قلقت) فشكوت ذلك
إليه ، واستأذنته في الانصراف ، فأذن
لي فأعطاني خمسمئة دينار ، وكساني
كسوة فاخرة من عصب اليمن ، وأمرني
فدخلت على نجائبه ، فأخذت منها نجيباً
مهرياً ، فانصرفت سالماً غانماً إلى أهلي
أهـ .

اللام

١ - قال يمدح أبا بكر بن عبد الله :
كان لم ترى غب ارتحالي وغيبتي
وعرف أبي بكر بسجل على سجل
مدحت أبا بكر فسا خباب عنده
مدحى ، وما ألقىته عنه ذا شغل
وما كسدتني سنح الطير دونه
وما كذبت رويى إذ نمت بالرمل
أنحت فلما ملت في نشوة الكرى
رأيت على الريش أخضر كالبقل
وأبصرتني أسمو إلى البدر طالعا
وأعقد في أسباب أحبله حبلى

وأعرف من فيض الفرات وأكتفى
من النيل عباباً فأسقى به نخلى
فقلت لأصحابي : جرت طير أسعد
لكم فوق أعناق الغريزية الفتلى
ورؤياك أخذ الكف بالكف بشرت
بيوم ندى من ذى ندى واسع الفضل
متى تهبطوا أرض الزبيرى تعتقوا
خشاش المطايا ، من سأم ومن هزل
أثابك عنا الله حسن ثوابه
بغذلك في الأحكام والخلق الجزل
خلفت لنا الصديق تهدي كهديه
وهدي الزبير حذوك النعل بالنعل
وسرت إلينا والبلاد كأنها
لما غبت من أدوائها مرجل يغلى
فداويتها حتى إذا مساشفيتها
من الداء والتامت جميعاً على العدل
وطئت على سيسائها فكأنما
رسا ورقان فوقها وقرى تسبل
فأصبحت يا ابن الخير تنمى إلى العلى
على حنق الأعداء والحدق الشهل
وإن أمير المؤمنين لعسarf
غناءك عنه في البلاء الذى تبلى
ولمى لمن بالذى قد فعلتم
بنى ثابت فى الناس ما اشتد لى عقلى

وإني لأدعوكم إذا جلّ حادث
من الدهر أو ضاقت بنا عروة الحبل
وأعلم لولا الزهر من آل ثسابت
لمرت ببعض القوم خفاقة الرّجل
ولكنهم جادوا وسادوا وأنعموا
وقادوا وردوا بالندى طيرة الجهل
وماحوا وراحوا بالندى حين لم ترح
بدرتها أم عوان على طفل
* * *

وكانت بينه وبين أبي مدرّك ، حاتم
بن مدرّك الحبشي ، من بني الحارث ،
سُلمى ، ملاحاة شعرية وقد جاء في كتاب
(التعليقات والنوادر) لأبي علي هارون
بن زكريا الهجري^(١)، انشدني شيخ من
جيلة الفرع^(٢) لأبي مدرّك يرد على عبد الله
بن أبي صبيح المزني :

ألا أيها الغادي اتسق الله واحتمل
لنا حاجة لا تستبين لها ثقلا
تبلغ يعقوب بن يحيى رسالة
وعسرا وشبلا أودع الله لي شبلا

وحى بنى لقمان فالحى حيرة
وتقرا عليهم من تحيةنا مثلا^(٣)
وكل بنى عيش الكرام فإنهم
صديق وجيران أرى لهم فضلا
إذا جثهم من مخدع الغيب ساعة
لأنظر ما هم لم أجدهم دغلا
وقل بعد هذا كله : إن حاتم
يقول لكم : قولوا لصاحبكم مهلا

وقولوا له : ما بال عقلك ناشئا
وجهلك لما عدت ذا شيبة كهلا ؟
كأنك لم تقرا من الوحي سورة
بأرض ، ولم تسمع بها ساعة تتلى
إذا ما التقينا عدّا ما كان ما بيننا
من الحلف والإسلام واجتنب الجهلا
وان غبت عنه ساعة ظل يفترى
على ، فلا أدري أأشتمه أم لا ؟
أم اعرض عن عوراته فهو جاهل
فيكفر إحساني ، ويحسبه ذلا

(١) توفي نحو سنة ٣٠٠ هـ = ٩١٢ م كما في (الإعلام) للزركلي ، ولأستاذنا الشيخ حمد الحاسر
كتاب عنه .

(٢) جيلة والفرع : موضعان قرب المدينة :

(٣) حيرة : وردت بالحاء وأظنها بالميم .

أم أشتم جيرانى فأصبح مثله
 أعوذ بربى ، أن أكون له مثلا
 وإلى لأستحي من القوم أن أرى
 جبانا جهولا لا حلما ولا نکلا
 وأن يعلم الأقوام أنى كالى
 يكون على معروفه أبدا قفلا
 فما زلت تغشانى بشيلىك ظاننا
 ونصفح حتى مـساتظن لنا عقلا
 وتندرننا آل الزبير كأننا
 طليبا بجرم أو حملنا لهم ذحلا
 وتفتحم الأنساب من دون خندف
 كأنك تعطى دونهم باليد السفلى
 كأنك لم تعلم أبى لك دونـه
 بلى ، قد علمنا إن فى خندف فضلا
 وإن قريشا خير من وطىء الحصى
 وأنعمه فرعا وأكرمـه أصلا
 فإن كنتم إخوانه فساين عمـه
 حبيب قريب الدار مستوجب وصلا
 كريم فلم يبسط يدا بعداوة
 إليهم ولم يبعث بها لهم رجلا
 فلا تطرحنا إن سقوك على الظما
 مع الناس يوما من سجالهم سجلا
 فما هى الانقصة تبلى بهـا
 كما كنت بالأولى التى قبلها تبلى

فليت لنا عدلا فيحكم بيننا
 وأهون مما بيننا نبتغى عدلا
 له ريدى من قرى قطرية
 شديد جديد مـذبح محكم فتلا
 فينظر أسوانا إذا كان عابا
 لصاحبه عيبا ، وأقبـحه فعلا
 وأشبها وجهها إذا كان بيننا
 بوجه الظلوم ثم يوجعه غسلا
 ويشهدنا آل الزبير وهـاشم
 وآل أبى بكر مجالس لا تقلى
 ويجلس ذلفاء المليحة عندنا
 وجملا فإن الله ملح لى جملا
 هجانان قال الله كونا فكاننا
 كما قال لا تدرون أيهما أحلى
 وذلفاء من غير التماس لعيـها
 بغور فلم تسكن دماثا ولا سهلا
 وليست كأخرى بالبياض فأعطيت
 بياضا ولحما مايرا وشوى خدلا
 ولا العين ، ربا الحجل يلعب سمطها
 كأن بعينها ولم تكتحل كحلا
 فلا يرفع الجلال عنه سياطه
 بمحضهم حتى يقولوا له : بـسلا
 وحتى يرى آل الزبير وهـاشم
 وآل أبى بكر عقوبته مثلا
 ويقدر للمظلوم أن يجمعا لـه
 ويجلس أسواطا أشدهما بخلا

٢ - فأجابه عبد الله بن أبي صبيح المزني :

ألا حيينا اللدنا ألا حيينا جملا

وقولا : تغنى حساتم بكما جهلا

لكما تظنا أنه اليوم فارغ

وأقسم إني قد ملأته بي شغلا

وفضلكم يا جميل وكما لعلى

أروح مغیظا قد حملت لكم ذحلا

وأنت من أن تشفى بنا كحامة

بمكة ، يغدو سربها حرما سهلا

سقى الله ذلفاء الربيع وترها

وجملا فاسقى الله من صيف سحلا

سقى الله كل منجاذ الحلة والنوى

أناة . . ضا تملأ القلب والحجلا

إذا برزت بين القطين وأبرزت

جميل الحيا لا كتيبا ولا جبلا

رأيت إلهما البيض ميلا كأنما

أمرن بأن يرعينها الحدق النجلا

... مهلا فإنك قلت لي مهلا

وإن قلت قولا فانتبل نبلا جزلا

إليك فإني غافر لك ما مضى

من اللغو الا أن تحملنا ثقلا

وتلقى علينا جانبيك كليهما

وتسرع في أعراضنا الجد والهزلا

وتعرض دون الجانين فلا أرى

لمثلك ألا أن أعرضه نكلا

فإن كنت قد أبصرت من بعد عشوة

فأهلا بما أحدثت من سلمنا أهلا

فلمست ولا أطفئ بأول عاش

عشا ، فجعلت القافيات له كحلا

ومما أن أحب الشر ما لم تجره

على جناتي أو أكون له نعللا

بل أصفح أجالا وأدرا سبه

بأحسن ما يسدى وأدمله دملا

وأدفعه حتى إذا حل ساحتي

صليت بأذكي جمرة كمل من يصلي

أبي الضيم لي قلب ذكي وصارم

وأنف حمى قد أبي الذل وانحللا

وأبناء صدق ما جلدون وأسرة

مصاليت كانوا لا بطاء ولا نكلا

وعقدي بحبلى مصعب وابن مصعب

وحبل أبي بكر برغم العدى جبلا

كأنك نشنا أن فخرت بخندف

كأنك لا ترضى طريقتك المشلى^١

كأنك لم تعلم أبا لك مثله

ولا وأبيكم لا تكونوا له مثلا

فإن ثلك قد أصبحت ثوبان آمنا

مثلا وغرتك الأكبولة والرسلا

المصدر : التعليقات والنوادر ٢/ ٢٥٤

وما بعدها .

ويلاحظ أن في هاتين القصيدتين ألفاظا
غير مفهومة ، وبعضها ترك محله محقق الكتاب
بياضا ، ويبدو أن المخطوطة كانت عسرة الخط .

الميم

١ قال يمدح هاشم بن يحيى بن هاشم
بن حمزة :

فمن سألني عن هاشم : كيف هاشم ؟
فإننا وجدنا هاشما خيرا هاشم
وجدنا فتي أفضت إليه جلوده
بني المعالي ، واكتساب المكارم

المصدر : جمهرة نسب قريش ١/ ٦٧ و ٦٨ .
وحمزة : هو حمزة بن عبد الله بن الزبير .

٢ -- وقال يمدح أبا بكر بن عبد الله
بن مصعب ، وما تمتع الناس به من أمن على
عهد ولايته للمدينة المنورة :

أمسى الحجاز أمنا أصرامه (١)
وصبح نجد وبسرى سقامه
رفعته وقد وهت أخصامه (٢)
بالعدل حتى سكنت عرامه

فلا تأمن الأولى التي قد تعرقت

فقارك حتى عدت ذا شيبه كهلا

ألا يا لقوم ممن ترى مثل حاتم
يجور ويبغى بيننا حكما عدلا

ويدعسوننا أن يرسل الله جالدا
على شرننا رأيسا ، وأقبحه فعلا

وأشبهنا وجهها إذا قيس بيننا
بوجه الظلوم ، ثم توجعه غسلا

ويشهدنا آل الزبير وهاشم
وآل أبي بكر مجالس لا تقلا

فقلت له : آمين آمين إنمنا
دعوت على الأردى فبسلا له بسلا

فإن شهدت آل الزبير وهاشم
وآل أبي بكر فقد علموا الغلا

وكل قريش يعلمون أمورنا
وحيث يظنون الدواغل والدغلا

تمشيت للذلفاء نجلا لعلها
تعاقب ، والذلفاء خالصة تخلا

وسمحت جملا وهي ظني بخيلة
ولكن بما قد تنطق الكلم الخطلا

(١) الأصرام : للفرقة من الناس ينزلون ناحية من الماء .

(٢) الأخصام : هي زوايا المزاراة وجوانها .

نمت جادت بالندي رهامه^(١)
فهو كغيث مسيل غمامه

أرزامه^(٢) بالسوبل وانهمزاه
ما قال فيه بصّر يشامه
عسل أبي بكر ولا إسلامه
ولا الحوارى ولا إقدامه

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ١٦٥

٣- وقال يمدح مصعب بن عبد الله
ابن مصعب :

ان الحوارى والصديق وابنهما
دعائم الدين إذ شدت له الدعائم
وثابتا ذا الندى والمصعبين معا
وذا اليمينين ، عبد الله بعدهم
شدوا عرى مصعب فى كل مكرمة
وعلموه من الخيرات ما علموا

فهو الكريم ملاقة ومختبرا
وابن الكرام إذا ما حصل الكرم

(١) للرهم : المطرة للصغيرة للدائمة .

رحب الفناء ، رخی الباع ، محمّل
للمضامات إذا اشتدت بنا الأزم

لا تنكر العوذ منه أن يضربها
ولا العشار إذا أضيافه قدموا

ولا يسالى وإن كانت مما نحة
أن يخبز السيف من أنسائهن دم

يا ذا الندى ، والندى حج الحجيج له
هل بعد هذا على ذى محنة قسم

لئن نشرت ثنساء لانخفاء به
لقد بسطت عطايها ما لها قيم

ذقنا الثناء فلم تأل الجزاء به
وقد جهلنا وما فى نصحننا ونخم

لن ينقذ القول ما أسديت من حسن
يا ابن الحوارى حتى تنقذ الكلم

ولا نزال بخير ما بقيت لنا
تسمت علينا بلك الآلاء والنعم

المصدر : جمهرة نسب قريش ١ / ٢١٣

و ٢١٤ ، وهى فى تاريخ دمشق ، المجلد
١٦ / ٢٥٢ المخطوطة .

(٢) الإرزام : صوت الرعد يصحب الغيث والانهمزام : تشقق للسحاب بالماء مع صوت وفال إذا تفرس
فأخطأ ولم يصب .

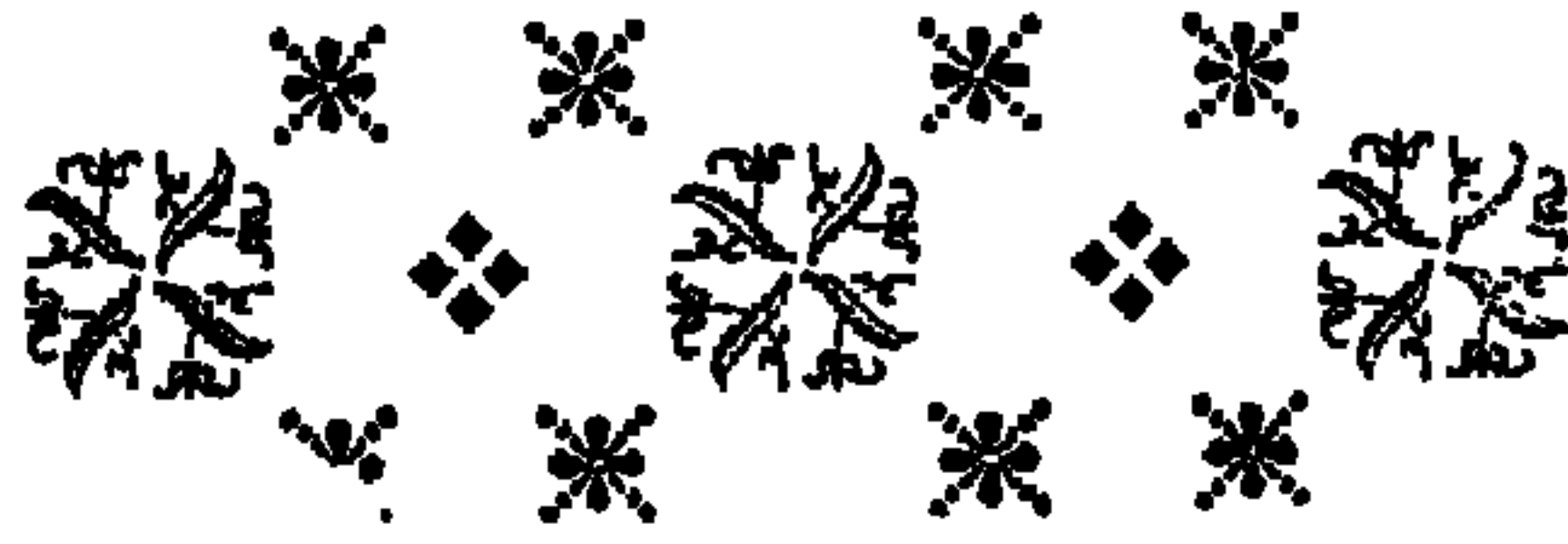
النون

قال ابن أبي خيثمة : قال دعبيل : حضر
محمد بن عبد الملك الفقعسي دارا فيها وليمة ،
وحضرها ابن أبي صبيح الأعرابي ، وكان
بدويا نزل بغداد ومات بها ، وكان شاعرا
مجيدا ، فازدحما على باب الدار ، فغلب ابن
أبي صبيح ودخل قبل محمد ، فقال ابن أبي
صبح :

ألا ياليت أنسك أم عمرو
شهدت مقساوي كي تعذرني

ودفعني منكب الأسدى غنى
على عجل ، بناحية زبون
بمنزلة كأن الأسد فيها
رمتني بالحواجب والعيون
وكنت إذا سمعت بحى خصم
منعت الخصم أن يتقدموني
المصدر : كتاب الورقة لابن الجراح ١٤ ،
والفهرست ٥٥ .

عبد العزيز الرفاعي
عضو المجمع المراسل من السعودية



أفكار وقضايا حول منجم موحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربي للدكتور عبد الكريم خليفة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد :

دأب مجمعنا بالقاهرة
على اختيار قضية أساسية

فقه

من قضايا العربية في العصر الحديث ،
يجمعها في كل عام الموضوع الرئيسي
للبحوث في مؤتمره السنوي. وبذلك
سن سنة حميدة إذ يطرح للبحث
والدراسة أمام المجمعين وعلماء العربية ،
جوانب مهمة من قضايا العربية في العصر
الحديث . وهي قضايا تمس جوهر وجود
أمتنا ووحدةها وارتقاءها في سلم العلم والحضارة ،
والانتقال من حالة التبعية الفكرية إلى حالة
المشاركة الأصيلة المبدعة في العلوم والتقنيات
الحديثة . وقد جاء موضوع البحث في
« ألفاظ الحضارة في الوطن العربي » ليكمل
الصورة الكلية لخدمة العربية والعناية بها في
جوانبها المتعددة من حيث التعريب وجعل

العربية لغة التدريس والبحث في الجامعات
والمؤسسات العلمية ، وكذلك من حيث
الارتقاء بلغة وسائل الاتصالات الجماهيرية
في الصحف والمجلات ودور الإذاعة
المسموعة والمرئية ، وكذلك الموضوعات
التي تثار حول الصراع بين العاميات باتجاهاتها
الأقليمية الضيقة وقدراتها الفكرية القاصرة ،
وبين اللغة الفصيحة ، بقدراتها الفكرية
المبدعة وباتجاهاتها الموحدة .

وأن النظرة الشاملة للقضايا التي تواجهها
العربية في العصر الحديث في مختلف أقطار
العروبة لتؤكد وجود قضية أساسية تتمثل
بألفاظ الحضارة . وهذه القضية المهمة ،
ولأن بلدت منفصلة إلى حد ما عن اللغة
الأدبية واللغة العلمية ، فأنها متصلة بها أشد
الاتصال ، لأنها لغة الحياة العملية والتعامل
اليومي .

(*) ألقى في الجلسة الخامسة يوم الخميس ٢٤ من رجب سنة ١٤١٩ هـ الموافق ٢ من مارس (آذار)
سنة ١٩٨٩ م .

ومن البدهي أن ننبه إلى أن الحديث عن ألفاظ الحضارة سواء أكانت الدارجة منها أم المقترحة ، لايعنى بالضرورة الحديث عن اللغة العامية أو اللهجات العامية . فالحديث عن العامية حديث عن هذه اللهجة من حيث نحوها وصرفها وأساليب التعبير بها ، في حين أن الحديث عن ألفاظ الحضارة الدارجة أو المقترحة ، هو حديث عن مفردات من حيث جرسها وإيجاعاتها ودلالاتها وأصولها . . . وقد تجد هذه المفردات طريقها إلى اللغة الأدبية كما تجد طريقها إلى اللغة العلمية . وتجد طريقها إلى اللغة الفصيحة كما تجد طريقها إلى اللغة العامية . وبما أن الألفاظ الحضارية متصلة أشد الاتصال بالحياة اليومية للناس في ظروفهم الحياتية ومعاملاتهم المعاشية فلإنها تخالط العامية وتمازجها تمازجا كلياً يصعب التفريق بينهما . وربما أن مبادرة الجمهور بإحساسه اللغوي وعفويته في إطلاق هذه اللفظة أو تلك على ذلك المدلول ، يصلح أساساً لتفسير هذه الظاهرة في إغناء اللغة المحكية من حيث الألفاظ الحضارية .

ونحن عندما نتحدث عن «ألفاظ الحضارة» ، فنعنى بها جميع الألفاظ التي يستعملها الإنسان العربي في حياته المعاشية ، من مأكّل ومشرب وثياب ومايتعلق بها ، ومن منزل وأدوات منزلية وأسماء الأماكن ومايتعلق بها ، ومن المكاتب وأدواتها والمركبات ومايتعلق بها . وكذلك مما يتعلق ،

بالحرف وأنواع المهن والصناعات وأدواتها والمواد المستخدمة فيها ، فضلاً عن التربية الرياضية وغيرها من الألفاظ والمصطلحات التي تدخل لغة وسائل الاتصال الجماهيرية واليومية . ولاشك أن هذه الألفاظ الحضارية ، من حيث اتصالها بالحياة والاستعمال اليومي ، قد اتسعت في دوائرها حتى تتصل بمصطلحات الفنون الجميلة على مختلف أنواعها ومذاهبها .

وربما كان من المفيد أن نحدد أن الفاظ الحضارة التي تعيننا في هذا البحث ، هي الألفاظ التي تعبر عن ظروف الحياة ومستلزماتها المعاشية للجماهير أمثنا العربية في أقاليمها المختلفة . ومن هنا تنشأ الخصوصية التي تميز معجم ألفاظ الحضارة بالعربية عن غيره من المعاجم المتخصصة .

فقد أدى تعثر الحياة العلمية وجهودها في أقطار العروبة منذ القرن السادس عشر الميلادي . ولاسيما في حقول العلوم الحديثة من تطبيقية وبحثة إلى توقف العربية عن استيعاب المصطلحات العلمية . وعندما بدأت النهضة العلمية الحديثة ولاسيما منذ أوائل القرن العشرين ، واجهت مؤسساتنا اللغوية والعلمية فراغاً يكاد أن يكون تاماً فيما يتعلق بمصطلحات العلوم والفنون الحديثة باللغة العربية . وما أن بدأت بذور هذه النهضة العلمية في الوطن العربي حتى نشب الصراع بين أنصار العامية من جهة-

وانصار العربية الفصيحة من جهة أخرى .
وكان يساير هذا التيار ، - ويجسد أهدافه
العدائية صراع آخر مازال محتدما ، مع
الأسف حتى يومنا هذا ، بين أنصار جعل
العربية لغة التدريس الجامعي والبحث العلمي
في جميع حقول المعرفة الانسانية ، وبين
القلة المتنفذة التي مازالت تنشب في أبعاد
العربية عن أن تكون لغة الفكر العلمي
العربي في مؤسساته العلمية وجامعاته الوطنية .

وإذا تجاوزنا هذه المرحلة من تاريخنا
العلمي واللغوي ، إلى مرحلة سيادة العربية
في أوطانها ومؤسساتها العلمية والجامعية
وهي بالغتها قريبا إن شاء الله - وجدنا
أنفسنا أمام قضية جوهرية واحدة ، وهي
توحيد المصطلحات العلمية والحرص على
أن تكون هنالك لغة علمية واحدة بالعربية .

فإذا كان هذا هو الحال ، فيما يتعلق
بالمعجمات العلمية العربية المتخصصة فإن الحال
مختلف فيما يتعلق بمعجم «ألفاظ الحضارة» .
فألفاظ الحضارة مستمرة في حياة أمتنا في
أقاليمها المختلفة ، عبر القرون باستمرار
الحياة ذاتها والحاجة إلى التعبير عن لوازمها .
فنحن أمام سبل متصل من ألفاظ الحضارة
في مجتمعنا العربي في أقاليمه ومناطقه
المختلفة ، وفي مدنه وأريافه وبواديه . . .
ولا شك أن ألفاظ الحضارة هذه هي نتائج
ظروف الأمة الاجتماعية والاقتصادية
والسياسية والثقافية . فنحن في هذا المجال

لأنواجه قضية الفراغ الذي واجهناه ونواجهه
عند وضع المصطلحات العلمية ، وإنما
نواجه قضية من نوع آخر . ولعل دراسة
هذه القضية تؤدي بنا إلى تحديد معالمها ،
من حيث أصول بعض هذه الألفاظ
الحضارية ومنابعها الأولى سواء أكانت
عربية صليبية أم معربة ، وكذلك من حيث
الشيوع وملائمة رونق العربية وأصاليها .
ومن حيث الذوق والخفة على السمع واللسان .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فإن معجم
ألفاظ الحضارة ، باللغة العربية يواجه أيضا
فراغا في بعض جوانب الحياة الحضارية
الحديثة . ومن هنا فهو معجم دائم النمو
ومن الواجب أن يتابع المتطلبات الحياتية
للأفراد والجماعات .

وقد أشار مجمعنا العتيد بالقاهرة إلى عظم
هذه المشكلة وأهميتها ، وطرحها للبحث
منذ وقت مبكر في أواسط هذا القرن .
فقال الأستاذ الرئيس الدكتور إبراهيم
مذكور في تصديره لمحاضر الدورة الثانية
عشرة لعام ١٩٤٥ - ١٩٤٦ ، وكان إذ
ذاك أميننا عاما للمجمع : «ألفاظ الحضارة
ضرب آخر من المصطلحات اللغوية ،
وقد تكون معالجتها أعسر من معالجة
المصطلح العلمي ، والإجماع عليها ليس بالأمر
اليسير ، ولا بد أن نستعين عليها بشئ
الوسائل » .

أما أن معالجتها أعسر من معالجة المصطلح العلمي وأن الاجماع عليها ليس بالأمر الهين ، فهذا لاشك فيه ، ولكننا نتساءل كيف أن أمة قد وجدت لغتها الأدبية وتحاول توحيد لغتها العلمية ، بتوحيد مصطلحاتها ، مازالت تغض النظر عن معالجة موضوع ألفاظ الحضارة وضعها وتوحيدها على الرغم من الوسائل العلمية والتقنية التي تيسرها وسائل العلم والتقنيات الحديثة . . . أليس من الواجب أن يكون هنالك معجم شامل باللغة العربية يستوعب جميع ألفاظ الحضارة يصلح أن يكون أساسا للغة حضارية واحدة بين جماهير الأمة العربية في مختلف أقطارها .

ولكى نستوعب عظم هذه المشكلة ومدى أهميتها ، جسعت عدداً من الألفاظ الحضارية في مدينة ما من المدن الأردنية . ودون استقصاء أو محاولة إقامة دراسة جادة . فقد اكتفيت بنماذج عشوائية تشمل أسماء الأدوات المنزلية وأثاث المنازل والمكاتب والملابس وأدوات بعض المهن وأسماء المأكولات وغير ذلك من التعابير الحضارية .

حقاً ، لقد هالني الأمر . فهناك الاختلاف بين الألفاظ الحضارية بين مدينة وأخرى وبين منطقة وأخرى . وهذا الاختلاف قد يضيق ويتسع وفق ظروف مينة أو تباعد المسافات . وهناك الاختلاف الملحوظ بين كثير من الألفاظ الحضارية بين جيل وآخر . أما الألفاظ الحضارية الوافدة من

البلاد الأجنبية ولاسيما من الغرب ، فقد وجدت طريقها بصورة عمياء إلى الجماهير المستهلكة وإلى وسائل الاتصالات الجماهيرية ، من صحف ونشرات وإعلام رسمي وشعبي . . . وتعدى ذلك إلى طغيان حضاري حيث يتمثل بإشاعة الأسماء الأجنبية وإطلاقها على المحلات العامة من تجارية وصناعية . . . ويبلغ هذا الطغيان مداه عندما نرى هذه الأسماء الأجنبية تكتب أيضاً بحروف عربية . فقد رأيت في إحدى القرى الأردنية النائية ، حانوتا كان أشبه بمدخل ضيق . . . وأن محتوياته من البضاعة المعروضة للبيع ليست بأحسن حال من ميناه . ويخيل إلى أن صاحبه يستطيع القراءة والكتابة بصعوبة . . . ومع ذلك فإن المحل يحمل اسم « سوبر ماركت » ! ! ! أما في شوارع العاصمة والمدن المهمة . . . فحدث عن ذلك ولا حرج .

ونحن إذا تجاوزنا حدود قطرنا إلى الأقطار العربية المجاورة والبعيدة ، فإن الأمر يصبح مذهلاً وخطيراً . فالاختلاف في ألفاظ الحضارة ، يجعلنا ، مع الأسف ، نقف أمام حاجز خطير يمنع تفاهم جماهير أمتنا بعالمها وفلاحها ، بعضهم مع بعض . . . وإذا كان المثقفون يجدون في اللغة الفصيحة المكتوبة أو في اللغة المحكية القريبة منها ، وسيلة للتفاهم ، فإنهم أيضاً يصطدمون بعسر التفاهم ، إذا تناولوا ألفاظ الحضارة بالاستعمال . . . والأمثلة على ذلك كثيرة ،

سواء أكان منها تراثيا شائع الاستعمال في أقطارنا العربية منذ أزمان قديمة أم كان منها دخيلا حديثا حملته الحضارة الحديثة إلى شعوبنا صانعة أو مستهلكة .

فهناك مثلا القمح والحنطة والبر والغلّة وجميعها ألفاظ قرائية ، وغالبا ماتستعمل مترادفات في كل قطر .

ولنأخذ مثلا كلمة « البطيخ » وكم تتعدد الاختلافات في مدلولاتها في مختلف الأقطار . وقد يضطر الباحث مع الأسف أن يضع مقابلها اللفظة الأجنبية كي يحدد مدلولها . فهناك « بطيخ أصفر » في الشام ، وشمام في الأردن وفلسطين ، وشمام وقاوون في مصر هذا مع العلم أن كلمة « قاوون » تركية وهكذا تتعدد الألفاظ لمسمى واحد . فهو : بطيخ أخضر وبطيخ أحمر وبطيخ شامى وبطيخ هندي ، ودلاع وخربز وحَبَّحَب ، وجَبَّس وَرَق . حيث تسود كل لفظة في قطر من الأقطار أو في منطقة دون أخرى .

وقل مثل ذلك في كثير من أسماء الفواكه والأطعمة والمأكولات والأدوات المنزلية وغيرها من ألفاظ الحضارة . فالوعاء مثلا الذى يوضع فيه أعقاب السجائر يسمى : متكة ومكته ومنفذه وطَقْ-طَوْقة وسَنَدْرية... الخ .

وفي أدوات الكتابة ذاتها ومستلزمات المكتب ، اختلاف كبير في الألفاظ الدالة عليها . . أما الأدوات الحديثة التي دخلت في الحرف والمهن والصناعات ، فقد دخل معظمها بألفاظها الأعجمية ، بعد أن أصابها التحريف العفوى ، أو المبادرة المحلية بعيدا عن كل قاعدة أو قانون ينظمها .

ومنذ مطلع هذا القرن جرت محاولات ودراسات ، كانت غايتها أغناء اللغة العربية بما يجد من ألفاظ الحضارة الحديثة . وكثيرا ما كان الأمر يغم فتتداخل مصطلحات العلوم الحديثة بألفاظ الحضارة الحديثة ، دون أن يفرد أيضا موضع خاص بمصطلحات الفنون الحديثة مثل : التصوير والنحت والمرسومات والخزف والسينما والموسيقى . . . الخ .

وكان لمجمعنا بدمشق ومجمعنا بالقاهرة فضل الريادة في إثارة هذا الموضوع الخطير . وقام مجمعنا بالقاهرة ، منذ أوائل الأربعينات بالبحث في الوسائل التي يمكن استخدامها من أجل تزويد اللغة العربية بمصطلحات الحديد في ميادين الحضارة الحديثة . . . ولأن المناقشات والآراء المختلفة التي طرحت في ذلك الوقت ، وحفظتها محاضر جلسات المجمع ، تكون مصدرا مهما من أجل وضع الأسس العلمية التي يمكن أن تصلح منطلقا منهجيا لمجمعنا اللغوية من خلال اتحاد المجامع ، لوضع « معجم موحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربي » .

وما زالت مقولة المرحوم العالم المحمدي الأستاذ محمود تيمور ، تكون أساسا صالحا تقوم عليه فلسفة هذا المعجم الحضاري ، وتعطيه هويته العربية الجامعة ، حيث يقول - رحمه الله - : « إن السعي إلى وضع مقابل صحيح لألفاظ الحضارة أو الحياة العامة ليس مقصودا به فرض ذلك على أفواه العامة في البيوت والأسواق ، ولكن المقصود به أسعاف الأقلام الكاتبة بما يسد حاجة التعبير من ألفاظ فصاح لمسميات حضارية شاملة ، وإشاعتها في الصحف السيارة والكتب المتداولة ، ولذا عنتها في مجالات الأذاعة الفصيحة على اختلاف منابرها ومصابها في حياتنا التعليمية والاجتماعية في أرحب نطاق » (١) .

ونحن الآن لا يدور في خلدنا أننا نهدف إلى التغيير القسري لما يستعمله عامة الناس في كل قطر من الأقطار العربية ، ولكن من الواجب ، كما أشرنا سابقا ، أن يكون هناك معجم شامل باللغة العربية يستوعب جميع ألفاظ الحضارة ومستلزمات الحياة الحديثة ، يمكن أن يكون مرجعا ليكتتاب العربية وأدبائها في العصر الحديث في مختلف الفنون الأدبية ، من قصة ورواية ومسرحية وغيرها ، وفي جميع وسائل الاتصال الموجهة إلى جماهير الأمة العربية . . . ولا شك

أن هذا الوضع سيؤدي إلى اشاعة هذه الألفاظ ، وأحيائها بالاستعمال . . . وبالتالي ستحل الألفاظ الحضارية الموحدة محل تلك الألفاظ المحلية ، بصورة طبيعية ودون عنت أو قسر ، وإن لغة الثقافة كفيلة بنشرها . . . وهناك أمثلة كثيرة يمكن الاستشهاد بها من حياتنا العملية . فنحن نعلم مثلا أن هنالك كثيرا من الألفاظ المغرقة بعاميتها ، محليا أو قطريا ، قد اختفت من الاستعمال العام ، وحلت محلها ألفاظ فصيحة أو أقرب إلى الفصيحة ، مما يخف وقعه على الأسماع ويسهل دورانه على الألسنة . . . فلو أخذنا مثلا لفظة « سيارة » ، هذه اللفظة التراثية الحميلة قد باتت تسير على جميع الألسنة ، دالة على هذه الآلة الحضارية الحديثة ، في حين أننا لو رجعنا إلى نصف قرن أو يزيد ، لوجدنا ألفاظا كثيرة مختلفة للتعبير عنها في كل قطر من الأقطار العربية فهناك « الأوتوبيس » و « الأوطمبيل » « الطنمبيل » و « الكاره » و « الحنتور » . . . الخ ، من الألفاظ الأعجمية والعامية الخلفة . . . وقد حل محلها جميعا في الاستعمال الثقافي وبين عامة الناس أيضا لفظة « السيارة » . وقد نقلت من معنى تراثي معروف في اللغة الفصيحة إلى معنى اصطلاحى يدل على هذه الآلة المحددة . . . ولا أظن أن الذهن

(١) معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون ، تصدير الأستاذ بدر الدين أبو غازي ، القاهرة ، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ / ص ٠ .

يتجه إلى أى معنى آخر لهذه اللفظة فى الوقت الحاضر بين عامة الناس والمتقنين ..

وقد قام مجمعنا القاهرى ، بتأصيل هذا الاتجاه ، بنشر ما وضعته لجنة ألفاظ الحضارة وخبرائها ، وأطلق عليه تفاعلاً اسم « معجم ألفاظ الحضارة ومصطلحات الفنون » .

وجاء تصدير الزميل الأستاذ بدر الدين أبو غازى . رحمه الله - على إيجازه شاملاً وعميقاً لموضوع « الألفاظ الحضارية » .

وهناك محاولات أخرى فى هذا المجال كان لمجمعنا بدمشق مشاركة مهمة فيها . . . ومنذ حوالى عقدين من الزمن نشر الأستاذ عبد العزيز بن عبد الله فى مجلة اللسان العربى التى تصدر عن مكتب تنسيق التعريب فى الرباط سلسلة من معاجم المهن مثل « الخبازة والنجارة ، والحداة . . . الخ .

وقد قامت مؤسسة « دار لسان العرب ، ببيروت » بنشر مجلد خاص الحقته بمجلدات معجم لسان العرب ، تحت عنوان (معجم المصطلحات العلمية والفنية » (عربى - فرنسى انجلىزى - لاتينى) ، قام بإعداده وتصنيفه الأستاذ يوسف خياط . وقد سار على نهج ابن منظور فى محاولته جمع وتصنيف المصطلحات العلمية والفنية الواردة فى عدد من المصادر الجمعية والجامعية عند

بعض المؤلفين . وقد تداخلت فيه بعض الألفاظ الحضارية مع المصطلحات العلمية . وليس من شأننا فى هذه الكلمة أن نعرض لموضوع المصطلحات العلمية ، التى كان فيها لمجمعنا اللغوية ومؤتمرات التعريب جهود مشكورة خيرة .

أبها السادة العلماء ، فهذه كلمة عامة وعرض سريع ، لقضية مهمة من قضايا العربية التى نواجهها فى أواخر القرن العشرين وان مجامعنا اللغوية ومؤسساتنا العلمية : المدعوة ، بحكم واجبها أن تتصدى لجميع هذه المشكلات والقضايا التى مازالت تقف عائقاً بين لغتنا العريقة فى تاريخها العلمى والحضارى والفكرى ، وبين استيعابها جميع معارف الحضارة الإنسانية الحديثة . وإن موضوع « معجم موحد لألفاظ الحضارة » ليندرج فى هذا السياق ، من أجل وحدة الأمة ، وفسح المجال للرحب أمامها من أجل بناء نهضتها العلمية والأدبية والفكرية والمشاركة الأصيلة فى بناء الحضارة الحديثة.

ونحن نعتقد أنه قد آن الأوان ، كى تقوم مجامعنا اللغوية العربية ، ومن خلال اتحاد الجامعات بالعمل على إنشاء مؤسسة خاصة بالمعاجم العربية ، حيث تستغل إمكانات الأمة العلمية والمادية من أجل وضع المعاجم

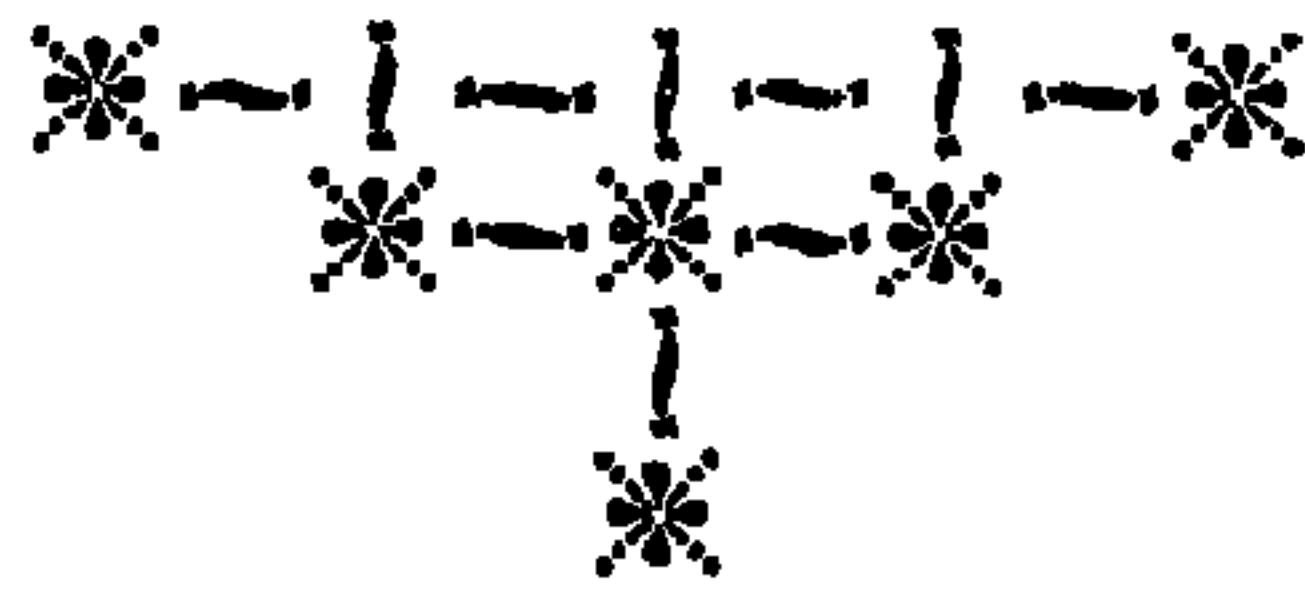
المتخصصة في مختلف العلوم والفنون والمعجم الحضاري ووضع المعجم التاريخي للغة العربية ، الأمل الكبير الذي طالما تطلعت إليه أمتنا في مختلف مؤسساتها العلمية. أما ما يخص المعجم الموحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربي» فنحن نعتقد أنه من الضروري أن توضع خطة علمية شاملة على مستوى الوطن العربي . . . فنجمع جمع استقصاء جميع ألفاظ الحضارة التي تستخدم في جميع الأقطار العربية ، سواء منها ما كان من ألفاظ المؤسسات العلمية أو ما كان من ألفاظ السوق أو الأسماء التي يطلقها أصحاب الصنعة على آلاتهم وأدواتهم . . . الخ ، وان تضبط ضبطاً كاملاً وأن تشرح شرحاً واضحاً ، وقد يستعان بالرسم عند الحاجة .

ولابد من استخدام الحاسوب والتقنيات الحديثة في مثل هذه الأعمال اللغوية الجارية ،

فنخزن جميع هذه الألفاظ ، مع الضبط والشرح والجهة التي تشيع فيها . . . وأن يكون هذا كله أحد المصادر التي يستعان بها إلى جانب المعاجم القديمة والحديثة ، العربية منها والأجنبية . . . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى أن الاجتهاد في الوضع والنقل والاشتقاق والنحت . . . وغير ذلك من أساليب العربية ، يجب أن تكون الفلسفة التي تنزع عنها هذه المؤسسة في إصدار المعجم الموحد لألفاظ الحضارة في الوطن العربي .

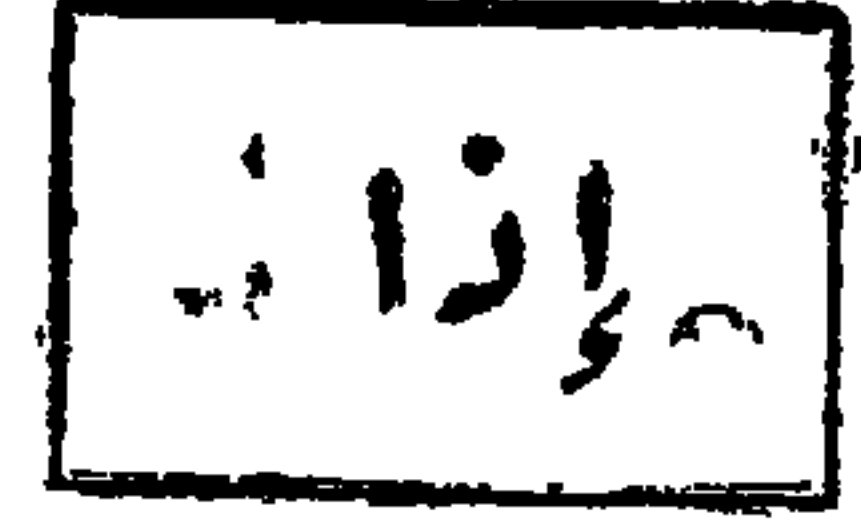
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ، ،

عبد الكريم خليفة
عضو المجمع من الأردن



ألفاظ الحضارة في التراث

للدكتور حسين علي محفوظ



ولدت الحضارة في
هذه البلاد وإذا اتسعت

وامتدت وتعمقت وتنوعت وآتت
أكلها في هذه الرقعة من الأرض ؛
فقد وجدت في اللسان العربي المبين ما يعبر
عن مقاصدها وأغراضها وحاجاتها ، وما يفي
بمعطياتها وابكارها وأفكارها من الألفاظ
والتراكيب والكلمات والمشتقات . وهذه
المزية هي إحدى خصائص هذا اللسان
القديم الكريم المعرق المدهش العجيب .

اشتغل العلماء العرب - في تاريخ الإسلام -
بالتأليف ، وصنفوا الكتب في مختلف
الموضوعات والعلوم . وأمتلأت الخزائن
العربية بالتأليف في أبواب المعارف والفنون .
ولو وصل إلينا كل ما ألف القدامى في العلم
تعذر احصاؤه والإحاطة به فضلا عن
تلخيصه ، والتماس مضامينه واستخراج
ألفاظه واصطلاحاته .

هذا - وقد كنت تتبع ما تيسر تحصيله
والاطلاع عليه من المصادر والأصول

وعرفت به ، واستخرجت ما يحتاج إليه
مما فيه من ألفاظ الحضارة وأسماء الآلات
والأدوات والأشياء والحاجات ومصطلحات
العلوم والمواضيع والتعريفات . وهر أمر
يشترك في بعض جوانبه كثير من المهتمين
باللغة والتراث الآن ومن قبل . والاهتمام
به قديم في اللغة والعلم .

رقد ألف العلماء واللغويون من الكتب
والمعاجم في الاصطلاحات والألفاظ والعلوم
ما لا ينفده تراحمننا عليه وازدحامنا على
الاستقاء منه .

لا أحتاج إلى التنبيه على ما في خزانة التراث^١
من طرائف الكتب في اللغة والعلم - وهي
كثيرة وما ضاع أضعاف ما بقي - ولا أحتاج
إلى توضيح ما في المعاجم المبوبة ، وكتب
اللغة المرتبة على الموضوعات ، وجوامع^٢
المفردات الثنائية المصنفة على الأبواب أو

(•) ألقى في الجلسة الخامسة يوم الخميس ٢٤ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٢ من مارس (آذار)
سنة ١٩٨٩ م .

الحروف من غنى في ألفاظ الحضارة مما
ينفع في تدوين المعجم التاريخي وقواميس
العلوم والفنون والحضارة واللغة .

ولا أحتاج إلى إيراد الأمثلة ، وهي
تستغنى عن التعريف . وإنما أكتفى في هذه
الدراسة المقتضبة من مباحث ألفاظ الحضارة
في التراث باستخراج مصطلحات الصيدلة
وتعريفها من اقربا ذين القلانسي ، والتنبيه
على أهمية كتاب شرح كليات القانون لابن
النفيس ، والتعريف بكتاب بحر الجواهر
لليوسفي الهروي الطبيب .

أما بدر الدين محمد بن بهرام بن محمد
القلانسي السمرقندي فقد كان « مجيداً في
صناعة الطب » كما قال ابن أبي أصيبعة .
وكتابه (الاقرباذين) « قد أستوعب فيه
ذكر ما يحتاج إليه من الأدوية المركبة .. »

وقد جعله مشتملاً على (٤٩) باباً
في التقاط الأدوية ، وادخارها ، وأحكام
الاحراق والغسل والحمود والمجاورة والممازجة ،
وتركيب الأدوية المفردة وكيفية استعمالها
في الأدوية المركبة ، وكيفية الأحرار
والقلي والشبي والغسل ، وعمل الأدهان
والأضمدة والقيروطي ، وطبخ السرطانات ،
واستخراج الأدهان وعسل البلاذر ولبن
الشبرم ودخان الكندر ، وتطرية العود ،
واصلاح الدبق ، وحفظ المرارات والمشحوم
والأدمغة ، واتخاذ دم التيس وماء الجبن . .

وباب العشرون والباب الحادي والعشرون
هما مقصد هذا البحث . فقد اضطرنا على
عشرات الاصطلاحات والتعريفات .

فسر القلانسي في الباب العشرين أسماء
الأدوية المركبة باليونانية . وشرح في الباب
الحادي والعشرين أسماء الأدوية المركبة
بالعربية .

يحتوي الباب العشرون على (٤١) تعريفاً
لمجموعة من الألفاظ والتعابير ، ويحوي
الباب الحادي والعشرون على (٥٠)
تعريفاً كذلك . والتعريف يقرب المراد من
المصطلح ويفيد في تحديد ما يقابله من الألفاظ
الأجنبية .

قال في تفسير أسماء الأدوية المركبة
اليونانية :

الترياق - كل دواء قاوم السموم - .
ويسمى الترياق الأكبر ، وترياق الأفاعي ،
وترياق الفارق .

المثروذيطوس - ترياق عمله مثروذيطوس
الملك ، وسماه باسم نفسه ،

ترياق الأربعة - ترياق عمل من أخلط
أربعة

الاثاناسيا - معجون ينفع من أوجاع
الكبد وغيرها ، ومعناه المنقذ . . .

الدحمرثا - الحادورة ، كأنها تحدر
الرياح والطمث وتحطمهما

يد الله - هو الدواء المتخذ بدم القيس ،
النافع في تفتيت حصاة المثانة . ولانما سمي
بهذا الاسم لحلالته .

المعجون المسمى الجاويداني - أى المعمر .

الأطريفل - أى الثلاثة أخلاط وهى
الملييح والمليج والأبلح .

قرص الكوكب - الغالب على الامراض ،
الذى لا تغلبه الأمراض .

دواء الخطاطيف - المتخذ بالخطاطيف
المحرقة .

جوارشن الحكماء - جوارشن سليمان

المعجون المغيث - يسكن جميع الأوجاع
معجون ابى مسلم ألف فى عهدة فسمى
باسمه . وكان ذلك قبل عهد جالينوس
(كذا ؟)

الأكسرين - كل دواء مركب ، منبت
للحم فى القروح ، ملصق للجراحات .

القيروطى - الشموع المذابة ، المرفقة مع
الأدهان او مياه البقول والثمار - المركبة فى
الشمع والدهن .

الخشجات - الحبوت المسهلة .

الكشتجات - كذلك . وقيل معناه
(المدقوق) هو الذى يدق ثم يستعمل .

الايارج - معناه الشريف .

- اسم للمسهل المصلح .

- الدواء الألهى .

المرهم - ما يعالج به القروح والجراحات
وهى الأدوية المليئة بالأدهان والمخاخ والشحوم
ونحوها .

وذكر - أيضا - من أسماء الأدوية المركبة
الكثير النجاح - والمفلح ، وهبة الله -
والخلص الأكبر .

ويلاحظ ان القلانسي اشتبه أحيانا فى
التأصيل ، وخلط فى نسبة الألفاظ إلى
الأصول فى بعض الأحيان .

ومن شروح أسماء الأدوية المركبة بالعربية
الفرزجة - ما يتحمل فى القبل ؟ وجمعه
فرازج

الشياف - ما يتحمل فى المقعدة .

- ويستعمل أيضا لدواء العين

البلوطة - التى يتحمل بها .

البندقة

الفتيلة -

شبار - لأن كانت طويلة .

الحقن - مياه مطبوعة مع الأدوية ،
وما يجرى مجراها ، تصب فى المقعدة .

البنادق - جمع بندقة . وهى أكبر من
الحبوب ، فى هيئة البندقة .

السرداروج -- التقوية التي تلتقى في الدواء المطبوخ بعد التصفية لى. معرب من سردارو

الجوارش - هو الهاضوم .

المعجون - كل ما عجن من الأدوية .

والفرق بين المعجونات والجوارشونات أن المعجونات تكون مرة وحلوة ومننتة وطيبة والجوارشونات لا تكون للاعذبة الطعوم طيبة الروائح .

الشموم - ما يشم من الرياحين والأدهان وغيرها .

النشوع (أو النسوع في أكثر النسخ) بالعين غير المعجمة ما يصب في الأنف وكذلك النشوغ . بالغين المعجمة .

النشوق - ما ينشق بالأنف ليدخل فيه بخاره أو رائحته .

الكبوب - ما يطبخ به الأدوية ، ويكب على بخاره .

الغسول - ما يغسل به العضو أو البدن .

الصبوب - ما يصب على العضو صباً واسعاً .

النشور - ما ينثر على القروح والجراحات .

السكوب - ما يسكب على العضو من

ماء أو دهن ونحوهما قليلاً ، ويستعمل في الشيء الرقيق .

الحب - ما حبيب على هيئة الحبات . أى جعل على هيئتها مدورة ومطولة ، صغارا وكبارا . وجمعه حبوب .

المطبوخات - مياه الأدوية اذا طبخت والغرض منها تليين الطبع واسهاله .

الالكحال - أدوية العين إذا كانت يابسة .

الأطلية - ما يطلى على العضو . والفرق بين الضاد بين الطلاء لأن الضاد أغلظ والطلاء أرق . وهو يساعد اليد ويجرى معها . والطي ولا يساعد اليد ، ولا يجرى معها .

الأضمدة - هى الأدوية التى تخلط وتبل بالأدهان ، وتلين بالصمغ . وتوضع على العضو .

الأشربة - مياه الفواكة وغيرها إذا طبخت مع السكر والعسل حتى يكون لها قوام مثل السكندجبين وشراب التفاح .

الربوب - مياه الفواكة وغيرها ، إذا طبخت وحدها حتى تغلظ .

الافشرجات - هى الربوب والأفشرج معرب معناه العصارة . ولا يكون ربا حتى يطبخ ويغلظ .

الجلنجبين - الورد المربى .

السكندجبين - الشراب المركب من الخل والعسل .

المية - شراب مركب من رب السفرجل والخمر .

المنطول - ما ينطلى على العضو أى يصب
ويستعمل فى الشئ الغليظ . ويشبه أن يكون
من المنطى وهو العدى .

السنون - ما يلقى فى النار .
السنون - ما يلقى به الأسنان من الأدوية .

المسوخ - ما يلمس به العضو .
المسوخ - ما يمسح به .

المروخ - ما يمزج به .

المضوغ - ما يعضغ .

الغرور - ما يتغرغر به .

المضوض - ما يتمضمض به .

الوجور - ما يصب فى الفم .

اللدود - ما يصب فى أحد شقي الفم .

النفوخ - ما ينفخ فى الأنف أو اللهاة
والخلق من الأدوية اليابسة .

القطور - ما يقطر فى الأنف أو الأذن
أو الأحليل من دهن أو ماء أو كل سائل .

السعوط - ما يقطر فى الأنف .

العطوس - ما يعطس به .

المربيات - كل ما يربى فى السكر أو العسل
حتى يتحول فيكتسب كل واحد قوة من
صاحبه ولا يتحداه .

كل ما أغلى من الأدوية وصب على
العضو .

ويطلق أيضاً على ماء مسخن يصب
على العضو ، من غير أن يطبخ فيه شئ من
الأدوية .

ويطلق أيضاً على الصوفة المغموسة
فى الماء المطبوخ فيه الأدوية إذا وضعت على
العضو .

الكماذ - كل شئ يسخن بالنار ،
مثل خرق أو نخالة أو نحوهما ، ويوضع
على العضو . كما يوضع على البطن الملح المسخن
المصرور فى القولنج المريحى .

البرود - دواء يتخذ لتبريد العين .

اللوق - ما يلحق من الأدوية .

الدرور - أدوية يابسة تذر فى العين أو فى
القروح والجراحات .

القرص - واحد الأقراص والقرصة ،
أدوية تدق وتحيا . مثل الأقراص صغارا
أو كباراً ويقال أيضاً قرصة للواحد .

القميحة - ما يؤكل من الأدوية يابساً ،
ويكون مقداره لقمة .

بحر الجواهر لليوسفي من ألفاظ الحضارة في
الصيدلة والطب خاصة ما نحتاج كل الاحتياج
إليه في التعبير والتعريب ، وما لا نستغنى عنه
في اختيار ما تمس الحاجة إلى معرفة مقابله
العربي من اللفظ الأجنبي .

حسين علي محفوظ

عضو المجمع المراسل من العراق

الانبيجات -- هي المربيات واحدها انبيجة .
وهي معربة . وأصلها أو ميخته ومعناه الخلط
والمزج .

والحق أن في كتاب الأقرباذين للقلانسي
وشرح كليات القانون لابن النفيس ، وكتاب



المصادر والمراجع

- ١ - اقرباذين القلانسي .
- ٢ - بحر الجواهر - الطبيب الهروي .
- ٣ - شرح كليات القانون - ابن النفيس .
- ٤ - علم الصيدلة في التراث - د. حسين علي محفوظ .
- ٥ - نقول - د. حسين علي محفوظ .
- ٦ - دراسات وأبحاث ومقالات - د. حسين علي محفوظ .
- ٧ - مطالعاتي - د. حسين علي محفوظ .
- ٨ - قاموس التراث - د. حسين علي محفوظ .
- ٩ - الحدود - د. حسين علي محفوظ .



من قضايا السيرة النبوية (تصحيح لمفاهيم خاطئة) للدكتور محمد الطيب النجار

مقدمة

كتب السنة الصحيحة ، وتجيء بعد ذلك المراجع الأساسية الأصيلة في التاريخ الإسلامي ويضاف إلى ذلك كله ما كتبه المؤرخون المحدثون ؛ كي يستنير الباحث بأرائهم الصائبة أو يضيف إليها ما يمكن أن يهتدى إليه من آراء جديدة . أو يفند ما جاء في بعضها من الآراء التي لا تستند إلى أساس سليم .

ومن المعروف أن المستشرقين الغربيين قد تناولوا حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما تناولوه من الأبحاث في التاريخ الإسلامي ولكن روح التعصب والتحامل كانت تطغى على معظم كتاباتهم ومن أبرز هؤلاء الذين ظهرت فيهم روح التعصب في كتاباتهم عن الرسول « وليم موبر » و « كاييتاني » . ومن المعروف - أيضاً - أن كتب السيرة كغيرها من سائر الكتب الإسلامية قد دست إليها في

سيرة النبي محمد
صلى الله عليه وسلم

كانت

هي الأساس الكامل لدعوته الكريمة التي أضاعت المشرق والمغرب وهلت العالم بالهدى والنور . ومن أجل ذلك كانت أهمية هذه السيرة الوضاعة العطرة للمسلمين بل للإنسانية جمعاء . حيث تناقلتها الأمم والشعوب جيلاً بعد جيل . ثم سجلت على مختلف العصور في كتب يضيق بها الحصر والتعداد . وسوف تظل الكتابة فيها متصلة الحلقات إلى أن تنفطر السماء وتنكسر النجوم وتبدل الأرض غير الأرض والسموات .

وواجب المؤرخ الذي يتصدى لكتابة السيرة النبوية أن يستضيء أول ما يستضيء بكتاب الله عز وجل ، ثم يلي ذلك في الأهمية

(*) ألقى في الجلسة السادسة يوم السبت ٢٦ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

عصور التدوين الأولى بعض المفثريات وكان أساسها هؤلاء الذين أسلموا ظاهراً ولما يدخل الإيمان في قلوبهم . أو دخلوا في الإسلام ولم تكتمل معرفتهم بكل مبادئه وآدابه .

لذا أصبح لزاماً علينا أن نتبين مثل هذه الروايات الدخيلة وأن ننظر إليها بعين الفاحص المتأمل حتى يمكن أن نصفها - بقدر ما نستطيع - من الشوائب والرواسب . أو نطرحها جانباً إن كانت خبيثة الجوهر فاسدة العنصر مهما كانت خادعة المظهر ومهما لبست من ثياب براقة زاهية .

على أن ذلك كله في نطاق محدود ويجب أن يكون بعيداً عن المعجزات الثابتة للرسول صلى الله عليه وسلم فإن هذه المعجزات كشق الصدر وانشقاق القمر . إلى غير ذلك من سائر المعجزات التي صحت نسبتها ورجعت روايتها

لا ينبغي أن تناقش في ضوء المنطق وعلى أساس من الأسباب والمسببات . وإلا لما كانت معجزات . أما المعجزات التي لم تصح نسبتها ولم ترجح روايتها فإن رسول الله في غنى عنها ولا ينبغي لنا أن نتمسك بها .

وإذا كانت قضايا السيرة هي الأحداث الكبرى التي مرت على الرسول أو مر هوبها فإن الحديث عنها يطول كثيراً ويكاد ينتظم حياة الرسول جميعها ، ومن أجل ذلك آثرنا أن نتحدث عن بعض الأحداث التي اختلفت فيها وجهات النظر . وتعرضت لأفهام خاطئة من بعض الكتاب المسلمين أو لمفثريات كاذبة من غير المسلمين ثم نحاول أن نبين وجه الحق فيها بقدر ما نستطيع ونسأل الله أن يسدد خطانا على الطريق ، وأن يجنّبنا شر الزلل ويوفقنا للخير العمل . وبالله التوفيق .

١ - « قل إنما أنا بشر مثلكم »

مثل قوله سبحانه في سورة الكهف : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي » ، ثم زادها تأكيداً في آية أخرى تشير إلى أن محمداً خلق من نفس الطينة التي خلق منها سائر البشر وذلك حيث يقول في سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » .

ولقد ذكر بعض المفسرين في تفسيرهم لقول الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » ذكر بعض المفسرين أن المقصود بالنور في هذه الآية الكريمة هو محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن هنا ساغ لبعض ضعفاء العقول أن يقول إن محمداً مخلوق من نور جهلا منهم بما يفهم من الآية . إذ لا شك أن النور الذي جاء في الآية الكريمة هو النور المعنوي الذي يضيء للناس طريق الحق وليس النور الحسي الذي تراه العين والذي يضيء كما تضيء المصابيح وكما تضيء الكواكب ؛ فالواقع الذي تطمئن له النفوس وتنهض به الحجة أن محمد أنور لأنه أضواء للناس طريق الخير بما آتاه الله من العلم والحكمة ولكنه مخلوق من التراب الذي خلق منه سائر البشر وليس يضيئه في قليل أو كثير أن يكون

كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الدنيا كحياة المشكاة النيرة يتألق ضوؤها ذات اليمين وذات الشمال وفي كل مجال ويهدي الله بها من يشاء من عباده . فلما قضى الله على رسوله أن يلحق بالرفيق الأعلى ويوضع جسده الطاهر في باطن الأرض رجع الناس بسيرته نوراً يسعى بين أيديهم وبأيمانهم وسوف يظل هذا النور هداية للناس ورشاداً ما دامت السماوات والأرض وما بقي الوجود كله .

ولأنه لحق علينا - نحن المسلمين - أن ننتفع بهذا النور المبين وأن نحسن استغلاله بدل أن تعشى به أبصارنا فيلتوى علينا القصد ويضيع منا الطريق . بيد أن بعض المسلمين قد عشت أبصارهم بهذا النور إذ فتنوا بحبهم للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ففضلوا عن الحق وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . ذلك بأنهم قد بالغوا في تقديس النبي مبالغاً أنستهم أنه بشر وأنه خلق من طين كما خلق سائر البشر فقالوا عنه إنه خلق من نور وقالوا عنه إنه أول خلق الله ، واستدلوا على ذلك بروايات موضوعة لا تمت إلى الحق بأى سبب وغفلوا عن الآيات الواضحة الصريحة التي ذكرها الله عز وجل في محكم كتبه والتي يتبين منها حقيقة البشرية التي أكدها الله وأمر رسوله أن يعلنها للناس في

أبناء آدم ثم يوجد قبل أبيه . ولا يستقيم مع المنطق السليم - كذلك - أن تكون الأفضلية بين الناس بقديم الميلاد وإلا لكان الآباء أبداً أفضل من الأبناء . . وكان الأجداد - على توالى العصور - أفضل من الآباء والأحفاد .

وإذا كان من واجنا - كمسلمين - أن نقدر نبينا العظيم حق قدره فإنه لحق علينا - كذلك - ألا نسيء الفهم وتجاوز الحد فنبعد نبينا عن منزلته وقدره فما ؛ أبعد الفرق بين التقدير والتقديس وبين الحب والعبادة .

مخلوقاً من التراب ما دام الله قد اصطفاه واختاره لرسالته الكريمة التي أضاءت المشارق والمغارب وملأت العالم كله بالهدى والرشاد..

والواقع الذي تطمئن إليه النفوس وتنهض به الحمجة أن محمداً أول خلق الله منزلة وأعلام قدره وليس أول خلق الله وجوداً وأقدمهم مولداً ذلك بأنه في التسلسل الزمني كان خاتم الأنبياء والمرسلين . فهو مكمل للبناء العظيم الذي أقامه الأنبياء لإسعاد البشر منذ وجد آدم أبو البشر ، ولا يستقيم مع المنطق السليم أن يكون محمد صلوات الله وسلامه عليه من



٢ - « قصة الفيل والطير الأبابيل »

يقول الله تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ؛ ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول » .

وتشير الآيات الكريمة إلى تلك المحاولة التي قام بها القائد الحبشي أبرهة الأشرم حيث توجه إلى مكة يريد هدم الكعبة . ولسنا الآن بصدد الأسباب التي دفعته إلى هذه المحاولة ولكننا سنقف عند تلك الآية الكبرى التي تجلت في ذلك اليوم فكانت معجزة باقية على الدهر وسجلها الكتاب العزيز في سورة من سوره حيث أرسل الله على الجيش الحبشي . جماعات من الطير أمثال الخطاطيف ومع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب منهم أحداً إلا هلك .

وقد ذكر الأحباش واستولى عليهم العرب والذحول فخرجوا يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا وحينئذ رأهم أعرابي في هذه الحيرة فأدرك أنهم قد أحيط بهم وقال :

أين المفر وإله الطالب

والأشرم المغلوب ليس الغالب

وجعلوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون بكل مهلك وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة وكلما سقطت أنملة خرج وراءها الدم والقيح الكثير ، وما زال هكذا حتى انصدع صدره عن قلبه . وهكذا كان هلاكهم كما أشارت السورة الكريمة حيث يقول سبحانه مشيراً إلى نهايتهم : « فجعلهم كعصف مأكول » .

ومن عجب أن تكون الآيات الكريمة واضحة كل الوضوح في تصوير هذه الحادثة ومع ذلك يوجد من علماء المسلمين من يحاولون تأويلها ويقولون إن الله عز وجل يريد بالطير الأبابيل الرياح المتجمعة بالحجارة من السجيل ذرات التراب التي حملت ميكروب الجدرى . ومن ذهب إلى هذا الرأي الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره لجزء عم والدكتور محمد حسن هيكمل في كتابه حياة محمد والدكتور طه حسين في كتابه على هامش السيرة :

ومن واجبتنا أن نقول لمن يقرءون هذه الآراء إنه لم يعهد في لغة العرب أن يقال عن الرياح إنها طير أبابيل أي جماعات من الطيور

ولا ينبغي أن يقال ذلك إلا بطريق مجازي بعيد ، ولا يصح أن يلجأ إلى مثل هذا المجاز مادامت الحقيقة غير مستحيلة على قدرة الله تعالى . وكذلك لا يقبل في لغة العرب أن يقال عن الذرات من التراب إنها حجارة من سجيل أى من طين مطبوخ في النار وهو الآجر ، وإذا كانت الريح - كما يزعمون - قد حملت ميكروب الحدرى فلماذا هلك الأحباش وحدهم ولم يهلك معهم العرب ؟ . وإذا كان حادث الفيل قد وقع عام ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن المعقول أن سورة الفيل قد نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم في وقت كان يعيش فيه من أهل مكة أناس رأوا حادث الفيل بأعينهم وبعضهم كان من المشركين الذين لم يؤمنوا برسالة محمد . فلو لم تكن الطيور طيوراً حقيقية والحجارة حجارة حقيقية لظهر من العرب من يسارع إلى تكذيب هذه السورة ويعلن ذلك على رءوس الأشهاد . وينتهزها فرصة في الكيد لمحمد والطعن عليه ، . ولكن الواقع أن سورة الفيل قد نزلت فتلقاها العرب بالقبول لأنها تقرر حقيقة معروفة عندهم لاشك فيها ولا يجرؤ أحد على إنكارها .

وعلى هذا فالطير الأبابيل هي الطيور الحقيقية المعروفة لدى الناس جميعاً ، ولعلها

غارات جوية وقعت في هذا العالم قبل الأوان . لم يصنعها إنسان ليبطش بأخيه الإنسان ولكن صنعها القهار ليكبح بها جماح الظلم والعدوان .

ولقد سجل العرب في شعرهم هذا الحادث العجيب وتغنوا به أمام العصور والأجيال ، ومن ذلك قول نفيل بن حبيب يصور ما وقع للأحباش في ذلك اليوم :

ألا حيث عنا يارديننا
تعمناكم مع الإصباح عينا
حمدت الله إذا أبصرت طيرا
وخفت حجارة تلقى علينا

وقول أمية بن أبى الصلت :
إن آيات ربنا ثاقبات
لا يمارى فيهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى
طل يحبو كأنه معفور

وقول عبد الله بن قيس :
كاده الأشرم الذى جاء بالفيل فولى وجيشه مهزوم
واستهلت عليهم الطير بالحنندل حتى كأنه مرجوم

وهكذا حمى الله بيته المحرم من عدوان الظالمين لأنه البيت العتيق الذى كان مصدر

الهدى والنور منذ رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل
عليهما السلام . فلما تغيرت الأحوال وعبد
العرب الأصنام وتركوا النور وتخبطوا في
الظلام شاء الله ألا يطول عليهم الأمد في هذه
الظلمات وأراد بهم الخير فحمى هذا البيت
من عدوان الأحباش ليعود إليه مجده التليد ،
ويتلأأ فيه النور من جديد على يدى محمد
ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم الذى ولد في
هذا العام . ثم بعمته الله بعد ذلك هداية ورحمة
للعالمين .



٣ - ((الحجر الأسود

يتطلع المسلمون - كلما أذن الإيمان في نفوسهم بالحج أو العمرة أو الطواف إلى ذلك الحجر الأسود الذي وضعه إبراهيم عليه السلام في الركن الجنوبي الشرقي للمسجد الحرام ثم تركه وديعة غالية حفظتها الأجيال والقرون وبالغت في حفظها حتى أن الإسلام الذي غير وبدل وهدم وأقام لم يتعرض لهذا الحجر بنقض أو هدم أو تغيير بل بقي في مكانه وبقي له قدره ومكانه فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل عليه ويقبله وكان المسلمون من وراء نبهم يفعلون مثل ذلك وهم جميعاً يؤمنون بأنه حجر لا ينفع ولا يضر وفي ذلك يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كلمته المأثورة حينما طاف بالبيت :

« والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك ».

وقد وردت آثار كثيرة في فضل هذا الحجر وفيها ما يدل على أنه من الجنة . ولا بد لنا أن نقف أمام هذه الروايات وقفة الفاحص المتأمل الذي لا ينخدع بالعاطفة ، والذي يبتغي الحق لوجه الحق وحده - « فقد روى : عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : إن الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما. ولولا أن الله طمس نورهما لأضاء ما بين المشرق والمغرب ولأبرءا من استلمهما من الخرس والجلد والبرص » وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم » ويدكر العلامة تقي الدين الفاسي في كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام رواية أخرى عن ابن عباس تتعارض مع الرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسه إذ يقول : « وإنما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى رينة الجنة وإنه لياقوتة بيضاء » :

وهذه الروايات وأمثالها تحمل في طياتها ما يهدمها لما يظهر فيها من تعارض ، ثم هي في ذاتها لا تقوم على أساس ولا تستهدف غرضاً سليماً ؟؟ فأما تعارضها فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس تفيد إحداهما أن الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم اسود من ذنوب بني آدم وخطاياهم ، وأما الثانية فلأنها تفيد أنه اسود قبل أن يطوف به أحد

وأنه كان ياقوتة بيضاء ثم غيره الله بالسواد حتى لا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة حينما يرون الحجر وهو ياقوتة بيضاء .

وأما أنها لا تقوم على أساس ولا تستهدف غرضاً سليماً فلأن قيمة هذا الحجر لا تزاد إذا كان من أحجار الجنة ولا تنقص إذا كان من أحجار الأرض وذلك بأن قيمة الشيء إنما تكون في الجوهر دون العرض وفي اللباب دون القشور ، فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب ، والخصى بين الآلىء الغالية هو الخصى بين الرمال السافية .

والكعبة المشرفة التي بنيت من أحجار جبل أبي قبيس هي بيت الله الذي يشع بالهدى والنور ويسمو على مافي الجنة من دور وقصور .

ومن حقنا الآن أن نتساءل : ما الحكمة في أن ينزل الله من الجنة ياقوتتين مضيئتين ثم يطمس نورهما ؟ إنهما إذن يفقدان خاصيتيهما الكريمة وينزلان إلى مستوى الخصى والرخام ؟ ؟ أو ما كان الأجدر أن يظلا ياقوتتين مضيئتين ليكونا من آيات الله الخالدة ؟ . وإذا قيل إن هذا الحجر كان أشد بياضاً من اللبن ثم سودته خطايا الناس وذنوبهم فلماذا لم يره أحد من الناس في زمن بياضه ؟ ولماذا لا يزداد اسوداده على توالي الأزمنة والعصور ؟ ؟

كل هذه الخواطر التي تجول في النفس تجعلنا ننظر إلى مثل هذه الروايات في حيطة

وحذر . وتشك كل الشك في نسبتها للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما أنه لم يذكر شيء منها في الصحيحين . وحينما ذكر الترمذى الحديث المروى عن عبد الله بن عمر قال إنه حديث غريب ؟ ؟ .

ولا بد لنا إذن أن نتلمس السبيل إلى رواية أخرى لا يتطرق إليها مثل هذا الضعف والوهن وتلكم الرواية هي ما ذكره ابن الأثير في تاريخه حيث قال : إن إبراهيم عليه السلام حينما أمره الله ببناء البيت الحرام قال لولده إسماعيل : فأطع ربك ، لقد أمرك الله أن تعينني على بنائه ، قال : إذن أفعل . فقام معه فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة . ثم قال إبراهيم لإسماعيل : ائتني بحجر حسن (أى متميز في لونه) أضعه على الركن ليكون للناس علماً فأخذ حجراً من جبل أبي قبيس وهو الحجر الأسود ووضعوه في موضعه فلما ارتفع البنيان كان إبراهيم يقف على حجر وإسماعيل يناوله وهذا الحجر هو مقام إبراهيم . وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل حتى رفعا قواعد البيت وأتما بناءه .

ومن هذه الرواية الواضحة وما يؤيدها من روايات ذكرتها أمهات الكتب التاريخية يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة وإنما هو من أحجار جبل أبي قبيس

وقد أراد الله أن يوضع في ركن من أركان
بيته المحرم ليكون علماً أى علامة يبدأ منها
الطواف وينتهى إليها . فلما أذن إبراهيم في الناس
بالحج كان الحجر الأسود موضع بدء الطواف
ونهايته وكان الطائفون يبدأون باستلامه وكأنما
يسجلون أنفسهم في هذا السجل الخالد ويقرن

ذلك في نفوسهم بأجل الذكريات عن النبي
الكريم إبراهيم فيزداد حبهم لهذا الحجر المبارك
وهم إنما ينظرون من خلاله إلى رب الحجر
ونخالق الحجر . ويوقنون إن إبراهيم الذي
وضع هذا الحجر في هذا المكان هو الذي
حطم الأصنام وقضى على عبادة الأوثان .



٤ - ((روايات عن إرهابيات النبوة))

وساء ساوة أن غاضت بحيرتها
ورد واردة بالغيظ حين ظمى

وقد علق الكتاب القدامى والمحدثون على هذه
الروايات وكان منهم من يؤيدها ومنهم من يعارضها
وينفيها ، ويعجبني مما جاء في هذا المجال
ما ذكره الشيخ محمد الغزالي في كتابه « فقه
السيرة » حيث نفي مثل هذه الروايات نفياً قاطعاً
فقال : « إن هذا تعبير غلط عن فكرة صحيحة
فإن ميلاد محمد كان حقاً إيداناً بزوال الظلم
واذ ثار عهده واندكأك معالمه ، وقد كانت
رسالة محمد بن عبد الله أخطر ثورة عرفها
العالم لتحرر العقلي والمادى ، وكان جند القرآن
أعدل رجال وعاهم التاريخ وأحصى فعالمهم
في تدويخ المستبدين وكسر شوكتهم طاغية
لأثر طاغية . فلما أحب الناس بعد انطلاقتهم
من قيود الفسق تصوير هذه الحقيقة تخيلوا
هذه الإرهابيات وأحدثوا لها الروايات
الواهية . ومحمد في غنى عن هذا كله فإن
نصيبه الضمخ من الواقع المشرف يزهدنا في
هذه الروايات وأشباهاها ..؟؟

ونحن نؤيد هذا الرأي السديد ونزيد على
ما قاله الشيخ الغزالي أن معظم الكتب الأصيلة
في التاريخ والسيرة وكتب السنة الصحيحة لم

تتحدث كتب السيرة عن الإرهابيات
التي وقعت قبل البعثة النبوية والتي كانت من
البشائر التي سبقت النبوة ، وقد ذاعت بعض
هذه الإرهابيات لدى الكثرة الغالبة من
الناس مع أنها لم ترد في كتب السيرة الأصيلة
ولم يتحدث عنها الرسول فيما صح من أحاديثه .

ومن ذلك ما يروى أن أربع عشرة شرفة
من ليوان كسرى سقطت ليلة الميلاد .
وأن نيران المجوس خمدت في هذه الليلة .
وأن بحيرة ساوة قد غاضت وانهدمت الكنائس
التي حولها في تلك الليلة « كذلك ، وأثارت
هذه الروايات شعور الشعراء وهزت مشاعرهم
فأخذوا يتغننون بها على توالى العصور .
ومن ذلك ما قاله البوصيري في قصيدته
المشهورة (بردة المديح) :

أبان مولده عن طيب عنصره

يا طيب مبتدأ منه ومختتم

يوم تفرس فيه الفرس أنهم

قد أنذروا بحلول البؤس والنقم

وبات ليوان كسرى وهو متصدع

كشميل أصحاب كسرى غير ملتئم

والنار نخامدة الأنفاس من أسف

عليه والنهر ساهى العين من سدم

تذكر هذه الإرهاصات فيما ذكرته من سائر
الإرهاصات والمعجزات التي رويت عن
الرسول صلى الله عليه وسلم ومثل هذه
الحوادث الخطيرة لا يمكن إغفالها لو كانت
قد وقعت ، ولو أن أعداء الإسلام رأوها
لما أنكروها بل كانوا يسجلونها في كتبهم التي
أرخوا فيها لتلك الفترة ويتلمسون لها أسباباً
أخرى ويحاولون أن يرجعوها إلى أسباب
كونية وعوامل طبيعية أو إلى غضب الآلهة
عليهم إلى غير ذلك من التعليقات التي تخرج
بها عن إثبات الفضل لمحمد ولدينه . . ولكن
شيئاً من ذلك لم يحدث ، وبهذا يصبح واضحاً
أن مثل هذه الروايات لا تحمل من أسباب
القوة ما يجعلنا نطمئن إليها ونرجح وقوعها .



هـ - « حادثة شق الصدر »

وتنحصر بالحديث لأنها كانت حدثاً هاماً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إذ وجهت الأنظار إليه وهو في هذه السن المبكرة .

وقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس حتى تتهيأ العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو في الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع خلف بيوتهم فعاد أخوه الطفل السعدى يقول لأبيه وأمه : ذلك أخى القرشى قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فهما يسوطانه (أى يقلباناه) . .

تقول السيدة حليلة : فخرجت وأبوه فوجدناه قائماً متمتعاً وجهه فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له : مالك يا بنى ؟ قال : جاءنى

رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني فالتسأ فيه شيئاً لم أدري ماهو .

وقد خشيت السيدة حليلة على محمد أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته إلى أمه آمنة وقصصت عليها النبأ العجيب فطمأنتها آمنة قائلة : إن لابنى هذا لشأنا ؟ فلم أكن أحس أثناء حملته بشيء مما تجده الحوامل وقد رأيت وأنا أحمله كأن نوراً خرج منى فأضاء لى قصور الشام ثم طلبت إليها أن تعود به إلى البادية مرة ثانية فعادت به حليلة . وظل معها حتى قارب الخامسة من عمره .

وتروى كتب السنة والسيرة وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج فلقد روى الإمام أحمد والإمام مسلم وقوع هذه الحادثة للرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج .



مناقشة هذه القضية

وبعد بعثته ويعرف الناس عنه أن عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره . وأن العناية التي أحيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص على يدى السيد المسيح عليه السلام هي العناية التي شقت صدر محمد ثم أرجعته في لحظات إلى حالته الطبيعية وهذا شأن المعجزات التي لا تخضع ولا ترتبط بالأسباب العادية .

ولا ينبغي بأى حال أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المخازيه لأن سياق القصة والتعبير بلفظ « جاعنى رجلان عليهما ثياب بيض » وكلمة « فأصبحناى وشقا صدرى » وفرار أخيه من الرضاة فزعاً مما رأى ، ومجيئ السيدة حليلة هي وزوجها ومقابلتهما لمحمد وهو ممتنع لونه وحكايته للقصة بنفس هذه الألفاظ . . كل ذلك يجعل الحقيقة في هذه القصة واضحة لدى عينين ويبعد بها عن الأسلوب المخازى بعد المشرقين .

وإذا كان بعض المستشرقين مثل سيروليم موير ودر منجم ينكرون هذه الحادثة لأنها تعتمد على رواية طفلين لا يصح الأخذ بقولهما فإننا نرى أن رواية الأطفال أقرب إلى الصدق وأبعد عن الكذب من رواية الرجال لأن الأطفال في مثل هذه السن الصغيرة لا يمكن أن يخلطوا الكذب ويتفقوا عليها بمثل هذه الصورة ،

وتختلف رأى العلماء في معنى شق الصدر فيذهب البعض منهم إلى أنه شق حقيقى وأنه معجزة وقعت مرتين : مرة قبل البعثة ومرة بعدها ، فأما قبل البعثة فلكى تكون إرهاباً ومقدمة للنبوّة وبشيراً بما ينتظر لمحمد من مركز عظيم ومقام كريم . وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف إلى المعجزات الأخرى التي كرم الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، والتي تؤيد صدقه في دعواه .

ويذهب البعض الآخر إلى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما هو من قبيل المخاز ويقصد به ما يفهم من قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك » فهى بذلك تكون إشارة إلى تطهير الرسول صلى الله عليه من الشوائب التي توجد في نفوس الناس والسمو به إلى درجة عالية من الطهارات النفسية والخلقية .

ولكننا نقول إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه لم تدعه العناية الإلهية غرضاً للوساوس التي تناوش غيره من سائر الناس ، وإنه لو لم يقم الملكان بشق صدره لما كان أبداً غرضاً للوساوس . بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوسوس دون أن تشق صدورهم . وإنما أراد الله بهذه الحادثة الفريدة في نوعها أن تتوجه الأنظار والقلوب إلى محمد في طفولته

الدقيقة ومع ذلك لقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الحادثة بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقصها على أصحابه وأخبر كذلك . عن المرة الثانية التي وقعت له في ليلة الإسراء والمعراج .

وإذن فالرأى الذى ترتضيه هو أن حادث

شق الصدر قد وقع بطريقة حسية وأنه حقيقة لا ريب فيها . وهو من الإرهاصات التى تبشر بنبوّة محمد وتسلط الأضواء عليه قبل النبوة إذ ليس هناك ما يمنع من ذلك ما دمنا نؤمن بالعناية الإلهية التى تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ..



٦ - « قصة الغرائيق »

قصة الغرائيق مشهورة وقد كثر فيها كلام الكتاب والباحثين المعاصرين ومن العجيب أن بعض المراجع الأساسية في التاريخ كالطبري في تاريخه وابن سعد في طبقاته . وابن الأثير في كتابه الكامل ، كل هذه المراجع قد أثبتت هذه القصة دون أن تعلق عليها بما يدل على بطلانها وفسادها مع أنها تحمل في طياتها ما يهدمها من أساسها ..

ومجمل هذه القصة أن محمداً صلى الله عليه وسلم لما رأى تجنب قريش إياه وإيذاءهم له ولأصحابه تمنى ألا ينزل عليه شيء من القرآن ينفرهم فجلس يوماً في إحدى أنديةهم حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى بلغ قوله تعالى : « أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى » . فقرأ بعد ذلك : « تلك الغرائيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » ثم مضى إلى نهاية السورة كلها وسجد في آخرها عند قوله : « فاسجدوا لله واعبدوا » ، وهناك سجد القوم جميعاً ولم يتخلف منهم أحد ، وأعلنت قريش رضاها عما تلاه النبي . وقالوا له : قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق ولكن آلهتنا تشتمع لنا عنده . أما إذ جعلت لها نصيباً فنحن معك وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبينهم وفشا أمر ذلك في الناس حتى بلغ أرض الحبشة فقال المسلمون الذين كانوا قد هاجروا إليها عشائراً أحب إلينا ورجعوا إلى مكة ...

وتضيف الرواية أن محمداً قد كبر عليه قول قريش : « أما إذ جعلت لآلهتنا شفاعته فنحن معك وأنه جلس في بيته حتى إذا أمسى أتاه جبريل فعرض عليه النبي سورة النجم فقال له جبريل : أوجئت بك بهاتين الكلمتين ؟ : مشيراً إلى (تلك الغرائيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى) فقال محمد حينئذ : لقد قلت على الله ما لم يقل . ثم أوحى الله إليه .

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لا تأخذوا بك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً . »

وبذلك عاد يذكر آلهة قريش بالشر وعادت لمناوئته وإيذاء أصحابه .. ، « تلكم هي قصة الغرائيق في جملتها وهي قصة واضحة الكذب ولغة الوضع فيها ظاهرة ولذلك لم تنطل على كثير من العلماء الثقات أمثال محمد ابن إسحاق والقسطلاني فقالوا عنها : إنها من وضع الزنادقة ولعل بعض المؤرخين الذين أثبتوها كانوا يؤمنون بفسادها ولكنهم وضعوها في كتبهم على أنها مجرد رواية مطمئنين إلى فطنة القارئ ويقظته . ولعلها دست إلى بعض هذه الكتب بعد موت أصحابها .

وحسبنا في إبطال هذه القصة أن تقرأ الآيات القرآنية في سورة النجم لرى فيها أبلغ الرد على ما تدل عليه الحملتان الموضوعتان وذلك حيث يقول سبحانه :

« أفرايتم اللات والعزى — ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى — تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » .

فكيف يعقل أن نحشر في هذه الآيات التي وضحت دلالتها على حقارة الأصنام وسفه من يقدسونها حملتان ترفعان من شأن هذه الأصنام وتجعلان لها شفاعاة مرجوة ؟ وكيف يمكن أن يسجد المشركون بعد أن يسمعوها هذه الآيات وفيها طعن صريح على آلهتهم حيث يقول الله عنها « إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » .

وأما أن محمداً قد كبر عليه قول المشركين إنهم معه مادام قد جعل لآلهتهم نصيباً من الشفاعاة فهذا كلام لا يتفق و جوهر الدعوة الإسلامية ومبادئها العامة التي تحارب الشرك بكل مظاهره والتي تقوم على التوحيد الخالص البعيد عن كل الوسطاء والشفعاء :

وأما أن الرسول قد أوحى إليه بعد ذلك بتلك الآيات الكريمة : وهي قوله تعالى :

« وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً ، ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » فلا شك أن هذه الآيات لا تؤيد مثل هذا الادعاء ولا تفيد وقوع مثل هذا الافتراء . لأن مفهوم الآيات أن الله قد ثبت رسوله على الحق فلم يركن إليهم لا قليلاً ولا كثيراً وقد حال الله بينه وبين الافتراء على الله والركون إلى أعداء الحق .

وأما ما ساقه هؤلاء الكاذبون الذين وضعوا هذا القصة من الاستشهاد على وقوعها بقول الله تعالى في سورة الحج :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ، ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم » . وتفسيرهم للتسنى بالقراءة . وتعزيزهم لهذا التفسير ببيت من الشعر يحكى قصة عثمان بن عفان رضى الله عنه قبل مقتله فيقول تمنى كتاب الله أول ليلة

وآخرها لا في حمام المقادر

فهذه الآية الكريمة لا ينبغي أن يفسر التمنى فيها بالقراءة لأن هذا التفسير بعيد كل البعد عن المقصود . وليس له في الأساليب العربية وجود إلا في هذا البيت وحده ، وفي هذا دليل واضح على أن هذا البيت قد وضع لهذا الغرض خاصة ...

هذا ولو أننا فسرنا التنى بمعنى القراءة
فإن معنى ذلك أن يلتقى الشيطان فى قراءة كل
نبي كلاً ما ليفتن به الناس ثم ينسخه الله بعد
ذلك، وهذا ما لم يقع للأنبياء الذين لم تنزل عليهم
كتب حتى يغير الشيطان فيها ثم ينسخ الله بعد
ذلك ما يفعله الشيطان ، على أن سنة الله فى
رسله وأنبيائه أن يؤلف حولهم القلوب فى مبدأ
دعواتهم بإجراء المعجزات والحوارق على
أيديهم بدل أن يمكن الشيطان من إلقاء الفتنة
ولإشغالها بين أتباعهم بنسخ ما ينزل عليهم
بسبب تسلط الشيطان فينفر الناس منهم
ويضعف الثقة فيهم .

والآية حينئذ تفسر على النحو الواضح
المألوف فى لغة العرب ، ويكون المعنى :
« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي

إلا إذا تمنى هداية قومه ألقى الشيطان فى
أمنيته : أى وضع الشيطان فى طريق تحقيق
أمنيته العقبات والعراقيل فينسخ الله ما يلتقى
الشيطان أى فيذهب الله ما وضعه الشيطان من
تلك العقبات بفضل إيمان المؤمنين وجهادهم
ثم يحكم الله آياته أى يظهر الحق ويرسى أسسه
ودعائمه والله عليم حكيم » .

وبهذا يتبين لنا أن قصة الغرائيق قصة
مختلة دست إلى بعض الكتب القديمة . وأنها
ليست هى السبب فى رجوع المسلمين من
الحبشة وإنما رجع هؤلاء المهاجرون من الحبشة
إلى مكة بسبب ما علسوا من إسلام حمزة
وعمر واعتقادهم أن إسلام هذين البطلين
سيعتر به المسلمون وتقوى شوكتهم .



٧ - « دور الملائكة في يوم بدر »

كان يوم بدر يوم السماء نزلت فيه الملائكة إلى الأرض لتثبت الذين آمنوا وتلقى في قلوب الذين كفروا الرعب . وفي ذلك يقول الله عز وجل : « لاذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » ويقول لاذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فتبثوا الذين آمنوا سألنى في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ..

وقصة لمداد الله للمسلمين بالملائكة قصة عجيبة قوامها قدرة الله الذى الأرض جميعاً قبضته والسموات مطويات بيمينه ، وقد اختلف العلماء فى الغرض الذى من أجله أمد الله المسلمين بالملائكة ، فذهب بعضهم إلى أن الملائكة إنما نزلت للقتال . فهى جيش من السماء وأنزله الله لإضعاف شوكة الشرك والظلمة فى الأرض . ويستدلون على ذلك بما روى من أن رجلاً من المسلمين كان يطارد رجلاً من المشركين فى يوم بدر فسمع صوت ضربة بالسوط فوقه فنظر إلى المشرك قد خر مستلقياً وشق وجهه فلما أخبر الرسول بذلك قال : ذلك من مدد السماء . ١١ وما روى

عن أبى داود المازنى حيث قال : تيممت رجلاً من المشركين لأضربه يوم بدر فوق رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه سيفى . وهم يقولون إن الأمر فى قوله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » أمر للملائكة بالضرب والقتال . ومعنى ذلك أن الله قد قضى بانزال الملائكة للضرب والقتال .. ١١

ويذهب البعض الآخر إلى أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت قلوب المؤمنين وتقوية الروح المعنوية لديهم وأنهم لم يشتركوا فى القتال ويذكرون فى الاستدلال على رأيهم حججاً وأدلة كثيرة .

أولها : أن الملك الواحد يستطيع لهلاك الكفار جميعاً فى لحظة واحدة فلماذا ينزل الله لقتال الكفار ألفاً من الملائكة ؟

وثانيها : أن الله لو قدر للملائكة أن تشترك فعلاً فى القتال لما كان هناك مزية للمسلمين الذين اشتركوا فى هذه الغزوة . ولما كان هناك داع للأخذ بالأسباب العادية فى هذا الوجود حيث يأمر الله المسلمين بإعداد العدة للقضاء على الكفار فيقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

وثالثها : أن المعركة حينئذ ستكون بين
فئتين : فئة قليلة وهم المشركون ، وفئة كثيرة
وهم المسلمون بعد انضمام الملائكة إليهم
لأذ يصبحون ألفاً وثلاثمائة ، بل إذا نظرنا إلى
ما جاء في سورة آل عمران حتى أن الملائكة
قد زادوا فأصبحوا ثلاثة آلاف . ثم زادوا
بعد ذلك حتى وصلوا إلى خمسة آلاف كما جاء
في قوله تعالى : « لاذ تقول للمؤمنين ألن
يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من
الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا
ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة
آلاف من الملائكة مسومين » . لاذ نظرنا إلى ذلك
وجدنا أن المسلمين مع الملائكة سيزيدون على
خمسة آلاف وحينئذ لا ينبغي أن يقال : إن
الفئة القليلة هي التي غلبت الفئة الكثيرة ..

ورابعها : أن الملائكة لو اشتركت في
القتال بهذا العدد الكبير ثم انجلى القتال
عن قتل سبعين من المشركين فحسب لكان
هذا موقفاً مخزياً للملائكة الله ولاعتبر ذلك
نصراً للمشركين وهزيمة للملائكة والمسلمين .
وبذلك يتبين لنا أن الملائكة لم تنزل للقتال

ولأنما نزلت لتثبيت القلوب وتقوية الإيمان
ومما يزيد هذا المعنى تأكيداً قول الله تعالى :
« وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم »
أي وما جعل الله إمدادكم بالملائكة ليساعدوكم
باشترائكم في القتال وإنما جعله الله للبشرى
لكم بالنصر ولتسكن وتطمئن بهذا الإمداد
قلوبكم حيث تدركون أن الله معكم فيزداد
إيمانكم وجهادكم ويتحقق النصر بأيديكم ،
ويكون الأمر في قوله تعالى : « فاضربوا
فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » أمراً
موجهاً إلى المؤمنين وليس موجهاً إلى الملائكة .
ويصبح المعنى المراد من الآية : لاذ يوحى
ربك إلى الملائكة أني معكم بمعاونتي فثبتوا
أيها الملائكة ثبتوا الذين آمنوا وشجعوهم
وأخبروهم بأن الله معهم وأنه سيلقي في قلوب
الذين كفروا الرعب . وإذا كان الأمر كذلك
فاضربوا أيها المؤمنون فوق الأعناق واضربوا
منهم كل بنان .

وبهذا يتبين لنا - بما لا يقبل الشك
والجدال - أن الملائكة إنما نزلت لتثبيت القلوب
ولكنها لم تشترك في القتال .



٨ - ((أزواج النبي))

الغامضة حتى لا تفضـل فيها الأفهام وتزل بها الأقدام . وقد نشطوا لذلك - والحمد لله - على توالي الأزمنة والعصور وبينوا الدوافع القوية التي كانت تحيط بزواج الرسول صلى الله عليه وسلم من كل واحدة من زوجاته الكثيرات ، والتي كانت تجعل هذا الزواج هادفاً إلى المصلحة العامة دون سواها ، وأقاموا حججهم على دعائم قوية من المنطق السليم . فتتبعوا تاريخ محمد وما عرف عنه من العفة والزهد في متاع الدنيا وزينتها . والطمهارة الكاملة في كل فترة من فترات حياته بشهادة أعدائه قبل أصدقائه ، وكيف مرت عليه فترة الشباب الحرجة دون أن يتزوج ، ولم يعرف عنه خلال هذه الفترة ما عرف عن الكثير من أترابه ولداته من التزق والطيش والانحراف العايب ، بل كان في كل أحواله وظروفه مضرب المثل في الخلق الكريم والمسلك القويم . وبعد أن تزوج من السيدة خديجة - وكانت قد بلغت الأربعين وهو سن يعف عنه الكثير من الشباب - كان محمد صلوات الله وسلامه عليه راضياً بها ومطمئناً لها وسعيداً بالمعيشة معها لأنه لا يطلب من الزوجة إلا الإخلاص والوفاء وقد وجد في زوجته خديجة الغاية

يثير هذا الموضوع أهمية بالغة لدى العلماء والمفكرين من المسلمين وغير المسلمين . وذلك لما يبدو فيه من شذوذ يدعو إلى العجب وغرابة تدعو إلى التساؤل : متى كان نبي الإسلام يتميز عن غيره من المسلمين ؟ ويبيع لنفسه ما يحرمه على غيره ؟ ولماذا يكون عدد الزوجات محدوداً بأربع لجميع المسلمين وتقيده الزيادة عن واحدة بشروط خاصة وفي ظروف خاصة بينما الرسول وحده هو الذي يشتم بحرية لم مطلقة في هذا المجال ؟

وقد انتهر المفكرون من الأجانب هذه الفرصة وحسبوا أنها نقطة ضعف تشين محمد صلوات الله وسلامه عليه فأخذوا يوجهون سهامهم المسمومة ويطلقون نيرانهم الرسول ويشوهون من تاريخه الخافل بالفضائل ويتولون : إنه رجل تسيطر عليه الشهوة الجنسية وتملك زمامه ، وإنه حينما وجد أن تقييد عدد الزوجات بأربع لا يطفى غلته ولا يرضى إربته أطلق لنفسه العنان كما يشاء فجسع إلى عصمته هذا العدد الضخم من النساء .

وكان من واجب المسلمين الذين يتصدون للكتابة عن تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم أن يجلبوا غواشي الشك في مثل هذه النقطة

المرجوة من الإخلاص والوفاء . وهكذا ظل الرسول صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة حتى بلغ من العمر خمسين عاماً . ثم توفيت السيدة خديجة فتزوج الرسول سائر نسائه في العقد السادس من حياته .

وفي مثل هذا العمر تضعف الغريزة الجنسية حتى لدى الأشخاص العاديين الذين لا يرهقهم التفكير فما ظنكم بمن حمل الأمانة الكبرى ووسدت له الإمامة الكبرى ومن استغرقت رعيته وأمته كل دقيقة من تفكيره وكل لحظة من لحظات حياته ؟ وماذا يمكن أن يبقى له من الطاقة حتى يصرفها في ملذاته أو يقسمها على سائر زوجاته ؟

ولكن هذا المنطق السليم لم يقنع هؤلاء السادرين في الغي والضلالة فظلوا على موقفهم من نبي الإسلام يطلقون حوله التهم الكاذبة والأراجيف الباطلة ، فإذا يمكن أن يقال هؤلاء مادام الحق على نبي الإسلام قد أكل قلوبهم ؟

ألا إننا سنقول لهم ويحق ما نقول :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد

ويشتكى الفم طعم الماء من سقم

إننا نقول لهم ذلك ماداموا لا يؤمنون بالقضايا المنطقية ، فإذا تجاوزنا ذلك كله فليس يعيبنا أن نقول : إن هذه خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم وقد أباح الله له

ذلك تأليفاً لقلوب القبائل التي يتصل بها برابطة النسب وحتى لا ينحصر شرف الاتصال بنسب رسول الله في دائرة محدودة ، وحتى ينتشر الإسلام في أكبر عدد من قبائل العرب ممن يرتبطون بمصاهرة الرسول ..

وحينما نزلت الآية الكريمة التي تقول : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » حينما نزلت هذه الآية كان لابد من تطبيقها على جميع المسلمين عدا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من يدخل في الإسلام يطلق ما يزيد على أربع من زوجاته إن كان تحت يده عدد أكبر حتى أن غيلان الثقفي أسلم وتحتته عشر نساء فتخلص مما زاد على أربع منهن .

وسواء أكانت هذه الآية قد نزلت قبل أن يزيد عدد نساء الرسول عن أربع أو نزلت بعد أن زاد عددهن فإن الثابت أن الرسول قد ظل غير مقيد بعدد خاص حتى نزل قول الله تعالى : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج » فلم يتزوج الرسول بعد ذلك وحينما لحق بربه كان في عصمته تسع نساء فإذا عسى أن يكون موقف الرسول من هؤلاء الزوجات ؟

إن أزواج الرسول هن أمهات المؤمنين أنزلهن الله هذه المنزلة السامية وقال سبحانه : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » . وقد جعل الله من كرامة الرسول

عنده ألا تزوج واحدة من نسائه من بعده
فقال سبحانه : « وما كان لكم أن تؤذوا
رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده
أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ». وإذا
كان الله قد حرم على نساء الرسول أن يتزوجن
من بعده فكيف يطلق الرسول النساء
الزائدات عن الأربع ويقضى عليهن بالترمل
أبداً بينما يباح الزواج لأية امرأة إذا طلقها
زوجها ؟

إن من حق زوجة الرسول وهي أم المؤمنين
أن تظل طول حياة الرسول لابساً هذا الثوب
الكريم الذي جعلها الله به تعويضاً لها عما يمكن
أن يصادفها من حرمان لا تتعرض له غيرها
من سائر زوجات المسلمين بعد وفاة أزواجهن
وقد قضى الله بذلك حيث قال لرسوله :
« لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن
من أزواج ولو أعجبك حسنهن » فهذه الآية
تقضى ألا يزيد الرسول عدد زوجاته وألا يبدل
زوجة بأخرى مهما كانت الظروف والأحوال.
ونعود فنقول لهؤلاء المرجفين الذين
يتهمون النبي صلى الله عليه وسلم بأنه رجل
شهواني : رويدكم أيها المضللون وحسبكم « إن
الرجل الشهواني لا يطيق أن يصبر على عدد
معين من النساء لأنه يرى لذته في أن ينتقل
من زوجة إلى زوجة فيقضى مع كل واحدة وقتاً
من الزمن ثم يبحث عن أخرى ليقضى معها

الوقت الذي يليه فترى الرجل منهم إذا أراد
أن يتزوج بامرأة أعجبه حسننها وكان تحت
يده أربع نساء يطلق الرابعة ثم يتزوج من
يشاء وتظل هذه العملية تتكرر كلما صرخ
سعار الشهوة في نفسه وبهذه الطريقة كان
يستطيع أن يتزوج بالعشرات من النساء ،
بينما لا يزيد عدد من يظللن في عصمته عن أربع
نساء .

وهكذا يسفر الصبح لدى عيني . وتظهر
لنا ساحة الرسول صلى الله عليه وسلم مبرأة
من الشوائب والعيوب بعيدة كل البعد عن
الشهوات الدنيا متوجة بالطهر والعفاف
ومكارم الأخلاق .

* * * *

وبعد ، فهذه بعض القضايا من السيرة
النبوية وهي تلك التي تعرضت للأباطيل
والمفتريات وباء بإثمها بعض الناس سفهاً
وبغير علم أو كذباً وبهتاناً وارضاء لقلوبهم
الحاحدة ونفوسهم الحاقدة . ولا يزال الكثير
من قضايا السيرة النبوية في حاجة إلى توضيح
وتصحيح . وأسأل الله أن يوفقنا لأداء هذا
الواجب حتى يعرف الأعداء والأصدقاء مدى
ما تزخر به هذه السيرة العطرة من القيم
الإنسانية والمثل الأخلاقية .

هذا ومن الله العون وبه التوفيق .

محمد الطيب النجار

عضو المجمع

دور مؤسسات التعليم العالي في التدريب والبحوث في مجال الدراسات الإسلامية للدكتور حسن الفاتح قريب الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام
على سيدنا محمد وعلى آله عدد كمال الله وكما
يليق بكماله .

الفتحة

مفهوم التدريب والبحث في مجال الدراسات
الإسلامية العرفية خاصة والإنسانية عامة
وقد صنفنا تبعاً لذلك العلوم الإسلامية
من حيث التدريب إلى قسمين نظري بحث
وعمل . ثم فصلت القول في الدور
الذي ينتظر من مؤسسات التعليم العالي في
التدريب والبحوث من حيث اختيار
الأستاذ وتأهيلة داخليا وخارجيا ، وتوفير
ما يحتاج إليه من كتب ووسائل اطلاع ونشر
ومناخ علمي وديني ، يمكنه من أداء مهمته .

بحث تناولات فيه
المفهوم الحقيقي ثم العرفي

هذا

لدراسات الإسلامية ، وقد أوضحت
فيه أن الإسلام باعتباره نظاما شاملا
لكل شؤون الحياة — كان قد جعل
كل العلوم الإنسانية فرض كفاية ، غير
أن البعض أخيرا جعل للدين علوما وللدنيا
أخرى ، ثم عاد فجرد ما تبقى من علوم
الدين — مما كان لها من روح وما أريد لها
من عمل فصارت تبعاً لذلك دراسات
أكاديمية نظرية . وتناولت كذلك تحديد

* ألقى في الجلسة السادسة يوم السبت ٢٦ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٤ من مارس (آذار)
سنة ١٩٨٩ م .

وتحدثت عن المناهج الحالية وبعدها عن
الفكر الإسلامى واقترحت تعديلا لها يناسب
حاجة البلاد ووضعت تصورا يعين الدولة
على سد حاجتها من القوى العاملة فى شتى
مجالات الحياة وأبنت كذلك أهمية الجانب

الروحى والعملى والإنسانى والصحة
والإدارى .

والله ولى التوفيق .

* * *

الباب الأول

مفهوم الدراسات الإسلامية

(١) المفهوم الحقيقي للدراسات الإسلامية :

الإسلام كما هو معاموم ، منهج شامل متكامل للحياة ينظم شؤونها العلمية والعملية والسلوكية ، وهو يتولى الفرد تربيته وتدريبها وسلوكها من حيث كان نطفة إلى أن يلتقى الله فى دار البقاء حيث الجزاء المناسب ، لاعلى العمل . بل بالفضل أو العدل ، (وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) .

والإسلام الذى حث على التعليم فى أول آية أنزلها على رسوله عليه الصلاة والسلام ، هو الإسلام الذى ربط التعليم بالتقوى ، حيث قال (واتقوا الله ويعلمكم الله) . . . ووصل بين الرفاهية التى ينشدها الفرد وبين ذكره تعالى فقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكى ، ونحشره يوم القيامة أعمى) ووعد بتدليل كل عقبة يقابلها الفرد فى علم أو تدريب أو غيره إذا ما التزم بمراعاة الخالق وتقواه . وتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم وأطاعه وأحبه وعن كل ذلك يقول المولى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) ويقول (لقد كان لكم فى رسول

الله أسوة حسنة) ويقول (من يطع الرسول فقد أطاع الله) ، يقول (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) ويقول (قل إن كان آباؤكم وأبنائكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)

والإسلام بالإضافة إلى ما تقدم هو دين التربية العملية ، الذى يجعل مهمة الإشراف على كل عمل تدريبي يقوم به الإنسان هو للمولى أولا ، ثم للرسول ثانيا ، ثم للجماعة المؤمنين ثالثا ، حين يقول : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

الإسلام بهذا المفهوم هو البوتقة العامة لا لعمل الأفراد مجتمعين ، وإنما لعمل كل فرد على حدة ، إذ يقول تعالى : (لقد أحصاهم وعدهم عدداً وكلهم آتية يوم القيامة فردا) . . . ومن ثم أجمع العلماء على أن تعلم كل علم نظرى أو عملى فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ،

بل لقد رتبوا العلوم جمعاء حسب أهميتها وفق معيار دقيق ، وميزان حساس . يستطيع به الناس في كل عصر أن يميزوا بين ما هم في حاجة ماسة إليه ، وبين ما يمكن استغنائهم عنه ولو مؤقتا . وقد بلغ من علمهم وإنصافهم ومساواتهم في العلوم ، أن حكموا على أهمية كل علم منها وفق النفع الذي ينتظر منه . . . فما كان أكثر نفعاً ، وأدوم زمناً هو الذي يتولى الصدارة ، ومثال على ذلك قالوا إن كان علم الطب إنما ينتفع به عملياً لا وقائياً ، في فترات الأمراض خاصة فأن علم الفقه إنما ينتفع به عملياً في فترات الصحة والمرض ، وفي الحياة العاجلة والآجلة ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يمنحوه هو وعلم العقيدة الصدارة ، وقد جاء عن الأخير قولهم :

أول واجب على من كلفا

ممكنا من نظر أن يعرفا

الله والرسول - بالصفات

مما عليه نصب الآيات

ذلك هو المفهوم الحقيقي للدراسات الإسلامية ، وقد بنى عليه العلماء فتواهم - بتحريم موقف من يقبح في نظر الناس علماً ولا لشيء إلا لأنه يجهله ، أو يقع خارج دائرة معرفته وإدراكه . وحصر بعضهم المعرفة على اختلاف أنواعها في أمرين ،

حيث قال ، العلم علان : علم الأديان ، وعلم الأبدان ؛ وكلاهما علوم إسلامية . على أنه قد مر على الناس حين من الدهر أخرجوا منه ، عن نطاق العلوم الإسلامية ، كثيراً من المواد ، كالطب بأنواعه ، والهندسة ، والزراعة ، والبيطرة ، والعلوم ، والفلك ، والاقتصاد ، والفن ، وغيرها وهما هم أولاء بأنفسهم ، وبعد أن اكتمل وعيهم الإسلامى يشهدون مولد الكليات والشعب الإسلامية لكثير من المواد التي ظنوا أن بينها وبين الإسلام ردماً لا يستطيعون أن يظهروه ولا يستطيعون له نقباً ، ولكنها رحمة الله وقد غشيت الأمة الإسلامية في عهد صحوتها ، وجعلت الردم دكا وكشفت عن العلماء غطاءهم فإذا بهم يلحقون بالركب الإسلامى ، ويتصدر بعضهم بثقواه وعلمه ركب من سبقوه فيه تحقيقاً بذلك قوله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) هذا وأنا لاذ أكتب الآن عن مفهوم الدراسات الإسلامية لن أتعدى في بحثي هذا دائرة - الحجر العلمى أو الحبس العرفى الذى كتب على الدراسات الإسلامية أن تنزوى فيه حتى يقبض الله لها من يحزرها منه ، ويفتح لها المجال لتنظيم كغيرها في الميدان الفسيح للحياة .

(ب) المفهوم العرفى للدراسات الإسلامية :

ينحصر المفهوم العرفى المؤقت للدراسات الإسلامية في دائرة مواد بعينها ، يدور معظمها حول ما يحتاج إليه الناس في المفهوم

الضيق لمعرفتهم بالله وعبادتهم له وفيما يعرف بالأحوال الشخصية ، ويدنون على ذلك موقفهم من أمر التدريب وأماكنه فهناك من ينكر صلة التدريب بالعلم الإسلامية ، وهناك من يجعل الزوايا له مكانا ، والسبحة له أداة ، وقد يشترط بعضهم لأكمال مظهر التدريب وربطه بالبيئة لبس الزى القومى له ، من جلابية وعمة وغيرها . لقد أماتوا بهذا المفهوم دين الله ، وأشتركوا مع غيرهم فى البكاء عليه ، وانتحوا أخيراً عن الدين ومؤسساته وأعلامه جانبا ، فلم يعودوا يتذكرون الدين إلا حين يستمعون إلى خطبة أو موعظة أو يرون شيخا تقياً أو رجلا عالما .

(ج) التحديد العرفى للمواد الإسلامية :

تكاد المواد المذكورة أدناه - تكون هى الممثل الشرعى للمواد الإسلامية فى عصرنا الحاضر أعنى :

١ - القرآن وعلومه .

٢ - التفسير .

٣ - الحديث وعلومه .

٤ - الفقه ، وما يتصل به من أصول وتأريخ تشريع ، وفقه مقارن وما إلى ذلك .

٥ - العقيدة وما يتصل بها من علم الكلام ، والفرق الإسلامية ، والملة والنحل .

٦ - التصوف وما يتصل به من علم الأخلاق والفلسفة .

وقد يلحق بالمواد أعلاه أو يحذف منها أحيانا مواد أخرى مثل :

١ - التأريخ الإسلامى ، بما فى ذلك السيرة النبوية الطاهرة والآثار .

٢ - الاقتصاد الإسلامى .

٣ - الفن الإسلامى .

٤ - الأدب الإسلامى

(د) مفهوم التدريب :

لا أخال هناك من ينكر أهمية التدريب وفائدته ، غير أن الناس قد يختلفون فى مفهوم التدريب فيصف البعض أقسامه بما يتناول التدريب :

١ - الفكرى .

٢ - العملى ويشمل الرياضيات بأنواعها .

٣ - الروحى ، ويشمل الخلق والسلوك .

٤ - الفنى ويشمل كل مايكسب المهارة ، والدربة ، والدقة ، واكتساب التجارب سواء أكان ذلك عن طريق الموهبة الذاتية ، أو المكتسبة أو المساعدة من الآلات وما شاكلها .

ويصنف آخرون التدريب بجعله قاصراً على الناحية الفنية فقط ، ولكنهم مع ذلك

يعودون فيخرجون منه الدربة الفنية التي يكتسبها المدرس من درسه ، والتاجر من عمله ، بل إنهم ليضيقون نطاق التدريب أحيانا فيبعدون عنه كل تدريب لا تكون الآلة فيه طرفا ، وكأنهم بذلك يقسمون العلوم إلى :

١ - علوم نظرية بحتة .

٢ - علوم عملية غير آلية .

٣ - علوم عملية آلية .

ويحار أصحاب هذا الاتجاه في تصنيف العلوم النظرية التي بدأ أصحابها يستخدمون الآلة لتطوير الأداء فيها مثل علوم الاقتصاد ، والتجارة ، واللغات ، بل والقرآن الكريم أيضا الذي أدخل هو والحديث النبوي في مجال الحاسوب (الكمبيوتر) فجاءت النتائج الأولية فيها مذهشة معجزة .

ويتردد البعض كذلك في تصنيف أصحاب الخبرة الفنية ممن يستخدمون آلات محلية أو غير عصرية ، وغالبا ما يطلق على هؤلاء أصحاب الصناعات القومية .

أخلص من كل ماتقدم بأن مفهوم التدريب ليس موضع اتفاق بين العلماء إذ لا يوجد حده فاصل يميز بين العلوم^(١) . وبناء عليه فمستخدم لفظ التدريب فيما يلي في كل ممارسة عملية وسأصنف المواد الإسلامية العرفية السابقة تحت ما هو نظري بحت ، وما هو عملي سواء أكان خالصا أم مشتركا . مستخدما في ذلك المنهج الإسلامي في المعرفة الذي يخالف في كثير من قضايا المنهج الأرسطي حيث أن الأول يُستريحُ للتجربة مكاناً لا تتيحها له الحضارة اليونانية التي أنتجت المنطق الأرسطي^(٢) .

(هـ) مفهوم البحث :

البحث العلمى هو الجزء الخلاق ، والمبدع في العمل الجامعي ، وهو الذى يعمل على تنمية المعرفة ، وإثراء الفنون الإنتاجية ، وزيادة رصيد التراث العلمى الحضارى للإنسانية ، وهو الذى يمهّد الطريق لعملية التقدم والتطور في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية ، والحضارية علما بأنه إذا توقف البحث العلمى أصيبت جميع جوانب الحياة بالجمود ، والتصلب وعجزت المجتمعات عن تحقيق أى تطور أو تقدم . . . وهو جزء مهم وحيوى من

(١) دكتور محمد حمدى النشار : الإدارة الجامعية التطوير والتوفيق ، طبع الجهاز المركزى للكتاب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية بالقاهرة ١٣٩٦ ١٩٧٦ م صفحة ٢٦٢ .

(٢) الدكتور على سامى النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ص ٣٨٠ .

عنهم من ناحية أخرى . وهو كذلك يحتاج إلى أعداد الباحث باعتباره إنساناً ، متكامل البناء عقلاً وروحاً ، بحيث يكون مسلحاً بالعلم والمعرفة متحلياً بالخلاق والقيم ، مجسداً للمعرفة المثلى في منهجه ، وسلوكه ، ومعاملاته ، مدرباً على الخير وحسن تصرف الأمور . وعلاج القضايا ، والمشاكل . متخذاً له في الحياة أسوة وفي الطريق مناراً ، وللدرب غاية ، مدعماً مسيرته الخيرة بمشرد تربوى ، ومارب إعدادى ، وصحبة تحبب إليه عزائم الأمور ، وتصرفه عن سفاسفها ، مدركاً أن العلم مهما سمت مكانته ليس مقصوداً لذاته بل لما يؤدى إليه من كل ما يدخل في الإطار العام الذى حددده المولى بقوله : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

البحث في حقيقته تسجيل كتابى لفلسفة تربوية هدى إليها الدارس إما إلهاماً أو إرشاداً ، إذ العلم الإنسانى كما يقول الفلاسفة^(١) إنما يحصل عن طريقين أحدهما التعلم الإنسانى ، وهو الطريق المعهود ، والسلوك المحسوس الذى يُقرُّ به جميع العقلاء .

الثانى التعلم الربانى أو اللدى الذى أشار إليه المولى بقوله : (وعلمناه من لدنا علماً) ، وهو الطريق العلمى الذى سلكه

رسالة مؤسسات التعليم . . به تتحسس طريقها نحو العمل الأفضل في المستقبل ، وبه كذلك تتوصل إلى صواب أو خطأ تجربتها في الماضي . . إنه المعيار الذى يعتسده عليه العلماء في تنمية أفكارهم ، وهو الوسيلة التى يقتصدون بها من توزيع جهودهم وتشئت أفكارهم ، والتثبت من فعالية أدائهم ، والبحث كما يحتاج إليه العالم العمل يحتاج إليه العالم النظرى أنه النور الذى لا يكاد يخلو منه ميدان ولا يستغنى عنه إنسان . هو الفكر الإنسانى مجسداً ، والخلفاء الخلاق ماثلاً . أمام العيان . . إنه الحدود الفقرى ، والركن الأساسى في قوام كل جامعة أو معهد ، أو مؤسسة أو غيرها . . . ولأن أمكن أن تستغنى الجامعات عن عمالية تدريس الطلاب فإنه لا يمكنها بحال الاستغناء عن البحث . . بل إنه إذا انحرف الفكر ، وفقد ثقته في جدوى البحوث ، احتاج في إثبات دعواه إلى بحث . . ومن ثم كان البحث لازماً لكل مؤسسة علمية ، سواء أحسن القائمون بها إدارتها ، أو أساء الإداريون بها توجيهها .

على أن نجاح بحث - أى بحث - جامعى أو فوق جامعى ، يحتاج إلى تعاون وثيق بين العلماء ذوى التخصص المشترك من ناحية ، وبينهم وبين الإدارات المسؤولة

(١) راجع رسالة حى بن يقطان واسال وباسال لابن سينا والرسالة اللدنية للغزالي ص ١٦ - ١٧ والأحياء ج ٣ ص ١٩ ومناهج البحث عند مفكرى الإسلام للدكتور على سامى النشار الصفحات ٣١٧ - ٣٥٢ والصراع للفكرى حول الفلسفة للدكتور حسن الفاتح طبع دار الجيل بيروت .

الانبياء والرسل والأولياء ، ولهذا الطريق منهجان يتم الوصول إلى المعرفة في أولها عن طريق التعلم الذي يشبه في بعض جوانبه ما سبق أن ذكرناه بينما يركز المنهج الآخر على التفكير . . والتفكير في الباطن كما يقول الإمام الغزالي في (الرسالة الدنية^(١)) - بمنزلة التعليم في الظاهر ، فإن التعليم استفادة الشخص من الشخص الحزئي والتفكير استفادة النفس من النفس الكلي ، والنفس الكلي أشد تأثيرا ، وأقوى تعالما من جميع العلماء والعقلاء .

هذا وبما أن الإسلام هو تناسق بين النظر والعمل ، يقيم نظرية فلسفته في الوجود ، ولكنه يرسم أيضا طريقا للحياة العملية - فإنه بهذا الاعتبار يخالف المنهج الأرسطي الذي يقسم المعرفة إلى نظرية وتجريبية . إنه كما يقول الدكتور على سامي النشار - منهج استقرائي يقوم على التجربة ، وتنظيمه - قوانين الاستقرار ، ومن ثم فإنه هو لاغيره المعبر عن روح الإسلام مادام يعتمد على التجربة ، والتجربة هي إحدى ركائز الإسلام الأساسية^(٢).

(٩) تصنيف العلوم السابقة من حيث التدريب:

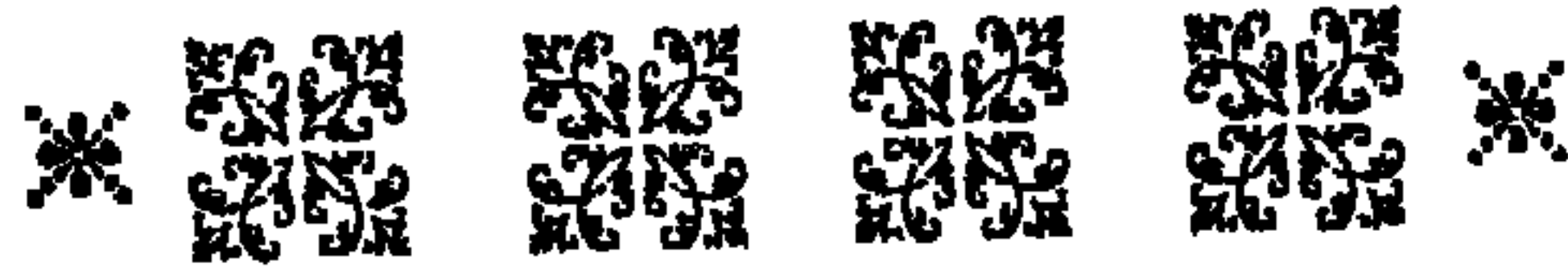
هذا والعلوم السابقة ولمن صنف تحت ما يصطلح عليه باسم العلوم النظرية فإن بعضها يشتمل على جوانب عملية وعلى الأخص مادتي الفقه والتصوف ، فقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يصلوا كما رأوه يصل ، ودعاهم إلى ممارسات عملية في الحج ، وفرض عليهم بناء على التوجيه الألهي صيام شهر كامل ، ودعاهم إلى صيام غيره من الأيام ، كما دعاهم إلى معاونة بعضهم البعض في كل عمل يقومون به ، حتى لقد بلغ من عدل الإسلام ومساواته بين الناس أن أمر بمعاونة الخدم أو العمال أيا كان نوع العمل الذي يؤدونه ، فقال إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ولا تكلفوه ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فاعينوهم . وقد صنف رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذه الأعمال في باب العبادة واعتبرها صدقة ، وأسماها المتصوفة فتوة وجعلوا ممارستها واجبا على المريء أدائه بأقبال وحب وشغف ، وتأسوا بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحضر مع أصحابه الخندق ، ويجاهد معهم الكفار ، ويصعد وينزل من غار

(١) الغزالي : الرسالة الدنية ص ١٦ - ١٧ .

(٢) الدكتور على سامي النشار : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، واكتشاف المنهج العلمي في للعالم الإسلامى ، طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م ص ٣٧٩ - ٣٨٠ .

حراء ، ويطوف ويسعى ، ويهرول بين
العمودين الأخضرين لتأكيد قوة المسلم
وصلابته وتدريبه العمل على المشاق ، وسمح
الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين
بالإشارة بالآلة لتقبيل الحجر الأسود ،
واعتبر حجهم متوقفا على الوقوف بعرفات
وحجب إليهم صعود جبل الرحمة ، وأمرهم

برمي الجمرات وأجاز للمرضى والزمنى
وغيرهم أن يطوفوا ويسعوا وهم على الآلات
محمولون ، وجعل وسيلة التحلل من شعائر
الحج استخدام الآلة للحلق ، وربط ذلك
بالعبادة ، وحذر من لا يعمل بالآلة أو
بغير الآلة من أن يجيء يوم القيامة وفي وجهه
نكتة المسألة وروى عنه أنه قال كل عمل
الخير صدقة .



الباب الثاني

دور مؤسسات التعليم العالي في التدريب والبحوث وفق التصور السابق

مدخل :

إن الدولة وقد أنشأت للبحوث مجالس قومية وللتعليم العالي مؤسسات تربوية ، وللتدريب أقساماً فنية فإنها بهذا المفهوم لا تحصر خدماتها في ميدان خاص ، وإنما تفتح نفسها على المجتمع لتؤدي من خلال كل مؤسساته - بالتنسيق المشترك بينها - ما يناط بها من دور ، وما ينتظر منها من واجب .

ومعلوم أن مجال الدراسات الإسلامية - كغيره - مجال واسع يقوم فيه الكل بأداء دوره سواء أكان أستاذاً بالجامعة أم باحثاً بغيرها ، وسواء أكان طالباً بذات الميدان ، أم راغباً في العلم بخارجه ، وما قيل عن البحث يقال عن التدريب ، إذ هو كغيره ليس قصراً على جهة دون جهة ، ولا على عمل دون آخر ومن ثم فإن ما ينتظر من الدولة أدائه ينحصر بإيجاز في الميادين الآتية . الميدان العلمي ، الميدان الروحي ، الميدان الصحي ، الميدان العملي ، الميدان للترفيه ، الميدان الإنساني الميدان الإداري .

١ - الميدان العلمي :

(١) اختيار الأستاذ أو الباحث :

يتصدر ركب هذا الميدان الدقة في اختيار

الأستاذ المتخصص المؤمن بربه ، العامل بدينه ذلك أن الأستاذ هو كنز التعليم العالي الحى ، وقلبه النابض الداخر بالمعارف والخبرات ، الذى يستطيع - إن أخلص - أن يبذل من ذات نفسه بما يجعل التعليم العالي ناجحاً ومحققاً للغرض المنشود منه في الداخل والخارج .

والأستاذ بما له من وسع إدراك وتفتح ونفاذ بصيرة ، وفكر ثاقب ومعرفة واسعة وخبرة فنية - يستطيع أن يوسع على طلبته وأمتة آفاق المعرفة ويكشف لهم عن الكنوز العلمية بما يلائم حضارتهم وتطلعاتهم خاصة في ظل الشروع الإسلامى ليواكبوا الحضارة العالمية ويسهموا فيها بنصيب تفخر به الأجيال ويعتز به الخلف .

والأستاذ كذلك هو حجر الزاوية في هيكل البناء العلمى لمؤسسات التعليم العالي . عليه يعتمد نشر المعرفة وتعميم الثقافة العامة وإشاعة السلوك العلمى والتفكير المنطقى ، وبه تنهض مؤسسات التعليم ، ويرتفع البناء الحضارى للأمم . . . وهو بالإضافة إلى ماسبق النموذج الحى للسلوك المثالى الحسن ، وهو القدوة الصالحة للمجتمع

في مجال القيم الخلقية ، والتربية السلوكية .
 إن اختيار الأستاذ الصالح يعني اختيار
 الحيل الصالح ، وبناء الأمة السليمة التي
 أراد لها المولى أن تراث الأرض ومن عليها
 إنه العلم والتربية والخلق والإحساس
 والشعور . . إنه الإنسان الذي يتفاعل مع
 ربه ، مدركا حقيقته كعبد له وخادم ، ومع
 الخلق مدركا دوره معهم كأخ لهم يرحم
 صغيرهم ، ويواسي كبيرهم ، ويعين ذا
 الحاجة منهم . . . إنه الفرد الذي لا يدخر
 في العبادة لله طاقة ، ولا في التعامل مع
 البشر جهدا . . إنه المعلم الذي يدرك أن
 التربية ليست كلمات يلوكها ، أو ألفاظا
 ينمقها ، أو أقاويل يؤلف بينها ، أو أفكاراً
 يرتبها ، ولكنها بالإضافة إلى كل ذلك
 سلوك ومنهج حياة ، وسيرة عملية يراعى
 في كل مرحلة منها خالقه الذي يعلم خائنة
 الأعين وما تخفي الصدور .

إن تأهيل الأستاذ ينبغي أن يراعى
 فيه الكفاءتين العلمية والعملية ، إذ التعلم
 الاستثمار العام هو تعليم يتعدى ذات
 الفرد إلى غيره . . هذا والتأهيل المطلوب
 لاتحده شهادة أو تعوقه ترقية ، فإن احتاج
 إليه الباحث وهو في أول طريقه للإعداد
 والتدريب ، فإن الأستاذ ، والأستاذ
 المشارك وغيرهم يحتاجون إليه لمتابعة التطور
 ومواكبة التقدم — سواء أكان ذلك عن
 طريق الأجازات الدراسية أو الزيارات .

العلمية أو الدراسات الميدانية أو التبادل
 الثقافي ، أو غيره .

(ب) تأهيل الباحث :

لئن كان التعليم الجامعي ، أو مايقاربه —
 هو القدر المشترك بين كل المؤهلين فإن
 الأعداد المطلوب في مؤسسات التعليم العالي
 هو مايسمو على ذلك القدر ويفوقه ، سواء
 أكانت نتيجته دبلومات أو إجازات أو
 ماجستير أو دكتوراه أو أستاذه أو متابعة
 للتقدم ومواكبة للتطور ، أو غير ذلك .

والإعداد للأستاذ كما يكون في البيئة
 الأصلية أو الماثلة ، يكون كذلك في البيئات
 العلمية والحضارية والمناخية والدينية المختلفة
 عاماً بأن للإعداد أيا كان داخليا أم خارجيا
 منفعه ومضاره .

(ج) فوائد الأعداد الداخلي :

١ — معايشة الباحث للبيئة المحلية التي
 يتفاعل بها ومعها ، إذ الباحث المبتدئ
 الذي ينفصل عن بيئته ، ولايتعرف عليها
 إلا عبر الدراسات الميدانية القصيرة
 والزيارات العلمية ، هو باحث ناقص
 الثقافة ، قليل الخبرة ، ضعيف المحصول
 العلمي ، فج المعلومات .

٢ — معالجة الباحث لقضايا الوطن ،
 حيث أن وجوده به يجعله أكثر إحساسا بما
 تعانيه أمتة من مشاكل ، وما يلائم طبيعة
 أهله لها من حلول .

٣- ثبات الباحث على عقيدته ونهجه
الساوكة المستقيم ، حيث أنه في وطنه
لا يتعرض لتحذ فكري أو سلوكي ، يحيد
به عما ألفه مما ينكره دينه وعدم تعرضه
للفتن التي ألفتها المجتمعات غير الإسلامية
مثل الجلوس في مجالس الخمر ، -ورؤية
الفتيات العاريات ، وتعرضه للمطعومات
المحرمة أو المكروهة .

٤- سهولة ممارسة لأداء الصلوات
التي يجد الباحث مشقة في أدائها ، - والاستعداد
لها في المجتمعات غير الإسلامية .

٥- إنصرافه عن المغريات المالية التي
ربما دفعه إلى التفكير الجاد فيها ما يجده بالخارج
من مظاهر الترف والبلذخ التي يستمتع
بها معظم الأوروبيين .

٦- هذا إلى أن التجربة التي يخوضها
الوطن في سبيل إعداد الباحثين تكسبه
خبرة ودربة وتمكنه من مساهمة التطور
العلمي بإعداد الوسائل التي تسهل على الباحث
أداء مهمته . . أضيف إلى ذلك أن وجود
الباحثين بالبلاد ، وتنوع خبراتهم وأبحاثهم
وفهمهم يمكن الوطن من الاستفادة منهم في
شتى مجالات المعرفة فكريا وأداء .

(د) فوائد الاعداد الخارجى :

١- متابعة التطور العلمى والفكرى
عن كُتب :

٢- توثيق العلاقات الشخصية والعلمية
والثقافية مع المؤسسات العلمية .

٣- التعرف على المشاكل التي تعاني
منها المجتمعات غير الإسلامية ومتابعة
وسائل معالجتها توسيعا للمدارك .

٤- إكتساب لغة جديدة أو التعمق فيها
لمن سبق لهم إلمام بها .

٥- الاحتكاك بالأفكار المناوئة للأديان
عموما وللإسلام خاصة .

٦- تبليغ الدعوة الإسلامية لغير المسلمين
عن طريق القدوة الحسنة أو الفكر الثاقب
النير ، أو الاحتكاك الثقافى المثمر .

هذا ولكى يؤدي التدريب الخارجى
الثمرة المرجوة منه للفرد وعقيدته من ناحية ،
وللأمة التي يعايشها من ناحية أخرى ،
أرى أن يسبق الأعداد الخارجى (كورس)
مكثف أو دورة تدريبية قصيرة يلم فيها
الدارس إلاما عاما بموقف الإسلام من
القضايا التي تمس حياته ودينه من مثل :

١- العقيدة الإسلامية واليهودية والنصرانية
عامة .

٢- طعام أهل الكتاب .

٣- الاختلاط ومضارة وحدوده .

٤- الزى المناسب للرجل والمرأة .

قد يتعرض له الباحث أثناء غربته - لتكون مرجعا له ولغيره .

(هـ) الجمع بين المميزات السابقة :

هذا وحتى يمكن الجمع بين فوائد الإعداد الداخلى والخارجى ، نرى أن تعمل الدولة على إيفاد الباحثين أساتذة كانوا أم طلاب دراسات عليا - إلى الخارج ، فى بعثات ومهمات وزيارات عن طريق اللقاءات ، والمؤتمرات العلمية ، والاتفاقيات الثقافية ، وغير ذلك من الوسائل التى تخلق لهم بها قاعدة متينة يمكن الارتكاز عليها فى تبادل المصالح مع العالم الخارجى ، وتسهم فى مهمة نشر الفكر الإسلامى ، والدعوة له ، بعد التعرف على احتياجات بيئات المطلوب هدايتهم للإسلام أما الذين ارتبطت مصالحهم الدينية أو الدنيوية ببقائهم خارج المجتمعات الإسلامية فأرى أن تعمل مؤسسات التعليم العالى على خلق صلات قوية بهم للاستفادة من خبرتهم ، وعلاقاتهم ، فى تهيئة المناخ المناسب ، لتحقيق مصالح الوطن الدينية والدنيوية .

(و) المكتبة :

المكتبة هى المصدر الرئيسى للبحث العلمى ، والمنبع الثرى الذى لا يستغنى عنه أستاذ أو طالب دراسات عليا . ينمو المكتبة وتزويدها تنمو وتزداد المعارف - والثقافات ،

٥ - لحم الخنزير .

٦ - الخمر ومجالسها .

٧ - المراهنات والقمار .

٨ - أداء العبادات من صلاة بأنواعها ، وصوم بأنواعه ، وحج ، وزكاة بأنواعها وصدقة ، وخلق ، ومعاملة .

٩ - الزواج بالكتابية أو الكتابي (للمرأة) والمشركة أو المشرک (للمرأة) مع توضيح رأى الإسلام فى تعدد الزوجات .

١٠ - الفن وحدوده .

١١ - السلم والحرب والجهاد .

١٢ - الأقليات غير المسلمة فى بلاد الإسلام والأقليات المسلمة فى البلاد غير الإسلامية .

١٣ - الرفقة المأمونة للمرأة فى السفر وأثناء فترة البعثة .

١٤ - التوارث بين مختلفى العقائد .

١٥ - الشبهات التى تثار حول الإسلام مثل الرق والطلاق وغير ذلك .

١٦ - الحضارة الإسلامية فى الطب

والهندسة والزراعة والفلك وغيرها

١٧ - التربية الوطنية .

هذا وأقترح أن تتولى مؤسسات التعليم طبع مذكرة مفهومة بما تقدم وغيره مما

وتتنوع وتتوسع المدارك والخبرات ، بيد أن المكتبة لكي تقوم بدورها لابد لها من

١-الدعم المادى المستمر لميزانياتها ، والزيادة المطردة لعدد الكتب الموجودة بها . إما عن طريق الشراء أو التبادل ، أو الحصول على الهدايا العلمية - من المهتمين بنمو المعرفة وازديادها .

٢-التنوع فى وسائل المعرفة التى تهيأ للباحث بحيث تضم المكتبة ما يقرأ أو يسمع ، أو يرى ، أو يلمس .

٣-الإعداد الفنى للعاملين بالمكتبة ، حتى يؤدوا دورهم أداء يتناسب وطموح الباحث مع مراعاة الزيادة المطردة فى عددهم ، فى حدود إمكانيات البلد الاقتصادية من ناحية ، والنسبة المطلوبة للعمل من ناحية أخرى .

٤- أن ينظم العمل فيها تنظيمًا يناسب وقت الباحث وظروفه .

٥- أن تهيأ تهيئة تناسب عدد الباحثين ، وقدراتهم الصحية والفنية فى الاستفادة من المكتبة على أن يخصص ما أمكن جناح خاص لكل باحث ، يودع فيه كتبه وأدواته وأوراق أبحاثه وغيرها .

٦- الصلات العلمية بينها وبين باقى مكتبات العالم ، بحيث يتمكن الباحث بواسطة المكتبة من الاستفادة من التراث

العلمى الموجود بالمكتبات العالمية الأخرى ، دون أن يضطر للسفر إلى البلاد المختلفة على أن يكون للمكتبة سجل خاص بمحتويات المكتبات المهمة فى العالم إن لم يكن بكل المكتبات الخاصة والعامة بالداخل والخارج . وقد يساعد فى إعداد مثل هذا السجل الشامل إلزام الحكومات للمواطنين بأئداع قائمة بأسماء كتبهم لدى المكتبة الوطنية أو دار الوثائق المركزية لتؤى هذه بدورها مهمتها فى تغذية الكمبيوتر بكل ما تحصلت عليه من قوائم بعد مراجعة تصنيفها .

(ز) وسائل النشر والاطلاع :

إن البحث الذى يبذل العالم فيه وقته وجهده وتبذل الدولة فيه طاقتها - حرى به أن يرى النور ويستفيد به الغير وتعم به الفائدة ولن يتأتى ذلك إلا إذا أكمل - المسئولون دورهم فتهيئوا للكاتب وسائل النشر للبحث إن كان مقروءاً أو مسموعاً أو مبصراً . وذلك عن طريق :

١- توفير آلات الكتابة وأدواتها .

٢- توفير وسائل الطبع والتصوير الآلى وأدواته .

٣- الأعلام الفنى المستمر عن البحوث بعرض المؤلفات والحوار حولها ، وتسيط الأعضاء على محتوياتها ، وتنظيم لقاءات مفتوحة مع الكاتب ، وتخصيص محاضرات وندوات حول بحثه .

٤- النشر الواسع للبحوث بالبيع والهدايا والتبادل وغير ذلك .

٩- تنويع البرامج الدراسية بحيث تستطيع

مواجهة القدرات والاستعدادات المتباينة .

١٠- دعم البرامج الدراسية بالمقومات

التي تتيح للباحث مواجهة الحياة العملية في الحاضر ، والتكيف مع احتياجات المستقبل والمساهمة في قيادة حركة التقدم والتنمية والتطور ، ومن أبرز هذه المقومات إثارة خيال الطالب الدارس وتحريك بواعث الخلق والابتكار فيه .

١١- تنظيم برامج لتدريب الباحثين

كل في مجال تخصصه وذلك بمواقع العمل المشابهة خلال مدة الدراسة ، وفي العطلات الصيفية لتمكينهم من اكتساب المهارات وتوسيع المدارك والقدرات .

(ط) مثالب المناهج الحالية :

هذا ومناهج مؤسسات التعليم العالي الحالية أبعد ما تكون عن تحقيق رسالتها إن لم تكن في بعض الأحيان معولا لهدم الفكر الإسلامي وتقويضه لشأنه ونسفا لأركانه فهي في مجال الأدب النثري والشعري وتربي في الطلاب النوازع الحيوانية وتثير الغرائز الجنسية وتبدع في تجسيد مفاتن المرأة وتجيبب الخمر للناشئين ، وهي في مجالى المدح تمدح كل عظماء الرجال لا تستثنى أحداً غير

إن أبرز أهداف البحث الإسلامى هو أن يكون دعامة أكاديمية ، وتخطيطا عمليا ينمو به فكر الأمة وعقيدتها ، ويرتقى به أداؤها ، فيه تلتقى الأفكار ، وتتصارع الآراء وتتفاعل التجارب ، فيثمر هذا وينتج ذاك أنموذجا متكاملا حيا لما يتطلع إليه العلماء ، وينشده الباحثون والمفكرون والخبراء ، وذلك عبر منهج علمى وعملى مدروس يراعى فيه :

١- إمكانية التطبيق مع المرونة .

٢- القدرات الفعلية والعلمية والفنية للمستفيدين من البحث .

٣- الالتزام التام بمنهج القرآن الكريم والسنة المطهرة .

٤- مراعاة ظروف البيئة كلما أمكن ذلك .

٥- المعاصرة والابتكار مع عدم الخروج عن الخط الإسلامى .

٦- تحديد الأولويات وترتيب الموضوعات وفق الأهمية والحاجة .

٧- تسليط الأضواء على المساهمة الإسلامية في الفكر الأنسانى ، ورفى المخلوقات

٨- الربط الوثيق بين المناهج الدراسية

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعطى
نماذج لكل أثر فني ونص أدبي لا
تستثنى غير نصوص القرآن الكريم وأحاديث
الرسول عليه السلام ، وتفتخر بكل شيء
لا تستثنى شيئا غير الإسلام .

كما أنها في مجال اللغة تقلل عمدا من
مكانة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف
وتنادى أسوة ببعض المدارس بالاعتماد على
الشعر الجاهلي بدلا عنه .

وينادى بعض أساتذة التاريخ فيها بما
ينادى به الكفار ، ودعاة تفتيت الوحدة
الإسلامية حين يصورون للشباب الدولة
التركية مركز الخلافة الإسلامية ورمز الوحدة
الدينية آنذاك ، بأنها دولة مستعمرة ، ناسين
بأن وقوع الظلم من بعض أفرادها لا يبرر
تفتيت وحدة الأمة الإسلامية الممثلة في
سلطانها ، ويفيض البعض في الثناء على
الحضارة الأوربية قاصرين دور الحضارة
الإسلامية على مسائل حدثت في القرون
السابقة ، وكأنهم بذلك يبترون حاضر الأمة
الإسلامية وحضارتها من ماضيها وتراثها .

ويغض المستولون بمؤسسات التعليم
العالي الطرف عن الجرائم المنكراء التي يرتكبها

علماء الآثار حين يكسرون عمدا الآثار
الإسلامية بالسودان وغيره ، ويهملون فرحا
وطربا للآثار النصرانية وغيرها ، مع علمهم
بأن الصمت على مثل ذلك ، والاعراض
عن رعاية الآثار الإسلامية سيمكن أعداء
الإسلام من طمس كل أثر إسلامي للبلاد
ويضفي عمدا الطابع النصراني على بعض
أجزاء الوطن الإسلامي .

وفي مجال التاريخ كذلك لا تغنى مؤسسات
التعليم العالي بما تعرض له القرآن الكريم
من حوادث تاريخية ، بل أن بعض أساتذتها
ليصرف النظر عن القرآن الكريم ، بدعوى
أن التواريخ الدينية لا تصلح أساسا للتواريخ
العلمية ، وهي فرية (علمانية) ركلها العلماء
المحدثون ، كما يؤكد ذلك العقاد في كتابه
أبو الأنبياء الخليل (١) :

وفي الجغرافيا لا يعنى المنهج بالآيات القرآنية
ذات الطابع الجغرافي ، كما لا يعنى بعمل
دراسة علمية يحدد فيها بالتعاون مع قسم
التاريخ أماكن البلاد التي أشار إليها القرآن
الكريم .

وقسم الفلك يزاور عن الدين ذات اليمين
وذات الشمال ، متناسيا دوره في تحديد

(١) العقاد : أبو الأنبياء الخليل صفحة ١٣٥ طبع سنة ١٩٥٣ م وراجع الحياة العقلية في ضوء
الفلسفة الإسلامية للدكتور حسن الفاتح طبع مطبعة الأمانة بمصر سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م والنظم والمظاهر
الحضارية عند العرب للدكتور حسن الفاتح طبع دار الخليل ببيروت عام ١٩٩٠ م .

الشهور العربية ومنها (رمضان) وتحديد مواعيت الصلوات العادية وصلوات الخسوف والكسوف والاستسقاء، ودوره كذلك في إحياء التراث الإسلامي في الفلك وجمعه، وتصنيفه ودراسته دراسة علمية معاصرة، ودوره في متابعة ورصد التقدم العلمي في مجال دراسات الفضاء والاسهام فيه، ويتصم المسؤولون بمؤسسات التعليم العالي آذانهم عما يجري من عبث وتحطيم للمثل والقيم في دور السينما والمسارح، مكتفين بمشاركة الناس استنكارهم بالقلب واللسان، محجمين عن الإقدام على عمل إيجابي، يقدم للناس البديل ويدرب من يعملون في مثل هذه الميادين ويشققهم، بما يربطهم بدينهم وتراثهم وحضارتهم من ناحية، وبتقاليد مجتمعهم وأعرافه من ناحية أخرى، علما بأن (فيلما) واحدا غير هادف، أو تمثيلية ضالة قد تحطم أخلاقيا ما بنته مؤسسات التعليم العالي في أعوام؛ واكتفى واضعوا مناهج اللغات بتنزيل مكانة الجامعات بما يجعلها أشبه بمدرسة ابتدائية أو ثانوية لتعليم اللغة بل وأسوأ من ذلك أن عمل هؤلاء على التركيز على حضارة الأوربيين متناسين بأن من الأغراض الأساسية لإنشاء مثل هذه الشعب هو أن تكون أداة لتبليغ رسالة الإسلام شفويا وكتابيا للأمم الناطقة بمثل تلك اللغات بعد أن يتمثل طلاب شعبها ثقافة الإسلام وعقيدته وحضارته بنفس اللغة.

وظن بعض واضعي مناهج الدراسات الإسلامية أنهم بمقارنتهم بين الحق والباطل يرفعون من قدر الإسلام، علما بأنه لا مجال للمقارنة إلا بين الأشياء المتماثلة، وما دام القرآن من عند الله الذي وعد بحفظه والكتب السماوية الأخرى قد حُرف أصحابها الكلم عن مواضعها فإن مجرد المقارنة بينهما تسيء إلى الدين الإسلامي وتخرج بحامل لواء المقارنة فردا أو هيئة، عن جادة الطريق وصدق الشاعر إذ يقول:

ألم تر أن السيف ينقص قدره

إذا قيل هذا السيف خير من العصا

وينحرف واضعوا منهج التربية حين يحيدون عن الصراط المستقيم، ويتخذون مثلهم الأعلى في التربية أقواما تختلف عقيدتهم عن عقيدتنا، وفلسفتهم في الحياة والمنهج السلوكي والأخلاقي والتربوي، عن مناهجنا، ومن ثم يهملون أمر التربية التي وصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب... التربية التي لا تختصر على إعداد المعلم إعدادا فنيا، وإنما إعدادا إنسانيا، وخلقيا، بحيث تخرج دراسته مع سلوكه فيعيش التربية داخل الفصل وخارجه، يراعيها في علاقته بالله وبالدين، وفي علاقته بوالديه وأسرته، وفي علاقته بالمجتمع، بل وفي رعايته لممتلكات الدولة، وممتلكات الآخرين

وأعراض الناس ، ودمائهم ، وأموالهم
يراعها حتى في تعامله مع الحيوانات التي
أوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم .

التربية التي ننشدها هي تلك التي تخلق
من الفرد مسلما يكون الرسول صلى الله
عليه وسلم أسوته في الحياة المادية والروحية
إذ لم يحدث أن فصح الرسول صلى الله عليه
وسلم بينهما وكان حتى في المعركة الحاسمة
يوم بدر والأعداء يحفون به من كل جانب
كان يطيل السجود والدعاء ، مدركا أن
النصر من الله لا من السلاح . . .

التربية الحققة هي التي يكون شعارها
(واتقوا الله ويعلمكم الله) . . . « ومن
يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث
لا يحتسب . . . » (ومن أعرض عن ذكرى
فأن له معيشة ضنكى) .

تلك هي فلسفة التربية التي من أجلها تضع
الملائكة أجنحتها لطلاب العلم ، وهي ذاتها
فلسفة التربية التي يساوى مداد العلماء فيها
دم الشهداء . . .

والتربية بهذا المفهوم كما يكون التدريب
العملي فيها بالتدريس في الفصل أو المشاركة
في الحصة أو المحاضرة ، يكون كذلك
بالمشاركة في الصلوات ، والأذكار والأوراد ،
وأنواع التكريم التي تربي الشباب على حب
الرسول صلى الله عليه وسلم ومقتنى أثره .

لقد آن لنا أن نبرز شخصيتنا كأمة ذات
حضارة وثقافة وعلم وراث ، آن لنا أن
نتحرر من الأسر الفكرى النصرانى واليهودى
الذى كتب علينا أن نسير فيه وكأننا بذلك
نصنف أنفسنا تحت من عناهم الله تعالى
بقوله (الذين استحبوا العمى على الهدى)
وقوله : (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) وقوله :
(اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون
أنهم مهتدون . . .) .

ومناهج الفلسفة كمثيالاتها تحتاج إلى ثورة
تمثل ما قام به الغزالي وهو يردها إلى
الحادة ويصفها من شوائب الكفر ويسبغ
عليها الشخصية الإسلامية فمناهج الفلسفة
ما تزال تتعسر في الهاوية التي ادرغت فيها
حين قسم النصرانى واليهود مراحلها إلى
يونانية ، ووسطى ، وحديثة ، ومعاصرة
وزجوا عمدا بفلسفة المسلمين في تيار القرون
الوسطى في حين فتحوا لأنفسهم الباب حتى
العصر الحاضر ، فظللنا نسبح بفلسفة
مسيحيين ما زالوا أحياء ، بينما أحكموا قفل
باب الفلسفة على المسلمين ، فكان الكتاب
إذا ما أشاروا إلى الفلسفة الإسلامية لا يشيرون
إلا إلى ابن سينا والفارابى وأضرابهم
من عاشوا حوالى القرن الخامس الهجرى .

وأقام الغربيون للفلسفة اليرنانية مثنا
عظيما حين أشادوا بالفكر الأوروبى ممثلا
فيها ، بل بالغ بعضهم فاعتبر الفلسفة الإسلامية
جسرا عبّرت به الفكر اليونانى الأوروبى إلى

أهله ، وفرح الخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا فكريا لدحض ما ألصق بهم من تهمة ، بل لقد ألفت آذانهم سماع تلك الافتراءات فصدقوها بعضهم ، وصاروا ينادون كغيرهم بأن الفكر الانساني كان قبل اليونانيين طفلا متجاهلين أن الفكر الانساني بدأ ببداية سيدنا آدم ، وسيدنا آدم رسول بلغ من الفكر الذروة وكذلك كان ابناؤه من الأنبياء الذين سبقوا اليونانيين^(١) .

لقد أصبح دعوى المعجزة اليونانية ستارا يخفى وراءه دعاء تحطيم ما أسموه بالفكر الحامى ليتسنى للأوربيين وصل ما يزعمونه من حاضر حضارى بماض تليد يماثله في الحضارة النسبية^(٢) .

وكان علم الاجتماع كالفلسفة بعيدا عن الواقع الحضارى للأمة الإسلامية عامة والوطنية خاصة فقد ارتبط في بعض نواحيه بالفكرة الأوربية بدلا من الفكرة الإسلامية وأغفل احتياجات الإنسان الروحية مع اتفاق المختصين من علماء الاجتماع بأنها أعظم الحقائق بالنسبة له ، وأبعد نفسه عمدا عن نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى ، مع أنها الأساس الذى

ينبنى عليه الكيان الاجتماعى فى الإسلام وأحمل وصل العلاقة بين السلوك الإنسانى والشرعية الإسلامية وتبنى بعض المقلدين فيه دون وعى فكرة (دور كاي) (الأحادية) التى تقول بأن الدين ظاهرة اجتماعية . ونصبوا من أسس غير إسلامية معاير يحكمون بها على سلوك الإنسان ، ناسين أن هدفهم الأساسى هو دراسة ووصف وتفهم معنى الحياة والسلوك واكتشاف أسباب ذلك إنطلاقا من عقيدة الأمة وتراثها ومفهومها عن الحياة والعمل والعلاقات الإنسانية إذ العقيدة عامة والإسلامية خاصة باعتراف علماء الاجتماع هى أقوى النواحي الثقافية التى تسيطر على الناس فى البلاد الإسلامية ومن ثم فإنه لا يمكن تجاهلها عند تخطيط أى برنامج للعمل بينهم .

وما قيل عن الناحية النظرية يقال عن التدريب الذى قد يختلط فيه الرجال بالنساء كما تختلط فيه فلسفات التربية ببعضها لتنتج ما هو وبال على الفكر والتقاليد والمثل والقيم ومن ثم يكون المدخل للتدريب فى حد ذاته مناهضا لفلسفة الأمة التى يراد تدريب مصلحيها . فتبدأ بذلك ومنذ أول وهلة

(١) لدحض هذه الفرية علمنا ألفت كتابا كاملا أسميته نشأة التفكير فراجعه .

(٢) للعقاد : ابليس طبع للقاهرة ، والحياة العقلية فى ضوء الفلسفة الإسلامية للدكتور حسن الفاتح طبع للقاهرة سنة ١٩٧٨ وطبع بيروت سنة ١٩٩٠ م .

مظاهر الفارقة بين المجتمع وبين من نصبوا أنفسهم لأصلاحه هذا إلى أن التدريب حين يمارس لا تعطى الأولوية فيه لما يمس حاجة الأمة وتحقيق رسالة التعليم ، الأمر الذى يجعل التقليد فى موضوعات التدريب مظهرا من مظاهر العمل الاجتماعى عندنا .

أضف إلى ما تقدم أن المسئولين يفصحون أنفسهم عن مجتمعاتهم وأسرهم حين يتجاهلون دور التصوف فى حياتهم السياسية والاجتماعية والفكرية والتاريخية والعلمية فلا ينشئون لدراسته مركزا أو يخصصون له معهدا ؛ علما بأن أقدم مرجع بأيدينا حين يؤرخ لا يؤرخ إلا للمتصوفين وأبرز من حملوا لواء الدعوة إلى الله باعتراف جميع الناس هم رجال التصوف ، وأشهر قادة ارتباطهم بمجد السودان وسياستهم بتراث الأمة وعقيدتها ودينها هم من نتاج وتربية المتصوفة .

بل إنك لا تكاد تجد أسرة بالسودان إلا ومعظم أفرادها ينتمون إلى المتصوفة اما تطرقا ، أو ولاء حتى أنك لتستطيع أن تميز من أسماء الأسرة نوع (الطريقة) التى ينتمون إليها ، واسم الشيخ الذى ينتسبون إليه . . . هذا إلى أن تراث المتصوفة ومؤلفاتهم هو الثروة الدينية الوحيدة التى

يشاخر بها السودان . . ولا أحد يمارى فى أن أثر تربيتهم لمريديهم هو الأثر الوحيد الذى نعز به حين نتحدث عن أخلاق السودانيين وكرمهم ؛ فبيوت المتصوفة هى الفنادق المجانية التى يستطيع أن يؤمها الفرد وأسرته فى أى لحظة ، بل ويزود بالإضافة إلى الضيافة ب زاد مالى قد يصل حد إنشاء المنازل السكنية ، والمتاجر ، وتمليك العربات ولم يحدث سابقا أو حاضرا أن بنى مسجد غير حكومى بالبلاد إلا وكان منشئه شيخ طريقة صوفية أو مريدا من مريديه وما قيل عن المساجد يقال عن (الخلاوى) القرآنية ، والزوايا ، وبيوت الضيافة والسبائل (جمع سبيل) بل أن المتصوفة وجهوا مريديهم بإنشاء المعاهد والمدارس والمستشفيات والمصحات وقد افتتحت الدولة عددا منها .

إن من ينكر أثر التصوف إنما ينكر ضوء الشمس ، وصدق الشاعر إذ قال :
عالج عيونك كى تحظى برؤيتهم
فليس تدركهم عين بها رمد^(١)
والآخر الذى يقول :
ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصير

(١) راجع ديوان الشيخ محمد على يوسف (مخطوط) .

وتمثل شعبية الاقتصاد الحالي بالحجاءات حاميا لفكر الغرب المتمرد على نصرانيته ويهوديته . . فإذن أقام الغير لفكرهم الاقتصادي ناطحات التحدي للأمم التي أسسوها نامية فقد أعرض عن التحدي علماء الاقتصاد عندنا واكتفوا بفتح نافذات في بناء الغرب الاقتصادي يطالون بها على نظمهم الاقتصادية ، ويكاد الفرد منهم لا يتحدث عن نظرية في الاقتصاد الإسلامي إلا عبر ما درسه من نظريات غربية . أما من لا يؤمن بجداوى الفكر الإسلامي في الاقتصاد ففي آذانهم منه وقر ، وهو عليهم عمنى .

وجاءت تسمية وحدة الدراسات الإضافية ببعض الجامعات ترجمة حرفية للكلمة الإنجليزية التي نقلت عنها ، كما جاءت تقليدا لما هو عند الآخرين وإلا فكيف يتسنى لنا مثلا أن نزع أن البناء الفكري للفرد في مجالات الدراسات الإسلامية والفقهية والعربية وغيرها - عمل إضافي بالمفهوم العربي لكلمة إضافية . . إن ما تقوم به هذه الوحدات هو في الواقع عمل تأهيلي أو تكميلي ومن ثم كان الأولى أن تسمى بكلية أو معهد الدراسات التأهيلية أو التكميلية .

وللجامعات دور أكاديمي في الأفتاء حيث أنها مؤسسات علمية تضم أكبر عدد من المتخصصين ممن يلجأ إليهم الناس في الفتوى في الأحياء والشوارع وغيرها . .

ومن ثم كان على مؤسسات التعليم المختصة أن تحيي ما أرم من عظام بلعائها التي كونتها ليشهد المحتفلون بميلادها إسدال الستار على دورها إن لم يكن وأدما .

هذا ويكاد فريق من العلماء حين يتحدث أو يكتب في المواد الإسلامية يعتمد اعتماداً كاملاً على المفهوم المعاصر للنصارى واليهود لها ، بل ويجعل كتبهم له مراجع لا يأنف من ذكرها ، إن لم يفتخر أمام الغير بأنه باستعماله لها يصير بحثه ، بحثاً علمياً ، به يتوخى الحياد الموضوعي ، ويستخدم فيه الأسلوب المنطقي . . ومن المؤسف أن مثل هذا الأسلوب قد جاز على الكثيرين في غير عهد الصحوة الإسلامية ، فأذكروا معجزات الأنبياء ولم يتسع فكرهم لقبول إحياء الموتى ، وإبراء الأكه والأعمى وشفاء العاقر ، وإحداث الخلق غير المؤلف للحوادث وتسبيح الحصى وحنين الجذع وسلام الحجر والمدر ، ومعرفة الطيور بالله تعالى ، والتحدث مع الحيوانات ، ووجود خلق لا يرى حتى (بالميكروسكوب) ولا يكتشف حتى (بالرادار) يشاركتهم أحيانا في الأكل والشرب ، والتناسل والتكاثر ، والحركة ، والكلام ، والصلاح والتقوى ، والفسق ، والفجور ، والعصيان وقد يفوق آخرون منهم الإنسان قوة وعددا وحركة ، وطاعة ، وعلو مكان ، وسعة إدراك من غير أن يتناسل ذكر عن أنثى ، أو

أنثى عن ذكر ، ودون أن يتمف العوائق الطبيعية ، أو مرحلة (إنعدام الوزن) عقبة في طريق أداء مهامهم في الحياة . إن هؤلاء لقد مرقوا بانكارهم للغيبيات مروق السهم من الرمية ، ذلك أن إنكارهم للغيبيات يعد إنكارا لما عرف من الدين بالضرورة ، يقول تعالى : (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة . . . الخ) أضف إلى ذلك أن إنكارهم لمثل ما تقدم فيه تكذيب لبعض ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن كذب ببعض ما جاء به عليه السلام كان كمن كذب به كله (١) . كما يقول ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ، هذا ونسب بعضهم الشفاء للعقاقير ولما يمتاز به بعض الأطباء من مهارة ودربة وخبرة وعلم رافضين قبول غيرها كوسيلة مجربة ناجحة للعلاج ، وكأنهم بذلك يحجرون واسعا ويضيقون فسيحها ، ناسين أن الشافي الحقيقي هو الله وحده ، وأن من لم يشفه القرآن فلا شفاء له كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) وأن :

من يقل بالطبع أو بالعلة فذلك كفر عند أهل الملة ومن يقل بالقوة المودعة فذلك بدعى فلا تانتفت واختلط على شبابنا تبعا لذلك الحابل بالنابل فتارة يؤمنون بالغيب وأخرى به يكفرون وتارة يتخذون الرسول صلى الله عليه وسلم لهم أسوة ، وأخرى يشكرون قبول أقواله وأفعاله وتقريراته ، ووجد من ينادى من هؤلاء تجملا للكفار بجواز ما حرمه الشرع فقال بعضهم إن الأمر بالاجتناب في موضوع الخمر لا يعنى الحرمة ، وأجاز البعض الآخر زواج الكتابي من المسلمة مع وجود النص الشرعي المانع واعتلى حزب منهم منصة الثورة على كل التراث الإسلامى فأنكروا قبول الحديث النبوى ، ونادى آخرون بأن الإسلام لا يصلح للقرن العشرين وجاء من ظن منهم أنه يحسن صنعنا فقصر الصلوات المكتوبة على أقل من خمس في اليوم والليلة . وعزف فريق على قيثاره الحب الماجن بدعوى أن الله جميل يحب الجمال مستدلين على زعمهم بقوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) وفتح البعض لنفسه باب النبوة ليخاطب الناس باعتباره دابة للارض تكلمهم إذا

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٨٨ .

(٢) رواه ابن نافع عن رجاء الغنوى .

وقع عليهم القول . . . واستخدم فريق من هؤلاء أسلوب الشتم ، والسب ، القذف والطعن . والسخرية ، وسيلة لإثبات الباطل وتقويض دعائم الحق . .

كل ذلك وأمثاله كثير ، صب في القالب الإسلامى عمداً أو جهلاً فتراكم بذلك الخطأ ، وعظمت المسئولية ، وجل الخطب ، ومن ثم كان على مؤسسات التعليم دور مزدوج تبدأ التحلية فيه بعد التخلية أو البناء بعد الهدم .

(ى) عام التدريب الإلزامى أو علاج هجرة العقول :

تشكل ظاهرة هجرة العقول خطراً يهدد مستقبل البلاد العلمى والعملى ويؤدى عاجلاً أو آجلاً بحياة الأمة ، ويحد من رقيها وتطورها . . ومن ثم كان على الدولة أن ترسم سياسة مزدوجة تعمل فيها من جانب على الحد من هجرة العقول ، وتعمل من جانب آخر على توفير العدد الكافى من المؤهلين ، وذلك عبر وسائل مختلفة أهمها أن تتدخل المرحلة الدراسية لطالب الدراسات الجامعية سنة إلزامية يقضيها فى التدريس ، وفى الدعوة إلى الله ، وفى العمل فى الميادين التى تتفق وتخصصه على أن يقيم إنتاجه فيها ويرصد مع نتائج العام النهائى له ، فترفع بذلك درجاته فى (البكالوريوس) أو تقلل وجهاً كذلك يتحدد قبوله طالباً بالدراسات العليا أو موظفاً بالدولة على

أن لا يسمح له إطلاقاً بالاستمرار فى إكمال دراسته الجامعية أو ما يعادلها ما لم يؤد واجبه بأتقان خلال عام التدريب الإلزامى له ، ويحصل على وثيقة بذلك من جهات الاختصاص التى قضى معها عام تدريب . . ويفضل أن يبدأ تطبيق هذا النظام الإلزامى بعد أن يعمم نظام الساعات الدراسية (المقررات) بمؤسسات التعليم العالى حتى يتمكن الطالب من إكمال دراسته فى نفس المدة التى كان عليه أن يكملها فيها لو ظل يدرس وفق نظام العام الجامعى المألوف ، أو نظام السنة الكاملة .

هذا ومن البديهي أن مثل هذا النظام من التدريب يكسب الطالب مهارات فنية ويوسع مداركه ، ويربطه ربطاً حقيقياً بواقع العمل ، ويخلق له عند عودته للدراسة حيوية ونشاط وإقبالاً ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يقضى قضاء تاماً على الأثر السلبى لهجرة العقول . فالمدارس مثلاً تجدد على الدوام من يقوم فيها بأداء العمل وفق التخصص العلمى المرغوب فيه دون أن تتحمل الدولة نفقات باهظة ، وكذلك الحال فى دور العبادة ، وساحات التثقيف العام ، ومكاتب الدولة ، والمزارع ، والمصانع ، والشركات ، وغير ذلك من الوظائف التى لا يؤثر على سير الأداء فيها غياب ذات الفرد منها بعد انتهاء العام المحدد له بها .

أضف إلى ما تقدم أن دائرة التدريب الإلزامي يجب أن تتسع بحيث تمتد إلى كل عمل داخلي أو خارجي يقع تحت إشراف الدولة ومسئوليتها ورعايتها ، فالدعوة إلى الله مثلا كما تكون لتثبيت العقيدة بين المؤمنين في الداخل ، تكون لتأصيلها وتأسيسها بين غير المؤمنين بالخارج ، ومثل الدعوة في ذلك عمل السفارات والشركات والوزارات التي لها مدارس أو مكاتب بالخارج .

هذا ولئن اشترطت بعض الدول على الطلاب ممارسة أنواع معينة من الرياضة بصفة إجبارية كالسباحة وغيرها^(١) فإن حاجتنا لتوفير العقول تجعلنا نشترط مثل ذلك النوع من التدريب الإلزامي الذي يسد حاجة البلاد في مختلف التخصصات .

٢ - الميدان الروحي :

كادت العلوم الإسلامية بمفهومها العرفي تشابه نظيراتها ، بعد أن تجردت عن الروح وابتعدت عن ميدان التطبيق ، واقتصرت على الناحية الأكاديمية علما بأن بعضها لم يفهم سابقا إلا مصحوبا بالعمل ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

ألا أنبئكم بالفقيرة كل الفقيرة ؟ قالوا بلى . قال من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤيسسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى سواه . وسأل فرقد السنجي الحسن رضى الله عنه عن الشيء فأجابه . قال : إن الفقهاء يخالفونك فقال رحمه الله ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت فقيها بعينك ؟ إنما الفقيه ، الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير بدينه ، المداوم على عبادة ربه ، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين العفيف عن أموالهم ، الناصح لجماعتهم . ولم يقل في كل ذلك الحافظ لفروع الفتاوى^(٢) .

وما قيل عن الفقه يقال عن التصوف فقد كاد يحيله بعض الكتاب إلى علم للجدل إذ أضاعوا وقتهم وأفرغوا جهدهم في مسائل هي بمثابة (اللافتة) للمحتوى فتنازع الباحثون حول أصل التصوف ومنشئه وأكثروا من الكتابة حول تأريخه ، واصطلاحاته ، وأطلق بعضهم لنفسه العنان ليتصور حالة أهل الذوق والكشف مع قصر أفهام الخلق عن ذلك كما يقول الإمام الغزالي في الإحياء^(٣) .

(١) الإدارة الجامعية للدكتور النشار صفحة ٢٧٢ .

(٢) الغزالي : إحياء علوم الدين .

(٣) الغزالي : الإحياء ج ١ ص ١٢ .

لقد تعرضت العلوم الإسلامية عبر تاريخها لتحريف في أسماؤها ، وتبديل ونقل خرج بها عن دائرة المفهوم الأصلي لها إلى معان أخرى ، غير أن أسوأ ما تعرضت له كل تلك العلوم هو إفراغها من الروح وإبعادها عن دائرة العمل ، وإلباسها ثوبا ضيقا ما تزال تجهد نفسها في التخلص منه والأنعتاق من دائرته .

فالتوحيد الذي كان مفهومه سابقا رؤية الأمور كلها من الله رؤية تقطع التفات الباحث عن الأسباب والوسائط صار صناعة أكاديمية مهمتها الأمام بمناقضات الخصوم والقدرة على الجدل ، وإثارة الشبهات ، وتأليف الالتزامات^(١) .. ولف التيار علماءه فغفلوا عن لب التوحيد ، وتمسكوا بالقشور فلم يعد لهم هم سوى إثبات مفهوم التوحيد المناقض للتثليث ، ذلك أن الشرط عندهم هو أن يقول الفرد بلسانه لا إله إلا الله فإذا قالها — ولو نفاقا — ارتفعوا به إلى مصاف المؤمنين العارفين بالله .. علما بأن مفهوم التوحيد الحق لا يتأتى لمن التفت ولو لحظة لغير الله .. إنه الاستغراق في الله عبر ما أعد لهذا الاستغراق من طريق

أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم برياض الجنة أو مجالس الذكر التي شعارها (قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) .

إنه الذكر الدائم لله والتذكير المتواصل للآخرين به ، إذ ليس سوى الذكر غير النسيان أو الأعراض .. وقد حذر المولى من ذلك فقال : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكى ونحشره يوم القيامة أعمى) .

والذكر كما يكون بالفكر يكون بالحركات الرياضية التي تنشط الجسم ، وتطرد الملل وتذهب الرتابة وتطيل فترة العبادة ، على أنها في الحالين تطمئن القلب ، وترضى الرب ، وتكون عاملا جاذبا لحضور الملائكة فقد ورد في الحديث النبوي عنه عليه الصلاة والسلام : إن لله ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادى بعضهم بعضا ألا هللوا إلى بغيتكم فيأتونهم فيحفون بهم ويستمعون .. ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم^(٢) .

أما الفقه فقد خرج به العلماء عن دائرة معناه الأصلي فجعلوه قاصرا على معرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف

(١) للغزالي الإحياء ج ١ ص ٥٥ .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

على دقائق عللها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فمن كان أشد تعمقا فيها ، وأكثر اشتغالا بها يقال له الأفقه .

ولقد كان اسم الفقيه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدات الأعمال وقوة الاحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة . واستيلاء الخوف على القلب وبذلك عليه قوله تعالى : (ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم) . وما يحصل به الانذار والتخويف ، هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق ، والعنق ، واللعان والسلم ، والأجارة . فذلك لا يحصل به إنسداد ، بل التجرد له على الدوام يقسى القلب وينزع الحشية منه^(١) .

ويتصل بأمر الفقه الصلوات والصيام والحج والزكوات وكلها عبادات ممزوجة بأعمال غير أنها لم كانت عند البعض تؤدي بروح وإخلاص فهي عند الآخرين قد أفرغت من الروح وصارت تؤدي كواجب .

أخلص مما تقدم بأن مفهوم العلم أيا كان موضوعه قد مر بمرحلتين :

١ - حرف في أولها وبديل ونقل ، حتى أصبح للدين علوم ، وللدنيا علوم . .^١ علما بأنه كان قد أريد منه سابقا العلم بالله تعالى ، وبآياته ، وبأفعاله في عباده وخلقه . وهو مفهوم عام كان ينتظم جميع العلوم ما عرف منها وما لم يعرف .

أما في الثانية فقد أفرغ من محتواه الروحي وجرد من مراعاة الله فيه ، بحيث صار مفهوم العلم أخيرا مغايراً لمفهوم العبادة ، علما بأن كل علم أو عمل إذا صاحبه النية الخالصة في العبادة كان عبادة حقيقية . فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى .

إن على المسئولين وقد آلوا على أنفسهم النهوض بشأن التدريب والبحوث ، أن يردوا طلاب العلم إلى جادة الصواب ، ويغيروا من مفهوم العلم والعمل عندهم ، ويحثوهم على مراعاة الله وتقواه في كل عمل أو علم يقومون به على أن يوفر لهم كذلك دور العبادة في المؤسسات العلمية ويدربوهم على الحج وعلى آلات الرصد الفلكي وعلى استعمال أجهزة (الكمبيوتر) المختلفة ومعمل اللغات التي يستعان بها في دراسة القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف وينوعوا لهم مناهج الأداء في أسلوب التربية إذ من العجيب أن تبدل

(١) للغزالي : الأحياء ج ١ ص ٤٨ .

الدولة أقصى إمكاناتها المادية والبشرية والفنية ، لترقية الأداء الرياضي للطلاب إذا كان بعيدا عن العبادة وذكر الله ، وتحجيم بل وتستنكر أن يقام للذكر الحركي أو الرياضي مكان بمؤسسات التعليم .

٣ - الرعاية الشاملة للباحثين والمدرسين :

تعد الرعاية الشاملة للباحثين بكافة أنواعها وأبعادها الاجتماعية والصحية والرياضية والثقافية والترفيهية ، عاملا أساسيا ومهما في إعداد المتعلم ، وفي بناء جسمه ، وتكوين شخصيته ، وتهذيب سلوكه وصقل مواهبه ولتوفير ذلك بصورة أفضل تشترط بعض المؤسسات العلمية أن يقيم طلابها في مدن جامعية خاصة ، لتنشئهم التنشئة المتكاملة التي ترغب فيها .

هذا إلى أن إعداد العناصر الخيرة من الباحثين يتطلب بالضرورة توفير أسباب الرعاية باختلاف أنواعها لهم . فالباحثون مهما بلغت مقدرتهم في حاجة ماسة إلى توفير أسباب الاستقرار السكني ، والمعيشي وغيره لهم ليتمكنوا بذلك من الانصراف للمهام العلمية الملقاة على عاتقهم ، إذ العقل السليم في الجسم السليم ، وسلامة الجسم تتطلب توفير الصحة الوقائية^(٢) والعلاجية^(٣)

على مؤسسات التعليم أن تقوم بتربية الشباب تربية روحية وخلقية وترفع بين وجدانهم فاعلية الضمير ، وتدرجهم على إدارة وتصريف الأمور كلها على أن يعلموا أن المولى معهم حيثما كانوا إذ (ما يكون من نجوى صغيرة ولا كبيرة إلا وهو يعلمها) وهو (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) .

إن مؤسسات التعليم - كما هو معلوم - هي المكان الذي يجري فيه إعداد الفرد بشكل علمي ومنظم ، ليصبح إنسانا متكاملًا عقلا وجسما ، وضميرا وسلوكا فينبض برسائله التي حملها الله بها ، بأن يكون خائفة على الأرض يعمل على عمارة الكون . وتنمية المال الذي استخلفه عليه الله ، وينشر الحضارة ويرفع ألوية الحق والرشاد ، ويقيم الموازين بالقسط ، عنما بأن تنمية قدرات الفرد على التحليل والبحث العلمي فحسب ، تحيل الفرد إلى آلة غير أنا إذا أضفنا إلى ذلك تنمية ضميره ، وتربيته

(١) دكتور / محمد حمدي النشار : الإدارة الجامعية - التطوير والتوقعات ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) راجع : الصحة الوقائية في الإسلام للدكتور حسن الفاتح .

(٣) راجع الدراهم الشرعية والعقلية في إثبات الطب القرآني للدكتور حسن الفاتح .

بمختلف أنواعها ، كما تتطلب الأبحاث والتنويع في النشاطات الرياضية ، مثل السباحة والرماية وركوب الخيل وألعاب القوى ونوادي الفتوة التي ابتدعها المتصوفة ، وأוכלوا لها خدمة المجتمع ، وتنمية المواهب الفكرية والخلقية والعضلية والروحية .

أضف إلى ذلك الاهتمام بالنشاط الترويجي فإن العقول إذا كلت ملت على أن لا يتضمن هذا النشاط وسابقه شيئا مما حرمه الله ، أو كرهته الشريعة الإسلامية أو تعارض مع مصالح الأمة .

هذا وبما أن الباحث أو المدرب لإنسان فيجب أن توفر الدولة له كل مقومات الإنسانية فتربي شخصيته وتحفظ عليه كرامته وتساعد في حل مشاكله وتعينه على أداء عباداته ورياضاته الروحية التي يتأسى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما تعينه كذلك على اختيار العمل المناسب ، وتتعاون معه في توفير المناخ الملائم لتربية أفراد أسرته وذويه ، وتولى عناية خاصة للثابة المالية التي تمنحها له .

واقترح في هذا المجال أن يستبدل النظام الحالي المعمول به في تحديد المرتبات لبعض البلاد بالنظام المثالي الذي تطبقه بلاد أخرى .

ويقوم النظام المقترح على تحرير البحوث من الأسر المادي الذي وضعت فيه ،

فالباحث الأكاديمي والتدريب الفنى . ، أسمى وأرفع من أن يدفع إليه الباحث دون رغبة أو أهلية ليصبح بذلك بحثا تجاريا يبغي صاحبه من ورائه الترقية أو المرتب العالي .

على الدولة أن تعمل على فك الارتباط بين النظامين العلمي والمالي ؛ فيترقى جميع العاملين أساندة وإداريين وغيرهم في سلم المرتبات ، حتى يصلوا نهاية مرتب الأستاذ ، على أن من أراد اللقب الأكاديمي فعليه أن يعد نفسه له علميا .

وفي ظل هذا النظام المقترح يمكن لمن حصل ماليا حاليا على درجة أستاذ (بروفسور) أن يقدم للترقية العلمية لدرجة أستاذ مشارك على أنه لا بأس أن يفرق بينه وبين غيره بالتزام الدولة له بطبع بحثه ومكافأته عليه .

٤ - الميدان الإداري :

العمل في مؤسسات التعليم العالي يتشعب إلى ثلاث شعب :

أولها : أكاديمي ويتولى مسئوليته الجهاز الأكاديمي وحده . حيث يمارس بعض الأعمال الإدارية بجانب الأعمال العلمية .
ثانيها : إداري ويقوم به الأكاديميون والإداريون على السواء .

ثالثها : فنى ويقوم به الفنيون تحت إشراف الأجهزة الأكاديمية .

هذا ويتميز الجهاز الأكاديمي بأن خطوط السلطة فيه تسير في اتجاهين مختلفين : أولهما أفقي ، وثانيهما رأسي على أن الخطوط الأفقية بارزة وتغطي بألوانها الداكنة على غيرها من الخطوط في لوحة الخريطة التنظيمية للعمل بالجامعة ، وذلك انطلاقاً من مبدأ القيادة الجماعية الذي تدين به كل الجامعات .

فعميد الكلية أو رئيس القسم أو الشعبة أو الوحدة أو رئيس المركز العلمي ، يقف على نفس خط السلطة مع باقي الرؤساء الآخرين ، علماً بأن كلا منهم لا يتدخل في الشؤون العلمية الخاصة بغيره إلا في حدود التنسيق ، أو لبدء الرأي عبر المجالس العلمية التي تضمه مع غيره من المسؤولين مثل مجلس الكلية أو مجلس الأساتذة أو مجلس الجامعة .

أضف إلى ما تقدم أن لرئيس القسم أو الشعبة أو المركز ولايتان :

إحدهما : إدارية ومجال عمله فيها قاصر على العاملين معه من أعضاء هيئة التدريس ومساعدتهم والموظفين والإداريين والعمال.

ثانيهما : علمي ففي إذا هو بحكم وضعه العلمي صاحب مدرسة أكاديمية يتولى بها الإشراف على الأساتذة المشاركين والمحاضرين ومساعدى التدريس ، والمعيدين فهو بالنسبة

لهم جميعاً يقف على قمة الهرم المعنوي للسلطة في الهيكل التنظيمي للعمل .

ومن المعلوم أن العمل الإداري بمؤسسات التعليم يغطي رقعة واسعة من العمليات والإنجازات تذخر بألوان النشاط المختلفة وتمتد هذه العمليات والإنجازات على أفق واسع ورحب ، يبدأ من أعمال الإدارة العليا وينتهي بالعمليات التنفيذية الصغيرة بمواقع العمل بالجامعة . علماً بأن هذه الأعمال تشمل فيما تشمل الوظائف الإدارية كلها من تخطيط وتنظيم وتوجيه وإرشاد، ومتابعة ومراقبة وتقييم ، وشئون مالية وحسابية وقانونية وكتابية واجتماعية ورياضية وثقافية إلى جانب تنظيم المكتبات والشراء والبيع والتخزين وغيرها مما هو معروف .

والعمل الإداري المذكور أغلبه عقلى وذهنى ولا يحتاج إلى تخصصات دقيقة عالية كما هو الحال بالنسبة للعمل الأكاديمي على أنه بالرغم من ذلك يشكل أهمية كبيرة فهو يهيئ البيئة الصالحة والمناخ الملائم للأعمال الأكاديمية والفنية .

ويتوقف نجاح العمل في مؤسسات التعليم على التعاون الوثيق بين مختلف الأجهزة الأكاديمية والإدارية والفنية وعلى قوة العلاقات الإنسانية السليمة بين العاملين والحفاظة المستمرة عليها ، وتنميتها وذلك عبر :

١ - تفهم كل مجموعة لطبيعة عمل الأخرى ، ومساعدتها في إنجازها بالصورة المثلى التى ينشدها كل فريق .

٢ - العدالة فى المراتب والإمتهيازات وفق التصور الذى ذكرته سابقا .

٣ - الشورى التى يحترم فيها رأى كل فريق ويستأنس به ، عند اتخاذ القرار إذ الفردية أو التكتل المهنى هو من أسوأ مظاهر فساد العلاقات الإنسانية .

٤ - المعاملة الحسنة الحالية من مظاهر التحكم والتسلط والأنانية ، والتمييز بين المجموعات العاملة فى ذات الحقل .

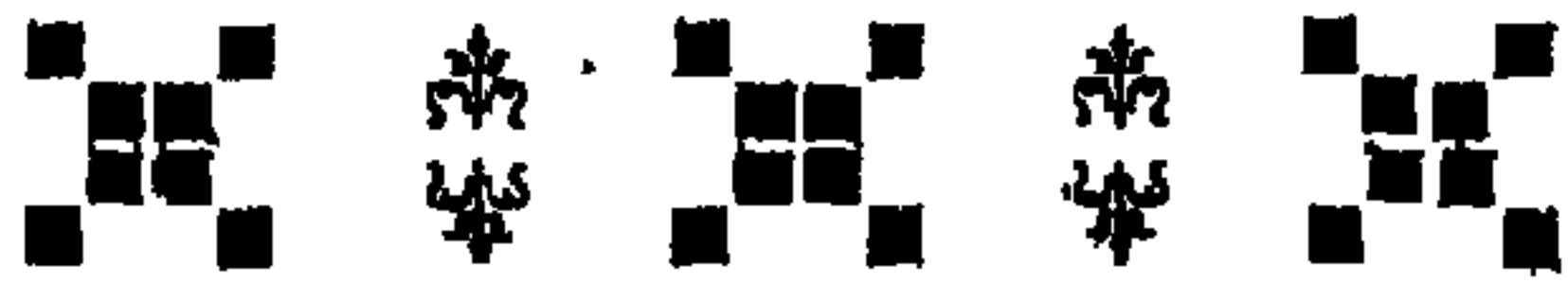
٥ - الاحترام المتبادل بين أفراد كل مجموعة على حدة ، وبينها وبين أفراد المجموعة الأخرى كذلك بحيث لا يتعالى أحد منهم على الآخر .

ومن مهام الإدارى الناجح التخطيط السليم ، ورسم البرامج التى تكفل تحقيق رسالة مؤسسات التعليم بكفاءة تمكن المسؤولين من تجسيد معنى الخلافة الإلهية التى أرادها الله تعالى للإنسان ، هذا وبالتخطيط يتم ترشيد استخدام الموارد المتاحة بفعالية أكبر يكون من نتائجها تنفيذ الأهداف المنشودة بخطى سريعة ومحكمة .

ويهدف التخطيط فيما يهدف إليه إلى تحديد حجم التعليم العالى ، ونوعياته ومستوياته ، وتوزيعه الجغرافى ، وهياكله التنظيمية ، ووسائل تطوير البحوث العلمية والتدريب العملى ، والعمل الخلاق لبناء الأجيال الصاعدة .

ويتميز التخطيط العام للتعليم العالى بأنه يرتبط بالمستوى الحضارى للمجتمع ويحدد الأولويات ويعالج النتائج الفكرية للطلّاع المثقفة ، ويوازن بين هجرة العقول وتوفير البديل ، بل إنه ليتعلق أحيانا بعوامل يصعب التنبؤ بها .

وأياً كان الأمر فإن أسلوب التخطيط ومناهجه ووسائله وأبعاده - لتختلف من دولة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر .
أخلص من كل ما تقدم بأن على مؤسسات التعليم العالى أن تخلق من التعاون الأكاديمى الفنى الإدارى قاعدة تنطلق بها إلى رحاب أوسع فى ضوء تعاليم القرآن الكريم وهدى السنة النبوية المطهرة والسيرة العملية للسلف الصالح من الأمة الإسلامية أولئك الذين فهموا الدين منهجا للحياة وأسلوبا للعمل ، فكيفوا عليه تصورههم للعلم ، والمعرفة والبحث والتدريب .



الفهرست أو محتويات البحث

الموضوع	الصفحات
المقدمة	١١٩

الباب الأول

مفهوم الدراسات الإسلامية	١٢١
(أ) المفهوم الحقيقي للدراسات الإسلامية	١٢١
(ب) المفهوم العرفي للدراسات الإسلامية	١٢٢
(ج) التحديد العرفي للمواد الإسلامية	١٢٣
(د) مفهوم التدريب	١٢٣
(هـ) مفهوم البحث	١٢٤
(و) تصنيف العلوم السابقة من حيث التدريب	١٢٦

الباب الثاني

دور مؤسسات التعليم العالي في التدريب والبحوث وفق التصور السابق	١٢٨
مدخل	١٢٨
١ - الميدان العلمي	١٢٨
(أ) اختيار الأستاذ أو الباحث	١٢٨
(ب) تأهيل الباحث	١٢٩
(ج) فوائده الإعداد الداخلي	١٢٩
(د) فوائده الإعداد الخارجي	١٣٠
(هـ) الجمع بين المميزات السابقة	١٣١
(و) المكتبة	١٣١
(ز) وسائل النشر والاطلاع	١٣٢
(ح) المنهج	١٣٣

المؤلف :

- ١ - الأستاذ الدكتور حسن الشيخ محمد الفاتح الشيخ قريب الله .
- ٢ - عباسى الأب حسيني الأم .
- ٣ - حفظ القرآن الكريم بروايتى حفص وأبى عمرو .
- ٤ - أحرز شهادتى بكالوريوس من جامعتى القاهرة وأم درمان .
- ٥ - أحرز درجة الشرف من جامعة الخرطوم ودرجة الماجستير فى الآداب من نفس الجامعة .
- ٦ - أحرز درجة الدكتوراه من جامعة أدنبره ببريطانيا فى الفلسفة .
- ٧ - عمل عميداً لكلية الآداب وعميداً للطلاب وعميداً لكلية الشريعة والعلوم الاجتماعية ورئيساً لقسم الفلسفة .
- ٨ - عمل رئيساً لجامعة أم درمان الإسلامية .
- ٩ - عمل رئيساً لمعهد أم درمان العلمى العالى .
- ١٠ - عمل رئيساً وعضواً لكثير من مؤسسات التعليم العالى .
- ١١ - اشترك فى عدد من المؤتمرات العلمية .
- ١٢ - أشرف على عدد من رسائل الماجستير والدكتوراه .
- ١٣ - ألف أكثر من خمسين مؤلفاً .
- ١٤ - اختير عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية .
- ١٥ - منحته مصر وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى .

حسن الفاتح قريب الله
عضو المجمع المراسل من السودان

ألفاظ مضارية بطل استعمالها

للككتور أحمد السيد سليمان

سيدي الرئيس

أيها السادة

المعاني التي لم يحتاجوا إليها ، ثم جاء أدباء
العصور الوسطى فأخذوا هذه الكلمات
بصيغها المعربة قديما ، وأضافوا إلى معانيها
في العربية كل المعاني التي تركها الأولون .

مفردات حضارية ،
من أصول أعجمية ،

هذه

دخلت في اللغة العربية في العصور
الوسطى الإسلامية ، وجرت على ألسنة
الناس ، واستعملها الشعراء وأصحاب
النثر الفني .

وربما اشتق أصحاب دواوين الإنشاء ،
وهم أكتب كتاب زمانهم صيغاً فعلية
من بعض الأسماء المعربة على نحو ما أعرض
على حضراتكم إن شاء الله ؛ وقد استخرجت
هذه الكلمات القليلة من ركام ضخيم
جمعته في زهاء عشرين عاما ، وكنت
أتمنى أن أنشره في كتاب أسماه « المتبادر »
أو « فوات المعجمات من المعرب والدخيل »
ولكن حالت دون ذلك أمور ، والحمد لله
على كل حال .

ومن هذه الألفاظ الحضارية ألفاظ
عربت قديما على قواعد خاصة في التعريب
ثم أعيد تعريبها في العصور الوسطى على
قواعد جديدة ، ولم تدرج هذه الصيغ
المحدثة ، على شيوعها في زمانها ، في
معجمات العربية .

وقد كان لبعض هذه المفردات في
لغاتها الأعجمية معان كثيرة أخذ العرب
الأولون بعضها لحاجتهم إليه ، وتركوا
في هذا الزمان بحاجة إلى تعريب آخر

(*) ألقى في الجلسة السابعة يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م

ننتقل به من حال إلى حال ؛ ولكني أرجو أن أعين القارئ العربي على استيعاب قرائنا من كتب العصور الوسطى ، وأوائل العصر الحديث فإن فيها من هذا المعرب المدارس ما لا يحصى ، وإن مستدركات التماذج ومعجم دوزي ومستدرك فانيان لا تسعف في كل المواقف .

وإليك هذه المفردات .

— البرددار (من الفارسية برده : الستارة و (دار) صاحب ومعناها الحاجب وصاحب الستارة .

وقد أحدثت وظيفة البرددارية في دولة الأشرف قايتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٦) وكان صاحبها يفتح الستارة أو يغلقها على باب الأمير أو الوزير .

وردت في قول ابن النبیه (٦١٩) :
قلت لليل إذ حبسني حبيبها
وغنساء يسبي النهى وعقارها
أنت يا ليل حاجتي فامنع الصبر—
بح وكن أنت يا دجى برددارا
ورحم الله ابن النبیه، أخذ قول المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وأنتني وبياض الصبح يغري بي
فشووه مرتين : شووه بأن فرقته في بيتين .
وشووه باستعمال كلمه البرددار .

— البوقال (في الهندية بكهال ، وفي الفارسية بوقال وفي الفرنسية Bocal) .

وعاء واسع الفوهة قصير العنق أو هو كوز بلا عروة ورد في شعر لابن أبي الزوائد يهجو امرأته :

قال : لما هزرت مهندي وقذفته

فيها وقد أرففته بصقال
رجع المهند ماله من حيلة

وهناك تصعب حيلة المحتال

وكأنمنا أوجتته في قلعة

قد بردت للصوم أو بوقال

الأغاني ١٤، ١٢٣

ج : بواقيل

قال أبو نواس :

فن رأى النيل رأى العين من كتب
فما أرى النيل إلا في البواقيل
دوانه ص ٥٦١

وقد ذكر البوقال في اللسان وفي القاموس بلا شاهد ودون ذكر للجمع .

— البيكار في الفارسية بيكار بالباء المشربة والكاف الفارسية ، وفي التركية العثمانية بيكار بالباء المشربة والكاف العربية ومعناها في اللغتين القتال والحرب والمعركة .

وفي الفتح القسى في الفتح القدسى
بعماد الدين الأصفهاني « وقد نهك العسكر
طول البيكار ، وأنضاه قتال الكفار ،
بالليل والنهار » ص ٣٩٢ .

وفي المحاسن اليوسفية لابن شداد :
وأسر (أى صلاح الدين الأيوبي) إلى
ثقة عنده أن يمضى إلى الملك العادل ويقول
له : إن نزلوا (يعنى الصليبيين) عن
عسقلان فصالحهم فان العسكر قد
بعضجروا من ملازمة البيكار ، والنفقات
قد نفدت » ص ٢٣٣ .

وفي صبح الأعشى : « مهمات الغائبين
في البيكار المنصور تلحظ » ، وكأنه أراد
بالبيكار ها هنا الجيش إذ وصفه بالمنصور
١١٣٢٤ .

ج بياكر

وفي صبح الأعشى : « فليباشر ناظر
الجيش هذا المنصب السعيد بأمانة تحفظ
أوراق العساكر ، وتجلو الظلام العاكر
ولتكن أوراق البياكر نصب عينيه حتى
إذا طلبت منه أحضرها محورة الخ ١١٣٢٤

— البيكارية : حلقة ذهبية كانت تعلق في
أحزمة الأمراء في العصر المملوكي وهى
منسوبة إلى البيكار والبيكار إحدى الصيغ
التي عربت بها الكلمة الفارسية بركار أى
الفرجاء أو الرجل فالبيكارية كاملة

الاستدارة مضبوطة كما قيست بالفرجار .

وقد وردت كلمة البيكار بمعنى الرجل
في شعر لآلئ النبیه يتغزل ، قال رحمه الله .

وفي هندسى الشكل يسبيك لحظه

وخال ونخد بالعذار مطرز

ومذ خط بيكار الجمال بنحده

عذارا علمنا أنما الخال مركز (الديوان ٤٧٢) .

وقد نقل دوزى فعلا اشتقته العرب
من البيكار وهو بيكر أى استعمل البيكار
في رسم دائرة ، ونقل أيضا عبارة (مشى
على البيكار) أى استقام على الطريقة
(بمنتهى الدقة) كما يقال في لغتنا المعاصرة .

وفي النجوم الزاهرة في الحديث عن
الأفضل ناصر الدين محمد ابن الملك المؤيد
إسماعيل « وفي وسطه ، حياصة ذهب بثلاث
بيكاريات أى بثلاث حلقات ذهبية . النجوم
الزاهرة ٩١٠١ »

— التخت : في الفارسية تخت ومعناها
العرش والسرير وكل ما ارتفع عن الأرض
للجلوس أو النوم : والعاصمة للقطر من
الأقطار ، واقتصر اللسان والقاموس
على معنى واحد هو « وعاء تصان فيه
الثياب »

وفي صبح الأعشى : « فجلس مولانا
السلطان (أى الظاهر بيبرس في مرتبة

الملك في أسعد وقت ونال التخت بحلوله
أسعد البخت ثم أورد قصيدة فيها هذا
البيت :

وما كان هذا التخت من حين نصبه :

لغير المليك الظاهر النذب يصلح

١٤,١٥٥

وفي التبر المسبوك للسخاوى « وركب
المنصور أبو السعادات من الدهيشة إلى
القصر السلطاني بأهية السلطنة وشيعة الخليفة
راكباً ، ومشى الأمراء والقضاة فن دونهم
بين يديه إلى أن جلس على تخت الملكة »
ص ٤٢٣ .

وفي النجوم الزاهرة ورد لصالح الدين
الصفدى هذا البيت الركيك :

لا تخت لى يشرف . قدرى به .

إلا إذا ما كنت بى تختلى .

وفي منظومة تعليمية لطيفة في التاريخ
مخطوطة في المكتبة الأهلية ببائيس تحت
رقم ١٦١٥ :

وجلس العادل فوق التخت ،

وكان سلطانا عظيم البخت

١٩ ب

وورد في منظومة أخرى ملحقة بها :

بل خلعه في جلوس التخت

وكان خلعه نهار السبت

٣٤ ب

وفي الخبرى قال السيد جعفر بن محمد
البيتى السقاف :

وتدرعت بالسمور وجلست على تخت

السمور ١١٣٣ د

ووردت بمعنى العاصمة في قول الخبرى

« فتلاقوا مع بونابرتة بعد استيلائه

على تخت النيمسا فهزمهم أيضا ٤,٣٢ .

وقد اشتق أصحاب دواوين الإنشاء

من كلمة التخت فعلا كما اشتقت العرب

فعلا من كلمة تاج وفي صبح الأعشى

وردت هذه العبارة :

« وإن أحق ما اتخذته الملوك ذريعة

لدواعى الابتهاج وأهم ما اهتم به متخت

بتخت أو متوج بتاج إحصاء مذاهب الملوك

السالفة » الخ ٧,٣٠٠ .

وفي نموذج لما يكتب به الكبير الكرج

وردت هذه العبارة « الضرعام السميذع ،

الكرار الغضنفر ، المتخت » . الخ ١,٢٨

أى الذى أجلس على العرش .

وأما التخت بمعنى حقيبة الثياب فقد

ورد في يتيمة الدهر في قول محمد بن

عبد العزيز السوسى :

الحمد لله ليس لى تخت

ولا ثياب يضمها تحت

٣,٤٢٦

وربما كان التخت بالمعنى الموسيقى هو
المراد في هذه الأبيات لأبي بكر محمد
بن المكرم الأنصارى الخزرجى :

أهنيك بالملك يا خير من
أجار البرايا ومن مارها
ومن ليس للأرض ملك سواه
تميل له الخلق أبصارها
وتملك سيب تكفـورها

وتركب بالخيـش أوعارها
وتحكم في المرء حكم الملوك
وتنشد في التخت أشعارها

— التركاش : من الفارسية تبركش الكنانة
أوجعية السهام .

كتب أبو سعيد برقوق في جواب الأمير
نمرلنك : « وأما إرسالك السيف والتركاش
لنا فقد عجبنا منه إلى الغاية ثم قال « وما سمعنا
في التواريخ ولا اتفق قط من جنكيز خان
ولا ممن تقدمه أو تأخره من ملوك مملكته
في زمن من الأزمان أنه أهدى إلى
خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشاً
٧٣٠٩ صبح الأعشى .

وفي النجوم الزاهرة « وألا يركب أحد
من الأمراء بسلاح ولا تركاش ٩١٤١
ووردت بصيغتها الفارسية تبركش بغير
ألف في قول الشاعر :

جعلت فدى الظبي الذى جاء لحظه
إلى سائر العشاق يحمل تركشا
ج تراكيش قال الشاعر .

ظبي من الترك أغنته لوحظه
عما حوته من النبل التراكيش
انظر ترجمة الشاهنامه بقلم البندارى
وتحقيق المغفور له عبد الوهاب عزام
١١٣١

— الجنك : من الفارسية جنك بالجم المشربة
وقد عربت هذه الكلمة الفارسية قدماً
بصيغة (صنج) وتصرف فيها العرب حتى
قالوا في الأعشى : إنه صناجة العرب ،
ولكنهم أخذوا اللفظ ولم يأخذوا الآلة
فالصنج عند العرب قطعتان من صفر
تضرب إحداهما بالأخرى وهو في الفارسية
آلة ذات أوتار ، قال المرحوم الشيخ
أحمد النجفى : آلة من المعازف كانت
في القديم تستعمل في الموسيقى ذات ستة
وأربعين سلكا « وقال شتا ينجاس أنها
العود .

ثم عربت هذه الكلمة مرة أخرى على
قاعدة جديدة وذلك أن العرب جروا في
التعريب الأول على قاعدتهم في قلب الجيم
المشربة صاداً فقالوا صنج كما قالوا في (چين)
الصين وفي (جك) الصك .

ولكنهم في التعريب الثاني اکتفوا
بقلب الحيم المشربة الفارسية جما عربية
والکاف الفارسية كافاً عربية وأخذوا في
المرّة الأخيرة اللفظ والآله جميعاً ، فالجنك
عند المتأخرين آلة ذات أوتار كالجنك
الفارسي قال الشاعر :

لا جنك لي تضرب أوتاره

إلا ثناءً يملئ على جنكلي
(اسم مملوك) النجوم الزاهرة ١٤٤ : ١٠

وفي مخطوطة المغرب والدخيل لمصطفى
المدني .

بعثت لهم بجنكي بعد هذا

لأقتلهم بأطراف الأنامـل

ج جنوك : نقل صاحب كتاب الروضين .

« ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانه
من كثرة الحمور والبرابط والعيدان والجنوك
١٥٥ : ١٠ .

— الدردار (في الفارسية دز بضم الدال
أو دز بكسرهما القلعة ودار بمعنى صاحب
والدردار هو حاكم القلعة .

وفي كتاب الروضتين « فلما علم الشهيد
ذلك سار إلى بعلبك وحصرها عدة شهور
فلما عذوة وترك بها نجم الدين أيوب
والد صلاح الدين دز داراً ١٣٤ .

وفي الجزء الثاني من الكتاب نفسه :
فلما شكى أحضر بالقلعة وضرب على رأسه
فسقطت عمامته فلما أطلق لينزل أرادوا

تغطيته بعماته فلم يفعل وقال والله لا أغطيه
حتى ينتقم الله فلم يمض غير قليل حتى
توفي الدردار المباشر لأذاه .

١٨، ٢

والدردارية اسم وظيفة الدردار وفي
الكتاب نفسه « وأمر له بدردارية قلعة
كواسي » ١٤٣ : ١ . وتصل بكلمة دز كلمة
قهندز فهي فارسية من كهن بمعنى قديم
لغة في الكلمة العامية العربية كهنة فالقهندز
إذاً القلعة القديمة يقول ياقوت ولا يقال
قهندز في القلعة إذا كانت مفردة في غير
مدينة مشهورة .

ويضبط ياقوت اللفظ المغرب على هذا
النحو قهندز بفتح أوله وثانيه وسكون
النون وفتح الدال وزاء .

وفي الجزء الرابع من اليتيمة بتحقيق
المرحوم الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد .

قال أبو الحسن علي بن الحسن اللحام
الحرائي .

كان حرافصار نيز كل أنيز

عذب الله نفسه في حبوس القمنذر
(بالميم) قال المغفور له الشيخ محيي الدين
ولا يستقيم له عندنا وجهه ١ هـ .

وواضح أن النص الذي اعتمد عليه
الشيخ محرف رسمت هاؤه ميًا وصوابه :

عذب الله نفسه في حبوس القهقهة
اتباعاً لضبط ياقوت

والمعنى رماه الله بالسجن في القلعة
القديمة وكانت القلاع القديمة تحول محابس
وسجوناً.

الرثك : من الفارسية رثك براء مفتوحة
ونون ساكنة وكاف فارسية بمعنى اللون
والصبيغ وهي في الاصطلاح التاريخي شعار
(الأرما) والبنديرة.

وفي النجوم الزاهرة « وضار المتحدث
فيهم فطلقتهم العلائي الطويل ، وضرب
رثكه على اصطبل شيخون بالرميلة تجاه
باب السلسلة ١١٥٨.

وفي شعر للشيخ شهاب الدين بن أبي
حجلة التلمساني :

لآل رسول الله جاء ورفعة
بها رفعت عنا جميع الزائب
وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم
إذا ما بدوا للناس تحت العصائب
وفي ديوان ابن النبيه :

بتنا وقد لف العناق جسومنا
في بردتن تكرر وتعطف
حتى بدا فلق الصباح كججفل
راياته رثك المليك الأشرف
ص ٤

وقال أيضا :

يا شبیه الغصون رفقا بصب
نائج في الهوى مع الورقاء
يا لها دمة على الخلد حمرا
بلدت من سوداء في صفراء
فكأنى حملت رثك ابن أيو
ب على وجنتي لفرط ولاء
ويفهم من هذا أن شعار الأيوبيين كان
علامة سوداء على أرض صفراء.

— الدست : في الفارسية دست : كرسي
الحكم وصدر المجلس ومجلس الوزير ،
والمجلس بعامة .

وفي ينتمه الدهر قال أبو بكر الخوارزمي .
وأبيض وضاح الجبين كأنما
حياه قد درت عليه شمائله
يقبل رجله رجال أقلهم
تقيل في الدست الرفيع أنامله
وقال أيضا :

وفي الدست شخص ودت الأنجم إلى
تقابله لو أنهم مجالس
فلا تعجبوا أن يحمل الدست عسكرا
فما كل أمر تقتضيه المقاييس
وفي ديوان ابن النبيه بمدح :
ما بين سدرته وسدة دشته
نبأ يقتر له الكفور الملتحد

وفي الروضتين قال الشاعر :

كأن في الدست منه حين تنظره

شمس النهار و صوب العارض الهن

وفي صبح الأعشى :

وما خلا منهم هذا الدست الكريم إلا
وهم بالأولوية في صدره جلوس ، ولا
تصدى غيرهم لتعاطيه إلا وأقبلت عايه
في أيامه الجسوم وعليه النفوس ١١٢٧٦ .

وفي شفاء الغليل نقل الشهاب الخفاجي
هذا البيت في هجاء وزير :

من آلة الدست ما عند الوزير سوى

تحريك لحيته في حال إماء
(٩٧)

وأما الدست بمعنى القدر الوارد في
في قول العامة بمصر (يكفى من الدست
مغرفة) فربما كان هو الوارد في قول ابن
نباهة (٧٦٨ هـ) .

قلبي بكانون على ناره
وسيدى يلعب في دسسته

(ديوان ٧٨)

- الشربوش : تعريب الكلمة الفارسية
سربوش أى غطاء الرأس وفي النجوم
الزاهرة : فركب وعليه خلعة أطلس ،
بطرز زركش أو شربوش مكلل مزين
(٩٩٩) ووردت كلمة شربوش في

شعر ابن النبيه بمدح الأشرف موسى
الأيوبي ، قال :

أشكو إلى الله ملولاً إذا

قلت انتهى من هجره يبتدى

البدر في مكسر شربوشه
حُفَّ أبليل الشعر الأسود

وقال أيضا :

تري قندس الشربوش فوق جبينه

كأهداب أحداق بيهتن من البدر

ثم عربت الكلمة الفارسية شربوش

مرة أخرى بكلمة طربوش .

والرأى أن هذه الكلمة الأخيرة منحوتة
من كلمتي طرطور وسربوش بإحلال
المقطع العربي (طر) محل المقطع الفارسي
(سر-) وقد نحت العرب المحدثون كلمات
جديدة على نحو ما نحتوا كلمة طربوش ،
ومن ذلك الكلمة الشائعة في مصر (تسهيل)
فهي فيما يقول جان دني نقلا عن بعض
علماء العربية بالقاهرة في عشر العشرين
من هذا القرن منحوتة من كلمتي تسهيل
بالسين المهملة وتشغيل بالشن والغين
المعجمتين .

وكلمة طرطور التي يظهر مقطعها الأول
في كلمة طربوش عربية فصيحة وفي
التاج قال الشاعر :

قد علمت أيشكر من غلامها

إذا الطراطر اقشعر هامها

والمراد بها في البيت الرجل الطويل
الضعيف لا غناء فيه ووردت أيضا بمعنى
الغطاء الطويل للرأس في شعر أبي القاسم
ابن الفضل المعروف بابن القطان المتوفى
سنة ٥٨٨ هـ يهجو أبا الفوارس شهاب
الدين سعد بن محمد الصفي المعروف
بمحيس بيص المتوفى ٥٧٤ هـ قال :

كم تنادى وكم تطوّل طرطو
رك ما فيك شعرة من تميم

فكل الضب واقرض الخنظل اليا

بس واشرب ما شئت بول الظليم

النجوم زاهرة ٦٨٣

ولم تكن كلمة الطرطور بمعنى غطاء
الرأس ضحكة في ذلك الزمان فقد كانت
الطراير تزركش بالذهب والفضة وفي
كتاب السلوك : « يحمل الطراير المذهبة
عليها عمام القطن » (٧٧) .

١٠ - القُلْتُ « الحلقة » من التركية قولاق بمعنى
الأذن وعروة الزنبريل ونحوه .

استعملها المولدون بمعنى معقد الخزام
الذي يدخل فيه أى ما يعرف في العامية
المصرية بالطوق وقد نقل محبى (١١١١ هـ
١٦٩٩ م) هذين البيتين :

وشاح من أحبيته قال لى

وهو الذى فى قوله قد صدق

قد ضاع منى الخصر لما انثنى
أما ترانى دائراً فى القُلْتُ

- الكزلك :

في الفارسية كزلك بكسر الكاف واللام
مدية قصيرة السلاح ، طويلة المقبض ،
كانت تستعمل للبراية ، وينقل شتاً يجاس
في معجمه أنها كانت تستورد من مصر .

وفي التركية كزلك بفتح الكاف وكسر
اللام : حد السيف المقوس .

وفي صبح الأعشى ، في لبس أرباب
المناصب السلطانية في الدولة الأشرفية خليل
بن قلاوون « وأما ثياب أبدانهم فيلبسون
الأقمية الثرية والتكلاوات فوقها ثم القباء
الإسلامى فوق ذلك يشد عليه السيف
من جهة اليسار والصولق (أى الخلالة)
والكزلك من جهة اليمين .

وقد شاع استعمال الكزلك في مصر
لسكين المطبخ حتى زمن قريب .

- الكماج : نوع من الخبز الأبيض ، كان
ينضج بأن يدفن في الرماد وأقدم نص
رأيت فيه الكلمة هو ديوان لغات الترك
لمحمود بن حسين الكشغرى (ت ٤٦٦)
وورد بصيغة كمج ثم رسمها بسم
آتا لاي في ترجمته لهذا المعجم التركى العربى .
Koma

والكلمة من المصدر التركي كوملك بمعنى أن يدفن ، وقد دخلت الفارسية وذكرها صاحب « برهان قاطع » بثلاث صيغ كماج وكماج بالجم المشربة وكوماج براو بعدالكاف ، ولم يذكر أنها دخيلة . وفي خطط المقریزی : وكانت الدولة قد توقفت أحوالها فوفّر من المصروف في كل يوم أربعة آلاف رطل من اللحم وستائة كماجه سميذ ٣٨٠ .

وفي النجوم الزاهرة : وجهزت الأفران وصناع الكماج والجن المقل ٩٥٨ .

ونقل دوزي عن حكاية الحدّاد وهي مخطوطة في ليدن هذه العبارة : كم جامكيتك يا أحمد ؟ قال عشرة دنانير كل شهر وكماجة وثلاثة أرطال لحم في كل يوم وجوخة في كل سنة .

الكنبوش : في الفارسية كن بمعنى الكفل ويوش أى الغطاء .

والكنبوش ما يُستتر به مؤخر ظهر الفرس وكفاه وهوتارة من الذهب الزركش ، وتارة من المخايش وهي الفضة الملبسة بالذهب ، وتارة يكون من الصوف المرقوم ، وبه يركب القضاة وأهل العلم (صبح الأعشى ٢١٣٥) .

ونقل أبو شامة في الروضتين قول العماد الأصفهاني يستهدى نور الدين زنكي كنبوشا :

أصبحت بغلتي تشكى من العر
ى وأسراجها بلا كنبوش
ج كنبایش .

وفي خطط المقریزی : فلبس الجميع التشاريف والخلع والأقبية وأركبوا الخيول المحضرة إليهم من الاصطبل السلطاني بسروج وكنابيش ما بين ذهب وفضة حسب مراتبهم (خطط ١٧٤٢) .

ويستعمل الكنبوش بمعنى الخمار ، وقد نقل دوزي هذا النص : وتتخذ النساء بها (أى بمدينة تلمسان) من الصوف أنواعاً من الكنبایش لا توجد في غيرها .

الوجاق : من التركية أوجاق بضم الهمزة ضمة مبسوطة مضخمة ، ومعناه الأول في التركية الموقد ، وقد عربت الكلمة في صيغة وجاق ، وذكرت في كتاب (بسط مدد التوفيق) في الفتوة ، بمعناها هذا الأول أى الموقد ففي ذلك الكتاب الذي ترجمه Thorning إلى الألمانية سنة ١٨٦٨ يلحق المرشح عهد الفتوة بطريقة : إن قيل لك كذا فالجواب كذا ، وقد ورد به هذا النص^٤ .

إن قيل لك أين انطبخت لقمتك ومن سبكها ومن أكلها ومن كان حاضرها ؟ فالجواب : في وجاق الرحمن انطبخت وحضرها ملائكة المنان وسبكت بالفاخرة أم القرآن . . الخ ص ٤ .

ثم توسع في معناها في التركية فبعد أن كانت تطلق على الموقد أطلقت على كل ما تنفخ فيه نار ، فأطلقت على البيت من وبر أو مدر ، ثم على أهله ، ثم على الجماعة تتلاقى في مكان واحد ، ثم أطلقت على الطائفة من طوائف أرباب الحرف ، وعلى الصنف من أصناف الجند ، وفي الروضتين نقلا عن ابن شداد (٦٣٢) حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وهي هنا بمعنى الخيمة أو المعسكر .

وكانت العساكر العثمانية التي تركت في مصر بعد عودة السلطان سليم أربعة وجاقات ثم زادها ابنه السلطان سليمان سنة ١٥٢٤ وجاقين فصارت ستة وجاقات ثم صارت في سنة ١٥٥٤ سبعة وجاقات هي : وجاق الانكشارية ووجاق العزب ووجاق الحملة ووجاق التفكجية ووجاق الجراكسة ووجاق الحاويشية ووجاق المتفرقة . وقد كان الجرتي يذكر هذه الوجاقات أحيانا باسم البلكات ١٠٣٥ .

arthisans et Commerants au Caire
au XVIII e Siecle 1973

طبع دمشق

الرئيسي :

وما درس من ألفاظ الحضارة في ذلك العصر طائفة من الألقاب ألحقت

بها ياء النسب للمبالغة مثل العالمى والناسكى والكبرى والسفيرى . يقول القلقشندى في اللقب الأخير « ولم يستعمله الكتاب مجردا عن الياء لأن رتبته عالية لا يليق بها حذف الياء ١٤٣٦٦ .

ويقول في لقب الظهيرى : لم يستعملوه مجردا عن ياء النسب لاختصاص المظاهرة بأكابر أرباب السيوف وهو بغير الياء لا يقع إلا على الأدوان منهم » .

وكانت ياء النسب تلحق بأفعل التفضيل المقرون بأل لزيادة المبالغة . فكان يقال في ديباجات بعض الرسائل : الأجلى الأكملى ، الأوحدى .

وكلمة الرئيسى التي نستعملها الآن بقية باقية من العصر المملوكى ، يقول القلقشندى بعد حديثه عن الرئيس بالهمز والرئيس على قيم « والرئيسى نسبة إليه للمبالغة وغالب ما يستعمله الكتاب كذلك أ هـ .

وما زال بعض علماء العربية ينكرون الرئيسى بالياء ويستعملون في مكانه (الرئيس) فيقولون مثلا : التوتر هو السبب الرئيس لضغط الدم أو سبب رئيس لضغط الدم ولكن كلمة الرئيسى

قديمه عاشت من أوائل العصر المملوكي
إلى الآن وقد اصطللحنا جميعا على أنها
الترجمة العربية المثلى لكلمة Principal
فلعل الرئيسى بنسب المبالغة تصحيح
ويستعملها المعرضون عنها ، فهي بمعنى
الرئيس بل هي رئيس و زيادة .
وشكراً لكم أيها السادة والسلام عليكم
ورحمة الله وبركاته .

احمد السعيد سليمان
مضو المجمع



المستشرقون الفرنسيون وتعليم اللغة العربية للأوربيين في الجزائر

1914 - 1830

للدكتور أبو القاسم سعد الله

عندما

يذكر الاستعمار الفرنسي
للجزائر يتبادر إلى

اختصارا قبل الدخول في الموضوع وهي :
أولا : أن الحملة الفرنسية على الجزائر
قد وقعت بعد ثلاثين سنة من الحملة الفرنسية
على مصر ، وهي الحملة التي تركت بصماتها
على الشرق وجعلت الاستشراق الفرنسي
ينشط في تحقيق ما عجز عليه الجيش . وسرى
أن الفرنسيين استفادوا في الجزائر من تجربتهم
في مصر من عدة نواح وخصوصا فيما يتعلق
باللغة العربية .

ثانيا : أن بقايا المترجمين في حملة نابليون
الفاشلة على مصر هم الذين تولوا الترجمة
لجيش بورمون (1) في الجزائر . وكان
من هؤلاء الترجمة رجال « مشاركة » من
مصر وسورية (2) ، ورجال « أوربيون »
من فرنسيين وغيرهم .

الأذهان موقفه من اللغة العربية والمشهور
عنه أنه حارب هذه اللغة بمختلف
الوسائل حتى عجم لسان أهل الجزائر أو كاد
وفرض عليهم لغته الفرنسية . ونحننا هذا ليس
تأكيدا أو نفيا لهذا الموقف ، وإنما هو يتناول
جانبا آخر ، وهو توظيف الفرنسيين للغة
العربية لمصالحهم الاستعمارية في الجزائر ومدى
نجاحهم أو فشلهم في ذلك ، والطرق التي
استعملوها للوصول إلى ذلك الهدف ،
والأشخاص الذين جندوهم لتحقيقه ،
والمراحل التي مرت بها التجربة التي قد تكون
فريدة من نوعها .

وهناك تطورات ارتبطت بهذه التجربة نذكرها

(*) أتى في الجلسة السابعة يوم الأحد ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار)
سنة ١٩٨٩ م .

(1) الكونت دي بورمون كان وزيرا للحربية في عهد شارل العاشر ، وتولى قيادة الحملة للفرنسية ،
وقد عزل بعد أقل من شهر من احتلال مدينة الجزائر لأن انقلابا حدث في فرنسا أطاح بعرش شارل العاشر
وجاء بالملك لويس فيليب يوليو 1830 .

(2) يقول شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، الجزائر 1876 ، أن معظم المترجمين الأوائل في
الجيش الفرنسي كانوا من مواليد بلدان عديدة : سورية ، مصر ، تونس ، الجزائر ، طنجة ، مالطة ،
إلخ . انظر المقدمة .

ثالثا : إن نجاح الحملة الفرنسية وعمليات التوسع في الاحتلال وما رافق ذلك من نشأة الإدارة الفرنسية ومن استيطان آلاف الأوروبيين في الجزائر ، كل ذلك جعل معرفة الفرنسيين للغة العربية أمرا ضروريا لكي يسهل عليهم الاتصال بالجزائريين (أو الأهالي كما كانوا يسمونهم) . فواضح إذن أننا نتكلم هنا عن معرفة الفرنسيين وليس الجزائريين للغة العربية .

فكيف بدأت وتطورت هذه المعرفة الفرنسية للغة العربية في الجزائر ؟

إننا لقد بدأت بتجنيد فرقة من المترجمين لمرافقة الحملة ، أطلق عليها « فرقة المترجمين العسكريين » رغم أن منهم القسيس والمدرس والتاجر وهلم جرا ، وقد كان بعض هؤلاء

من مواليد مصر وسورية وبعضهم من تلاميذ سليفستردى ساسي (1) عميد مدرسة اللغات الشرقية بباريس حينئذ ، ومن المترجمين الشرقيين نذكر زكار الذي تعاون مع دى ساسي على ترجمة البيان الفرنسي للجزائريين قبل نزول الحملة ، وهو من مواليد دمشق (2) . وأثناء وجوده بالجزائر قام زكار بتدريس اللغة العربية للأوروبيين مدة ثلاث سنوات . ومنهم جورج غروى السوري الأصل أيضا والذي وزع البيان المذكور على الجزائريين ثم غامر بحياته وذهب إلى الداي (الباشا) طالبا منه التفاوض والخضوع لمطالب الفرنسيين فقتله ، ومنهم أيضا إبراهيم دنينوس الذي كان من مواليد الجزائر (3) . وقد كتب عدة أعمال عن اللغة

(1) دى ساسي de Sacy (1758—1838) لم يزر الجزائر ، ولكنه شجع على إنشاء كرسي العربية فيها وهو الكرسي الذي تولاها عدد من تلاميذه ، وعلى رأسهم برينييه Bosnier ويعتبرونه « منشىء علم الاستشراق بأوروبا » ومن مؤلفاته قاموس عربي - فرنسي انظر عنه (حوليات معهد الدراسات الشرقية) ، الجزائر م 3 1937 ، ص 1-5 وكذلك عبد الرحمن بدوي (موسوعة المستشرقين) ، بيروت ، 1984 ، ص 226—232 .

(2) جان شارل زكار ، ولد بدمشق سنة 1789 ثم أصبح قسيسا في إحدى كنائس مرسيليا ، وعند الإعداد لحملة الجزائر سمي مترجما فيها مع بقائه على وظيفته الدينية حتى أنه هو الذي ألقى أول قداس في مدينة الجزائر على أثر الاحتلال وبحضور زعماء الحملة ، ثم أصبح ملحقا بمكاتب الولاية للفرنسيين الذين تداولوا على الجزائر إلى عهد بوجو (1845) وفي هذه السنة وضع تحت تصرف أسقفية الجزائر الناشئة .

(3) دنينوس Daminos ولد بالجزائر سنة 1797 ، وقد تعلم العربية وأصبح مترجما بها في إحدى المحاكم بفرنسا وعند توجه الحملة إلى الجزائر (1830) عين المترجم - الدليل لها انظر شارل فيرو (مترجمو جيش أفريقية) ، الجزائر 1876 ، ص 19 انظر عنه أيضا هنري ماسيه (الدراسات للعربية في الجزائر 1830—1930) منشورات (الحملة الأفريقية) ، رقم 356—357 ، 1933 ، ص 2 .

العربية منها معجم عربي فرنسي ، وزع على ضباط الحملة . إضافة إلى جوني فرعون الذي كان من مواليد القاهرة . والذي سيرد ذكره .

وبعد الحملة بدأت عمليات الاحتلال وإقامة المنشآت الإدارية والاستيطان ، واحتاج النظام الاستعماري إلى معرفة البلاد وأهلها ، وكانت اللغة العربية هي الوسيلة الضرورية لهذه المعرفة . وكانت العربية في الجزائر تعتمد ، مثلها في ذلك مثل العربية في مختلف أقطارها ، على الفصحى كلغة ثقافية مكتوبة ، وعلى العامية كأداة اتصال بين السكان متعلمين وأمينين ، بل إن المدن الساحلية ، وخصوصا مدينة الجزائر ، كانت تتوفر على لهجة تكاد تكون دولية ، وتسمى باللغة الافرنجية (Langua Franca)

وهي عبارة عن مفردات خليط يتداولها التجار والبحارة لتضام آراءهم في موانئ البحر الأبيض . وتتألف من كلمات عربية وتركية وإيطالية وأسبانية وبروفانسالية الخ وليست هذه اللغة الخليط هي الوسيلة التي سيفهم بها الفرنسيون الجزائريين ولا هي اللغة الإدارية أو العلمية التي سيعتمدونها في مصالحهم ، فلا بد إذن من البحث عن وسيلة أخرى .

يقول أحد المستشرقين الفرنسيين : لقد كان على « السادة الجدد » (يعني الفرنسيين) أن يستعملوا اللغة العربية في الإدارة وفيهم السكان ولا يمكن مطالبة المهزمين (يعني الجزائريين) تعلم لغة الغزاه فورا . بالإضافة إلى أن نشر اللغة العربية بين الضباط والموظفين كان يعتبر وسيلة قوية للتقارب بين الأعراق (racas) التي يبعدها عن بعضها الأصل والدين والعادات . لقد كان كل واحد مقتنعا بذلك وكان الرأي العام كله مع هذه الفكرة (1) .

فاللغة العربية في الجزائر كانت لغة الحديث منذ قرون ، ودراستها بطريقة جادة يمكن أن تقدم للفرنسيين فوائد جمة ، وذلك بإقامة علاقات عابدة مع الأهالي والتعرف أكثر على الشعب « الذي دعينا ليس فقط لحكمه ولكن لإدخاله بالتدرج إلى عالم أفكارنا وحضارتنا » وبذلك يتعرف الفرنسيون على حاجة الجزائريين ورغباتهم وآلامهم لكي « نجعلهم يتذوقون تحسيناتنا ويتعودون على اعتبارنا كحماة لمصالحهم وممدنين لبلادهم وليس كغزاة تساندتهم الأسلحة » ويضيف هذا المستشرق الخبير في شؤون الاستعمار : أن دراسة أدب الجزائريين سيؤدي إلى معرفة

(1) نقل ذلك كور A. ccour (ملاحظات على كراسي اللغة العربية في الجزائر) ، في المجلة الأفريقية ، رقم 318 ، 1924 ، ص 20 ، نقلا عن فورميسر Fourmestsaux في كتابه (التعليم العدومي في الجزائر من 1830—1880) ، باريس ، 1880 .

عقريتهم وأصالة فكرهم وشعرهم المؤثر ،
ومعرفة كتبهم في العلوم والتاريخ والفقه
والدين ، ومن ثمة معرفة أصول أفكارهم
وأحكامهم وتقاليدهم » (1) وقد عبر أكثر
من واحد على حاجة الفرنسيين إلى تعلم العربية
للأغراض المذكورة (2) . ولكن ذلك لم
يكن محل اتفاق مطلق ، كما ادعى البعض
بل إن هناك من الفرنسيين من ذهب إلى أن
على الأهالي أن يدرسوا اللغة الفرنسية بصفتهم

مغلوبين ، وليس على الفرنسيين أن يدرسوا
اللغة العربية لأنهم هم الغالبون (3) .

وأول من عهد إليه الفرنسيون بتدريس
اللغة العربية للأوروبيين في الجزائر هو جوني
فرعون الذي كان من مواليد القاهرة (4) ،
وكان أول أستاذ للغة العربية في الجزائر في
العهد الفرنسي وقد ألف عدة كتب لتلاميذه
وكون منهم معربين بارزين في صف الجيش

(1) كور ، ص 31—32 .

(2) انظر مثلاً فيرو ، ص 19 .

(3) كتب ذلك ماشويل L. Machuel ، أستاذ اللغة العربية في لاهية الجزائر ، سنة 1875 انظر كتابه (طريقة
لدراسة العربية للعامة (Méthode pour l'Etude de l'Arabe Parlé) ، مقدمة ط . 2 وقد أعيد
طبع للكتاب عدة مرات .

(4) ولد جوني فرعون في القاهرة سنة 1803 وأبوه هو الياس فرعون السورى الأصل ، وقد عمل الياس
مترجماً في الجيش الفرنسي أثناء الحملة على مصر . وبعد خروج الحملة من مصر راق جوني والده إلى فرنسا ،
والتحق بمدرسة اللغات للشرقية بباريس وأصبح سنة 1821 أستاذ اللاتينية في كوايج سان بار ثم في سنة 1825 أستاذاً
للفرنسية في الكوايج المصرى بباريس ، ثم بعد سنتين أصبح مشرفاً على التلاميذ المصريين الضباط بمدينة
طاون . وعند انطلاق الحملة على الجزائر من طولون انضم جوني إليها . وفي سنة 1831 أصبح مترجماً وكاتباً
خاصاً في الإدارة الفرنسية الجديدة بالجزائر وفي سنة 1833 عمل كاتباً (سكرتيراً) ومترجماً للجنة الأفريقية
التي أرسلتها حكومة باريس إلى الجزائر لتحقيق في الأوضاع وتوصي إما بالاحتفاظ بالجزائر وإما بالخلاء
عنها . ولازم جوني اللجنة ثلاثة أشهر مما جعله يتوقف عن دروسه . ويقول عنه فيرو أنه قد أدى خدمات
عديدة ومتنوعة بفرنسا وقد ظل يؤدي هذه الخدمات إلى وفاته بفرنسا (saumur) سنة 1846 انظر عنه
فيرو ، ص 229—232 ، وكور ، ص 21 ، وماسيه ، ص 3—4 .

الفرنسي مثل لاموريسير (1) ، وبيليسيدي
دي رينو (2) ، ودوماس (3) ، الخ .

أما قصة اسناد دروس اللغة العربية إلى
جونى فرعون فمُسَوِّقها باختصار . فقد جاء
إلى الجزائر متصرف مدنى ، اسمه جننى دى
بوسى de Bussy كان يحمل أفكارا حضارية
يريد غرسها فى الجزائر تتلاءم مع سياسة
تأسيسه الدوق دو رفيقو (قائد جيش الاحتلال)
التي قال عنها « إن الجزائر لن تكون فرنسية
فعلا إلا إذا أصبحت فيها لغتنا (الفرنسية)
هى السيدة وانتشرت فيها الفنون والعلوم
التي شرفت بلادنا » وبناء على هذه التوصية
قام دى بوسى بإنشاء مكتبة عامة جعل
نواتها من المخطوطات العربية التي جمعت
من المساجد وغيرها ، ومطبعة عربية —
فرنسية لطبع المنشورات الرسمية ، وجريدة
باسم Le Moniteur Algérien

بالفرنسية لنشر أخبار الحكومة ، ومن ذلك
انشاؤه لدروس فرنسية موجهة لحضر الجزائر
ويهودها ، ودروس بالعربية للأوروبيين .
والملاحظ هو أن دى بوسى جعل دروس
الحضر واليهود إبتدائية ولم يولها الاهتمام الذى
أولاه لدروس العربية الموجهة إلى الأوروبيين
فلم يشترط هناك فى الأستاذ ولا فى المستوى
ما اشترطه هنا ، ولكنه جعل كل الدروس
عامة ومجانية . واشترط فى أستاذ العربية
مؤهلات عالية . فأرسلت إليه الوزارة من
باريس أنها وضعت تحت تصرفه أستاذ اللغة
العربية فى كوليج لويس لوقران Louis le Grand
واسمه أعقوب (يعقوب) المصرى ولكن
هذا توفى قبل التحاقه (4) . عندئذ
أسند دى بوسى تلك الوظيفة إلى جونى فرعون
ووضع تحت تصرفه بناية تابعة للإدارة ،
وهكذا أخذ جونى يعطى دروسا مجانية

(1) لاموريسير ، كان من أتباع حركة سن سيمون ، وتزوج من جزائرية ، وتولى انشئون العربية
فترة فى الإدارة الاستعمارية ، وإليه سلم الأمير عبد القادر سيفه وجواده عند هزيمته سنة 1847 وقد ترقى فى
الجيش حتى وصل إلى رتبة جنرال .

(2) اشتهر بكتابه (الحوليات الجزائرية) فى جزئين وبعد أن تولى عدة وظائف فى الجزائر . عين
قنصلا لبلاده ، فى طرابلس وفى هايبى وغيرهما توفى سنة 1853 أنظر عنه الحملة الأفريقية رقم 11 (1858) ،
ص 419—421 .

(3) يوجين دوماس ، تولى قنصلية فرنسا فى معسكر ، عاصمة الأمير عبد القادر ، 1837—1839 كتب
عدة كتب عن (المرأة العربية) و (الخيول العربية) ، والكتاب الأخير مترجم إلى الإنكليزية وترقى إلى رتبة
جنرال .

(4) كنا مكتوبا فى المصادر الفرنسية (Agcub) ، وكان يعقوب فى خدمة الحملة الفرنسية على مصر ،
ثم خرج معها إلى فرنسا حيث بقى مترجما ومدرسا للغة العربية إلى أن وقع تعيينه فى الجزائر الذى لم ينفذ إذ
توفى قبل التحاقه وكان يعقوب من أقباط مصر ، وقد ألف مجموعة من القصص الخيالية العربية باللهجة
للعامية تحت عنوان (المزهرة Lyre) انظر كور ، ص 24 .

ورسمية للأوروبيين أيام الثلاثاء والخميس
والسبت من الثالثة إلى الرابعة ، ابتداء من
1832 / 12 / 6

وتذكر المصادر الفرنسية أن دروس
جونى فرعون العربية كانت ناجحة للغاية ،
فكان جمهورها الأوربي قد ضاقت به البناية
مما اضطر جونى إلى تبديل المكان عدة مرات
لضيقه . وفى هذه السنة أيضا أصدر جونى
فرعون أول كتاب فى النحو العربى ، وهو كتاب
مدرسى موجه لتلاميذه (1) . وخلال
السنة الموالية أصبح لجونى فرعون درسان
فى العربية — وكلاهما بالعامية — درس عام
يبدأ من منتصف أكتوبر على الساعة الحادية
عشر والنصف ، ودرس خاص بالأشخاص
الذين لا يستطيعون حضور الأول ، ولم تكن
الدروس مجانية بل أنه جعل رسما بـ 45 فرنكا
على الدرس الخاص للفرد ، ومدته ثلاثة
أشهر ، ثلاث مرات أسبوعيا بمعدل ساعة
لكل مرة . وبالإضافة إلى تدريس العربية

(العامية) للأوروبيين ، وتأليف الكتب المدرسية
لتلاميذه ، كلفته الحكومة الفرنسية بوضع
تقرير عن المصطلحات العربية فى القضاء
الاسلامى وفى التوثيق بالمحاكم ، كما أنه ساهم
فى انشاء فرقة خاصة بالترجمين المحلفين
القضائيين (سنة 1835) ، إلى جانب فرقة
الترجمين العسكريين (2) .

ودغم الدور الذى لعبه جونى فرعون فى
تدريس العربية للأوروبيين ونجاحه المتوهم
به فى المجالات الأخرى ، فإنه كان ينظر إليه
على أنه ليس من أصل فرنسى ، وأنه لم يكن
مستشرقاً بالمعنى الدقيق للكلمة وعندما
استحدث الفرنسيون كرسي اللغة العربية

Chaire de langue arabe

فى الجزائر سنة 1832 ، استشاروا عميد
المستشرقين فى باريس فى الشخص الذى
يقترحه له ، فأشار عليهم بتلميذه لويس
بريندييه (3) Breasnier ، ومنذ ذلك الحين

-
- (1) يذكر كور ، ص 24 ، أنه أول كتاب صدر عن المطبعة الحكومية بالجزائر وهو فى اللهجة العامية التى
لا ندرى من أين تعلمها جونى فرعون ، ويذكر ماسيه أن عنوان الكتاب هو (النحو الإبتدائى للعربية
الدارجة أو الجزائرية لاستعمال الفرنسيين) وأنه صدر سنة 1832 كما يذكر نفس المصدر أن جونى فرعون قد حاول
تبسيط الكتاب باصداره فى السنة الموالية بعنوان (موجز النحو العربى المبسط والمنقح) انظر أيضا ماسيه ، ص 4 .
- (2) كان المترجمون العسكريون هم صلة الوصل بين الجزائريين وسلطات الاحتلال ويذكر شارل
فيرو ، ص 86 ، أن سمعة هؤلاء المترجمين كانت سيئة وغير مشرفة إلا ما ندر فقد كانوا خليطا من مختلف
الأجناس ، وأضيف إليهم بعض الأهالى الذين يعرفون شيئا من الفرنسية ، كما انضم إليهم عدد من اليهود
الجزائريين لأنهم كانوا أكثر صلة بأوربا من المسلمين بحكم المعاملات التجارية مع أهلها .
- (3) انظر ماسيه ، ص 5—9 وقد خصص له عبد الرحمن بدوى فى (موسوعة المستشرقين) بضعة أسطر
فقط ، ص 56—57 ، ولم يذكر أن للعربية التى كان يعلمها بريندييه إنما هى العامية ، كما أنه لم يذكر أهداف
التعليم الذى كان يقدمه ، وقد اعتمد بدوى فى ذلك على مرجعين . انظر عنه كور ، ص 27—39 وما بعدها .

تحول درس Cours العربية إلى كرسى Chairc العربية وتولى برينييه مكان فرعون .

وتذكر المصادر الفرنسية أن برينييه خير مؤهل لهذه المهمة. فهو مستشرق بالاختصاص وفرنسي بالأصالة، ومن تلاميذ مدرسة اللغات الشرقية وعلى رأسها دى ساسى ، ومن شيوخه أقطاب الاستشراق الفرنسي عندئذ : كاترمير ، وجوبير ، وغارسان دى طاسى ودى بيرسوفال ، وجان مارسيل . وكان برينييه من مواليد مونتغري Montegris سنة 1814 ، اشتغل فى الطباعة أول الأمر ثم شغف باللغات الشرقية وجاء إلى باريس لدراسها على أهل الاختصاص فى مدرسة اللغات الشرقية . وقد استمر برينييه فى تولى كرسى العربية فى مدينة الجزائر من 1836 ، إلى وفاته سنة 1869 .

وأثناء ذلك ألف عدة كتب لتلاميذه سندها بعضها وشارك فى عدة مشاريع علمية مثل مشروع (اكتشاف الجزائر العلمى) الذى أشرفت عليه الحكومة الفرنسية (1849) ، وتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية (1856) والحملة الأفريقية المحسدة لنشاط هذه الجمعية . كما أنه أخرج أفواجا من المترجمين (العسكريين والقضائيين) والمدرسين للغة العربية فى الجزائر .

افتتح برينييه أول درس له فى العربية العامة خلال يناير 1837 . وتنويعها بالدرس وصاحبه نشرته الجريدة الرسمية عندئذ (لومونييتور) بخلافه . وجاء فيه أن الهدف من هذا الدرس العام هو تعريف الأوربيين بمبادئ اللهجة العامة فى « ممتلكاتنا الأفريقية » (الجزائر) وبمبادئ اللغة المكتوبة . وأشار إلى أن معرفة العربية قد أحس بها جميع الفرنسيين فى الجزائر فهى التى يتكلم بها الأهالى وهى المستعملة فى جميع العلاقات العائلية والتجارية وقال إن كل فرد من الفرنسيين يشعر بضرورة توصيل حاجته إلى الأهالى دون واسطة . ونوه كذلك باللغة العربية فقال إنها غنية جدا فى تعابيرها ، وغنية جدا فى أشكالها ، ورشيقة جدا فى أساليبها ، والفرق بين المكتوبة والمنطوقة يشكل ما سماه الآخرون قبله : العربية الأدبية والعربية الدارجة . وعدد برينييه الفروق بين الفصحى والعامة قائلا إن أصنى اللهجات هى لهجة اليمن حيث تأصلت العربية وحيث ولد (كذا) محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) الذى يعتبر كتابه نموذجاً رائعا إذا لم يكن فى وضوح الأفكار فعلى الأقل فى رشاقة الأسلوب واعتبر برينييه أن اللهجات العربية أخذت تفرق عن بعضها وتبتعد عن الأصل ، وادعى بأن لهجات شمال أفريقية أكثرها ابتعادا (1) .

(1) الدرس (أو المحاضرة) منشور فى (المونييتور) ، يناير 1837 وأورد خلاصته هنرى ماسيه ، ص 5 وكانت عبارة (ممتلكاتنا) هى التى يطلقها الفرنسيون على الجزائر عندئذ، كما أن تعبير أفريقية، والأفريقية كان يطلق على الجزائر وما يتصل بها فى بآء الاحتلال .

كتب برينيه مقالته في (المجلة الآسيوية) أوضح فيها أفضل الطرق لتدريسها . وقدر أي ضرورة أن يقضى الدارس سنة كامئة في تعلم العربية المكتوبة (النصحي ؟) قبل دراسة العامية .

وكانت حصصه الأسبوعية مقسمة كالتالى : ثلاث حصص للتدريب على العربية الدارجة ، وحصص للنحو والاملاء والأسلوب ، وحصص لشرح نصوص عربية أدبية وعلمية ، وحصص لترجمة الرسائل والنصوص الرسمية ، والكتابات المتداولة . وكان برينيه يلح على أن يخدم تعلم اللغة البحث اللغوى والمواد التاريخية والأدبية ، وتوفير الوسائل للفهم والاتصال التلقائى عن طريق التعبير الشفوى الكتابى . كما كان يلاحظ على ضرورة الجمع بين المعرفة النظرية والعملية لكي يخدم أحدهما الآخر . وفى هذا النطاق ألف برينيه مجموعة من الكتب معظمها موجه لطلابه ، ولكن بعضها بقى مرجعا للمدرسى العربية من المستشرقين حتى بعد وفاته (1) .

وقال برينيه عن طريقته في التدريس إنه سيجعل دروسه على قسمين : الأول خاص باللهجة الجزائرية وذلك بتوضيح تعابيرها الشائعة واستعمالاتها وتدريب السامعين عليها . واشترط ضرورة تعلم الحروف العربية سواء تلك التي قال عنها لأنها معروفة في الشرق أو الخاصة بالمغرب العربي والتي قال إنها تختلف في الخط الكوفي أو العربية القديمة . ولاحظ أن الكتب التي تعين على هذا المستوى من الدرس غير متوفرة في وقته إلا قليلا وغير مختصة . أما القسم الثاني من دروسه فقد وجهه إلى الأشخاص الذين لهم معرفة بالعربية والراغبين في معرفة الكتابة ، ول هؤلاء قدم برينيه النظرية النحوية وتطبيقاتها على ترجمة النصوص المختلفة . وقد اختار لهم من هذه النصوص مجموعة من ألف ليلة وليلة لأنها في نظره تعطى لتلاميذه نموذجا بسيطا وسهلا وتعابير سعيدة ومتنوعة . كما عين لهم كتاب النحو للمستشرق دى ساسي وكتاب نحو العربية العامية لبر سوبال . وبعد سنة من تجربته في التدريس بالجزائر

(1) من مؤلفاته :

- 1- ترجمة الأجرومية للصنهاجي والتعليق عليها .
- 2- المجموعة العربية الابتدائية المختارة (Anthologie) .
- 3- مختارات عربية Christonathie وهي التي ضمت عددا كبيرا من الرسائل والنصوص الرسمية وغيرها من الوثائق المعاصرة .
- 4- الدروس العملية والنظرية في اللغة العربية الذي طبع عدة طبعات .
- 5- عناصر الخط العربي ، سنة 1855 .
- 6- مبادئ اللغة العربية ، سنة 1867 وكان برينيه يحسن التركية (العثمانية) والفارسية أيضا ومما يذكر أنه قبل تأليفه للكتب لتلاميذه ، وزع عليهم (1837) معجم المستشرق جان جوزيف مارسيل في اللهجات العامية في الجزائر وتونس ومصر وهو معجم (Vocabulaire) فرنسي - عربي مطبوع في باريس .

وفي مؤلفاته أعطى برينيه لطلابه نماذج من روح الشرق في العناوين التي اختارها بالعربية وفي الألوان والتزاويق للغلاف . مثلاً في كتابه (المختارات) المطبوع سنة 1845 زخرفت صفحة الغلاف الداخلي بزخارف عربية - اسلامية ولونت بألوان متناسقة ، وفي وسطها عنوان الكتاب بالعربية هكذا (جامع المكاتيب في العربية والمغاني الغرائب للشيخ النحوي المدرس أبريني ، لطفه الله به) (1) كما أن كتابه (الدروس العملية والنظرية للغة العربية) قد وضعت له لوحة فنية أمامية ملونة على الطراز العربي - الإسلامي وكتب فيها العنوان بالعربية هكذا (مفتاح كنوز النحو والأدب لفتح علوم العرب) (2) .

وقبل أن نطوى صفحة الحديث عن برينيه نذكر ملاحظتين قاهما عن اللغة العربية بعد تجربته معها . الملاحظة الأولى ما جاء في مقدمة كتابه (المجموعة العربية) من أن العربية غنية فقط بأشكال الكلمات وتنوعها والمترادفات ، وأنها بعيدة عن أن تقدم ، في حالتها الحاضرة وربما في المستقبل ، الطاقات والسهولة التي تقدمها اللغات الأوروبية

الرئيسية ولا سيما الفرنسية (3) . وفي نفس الكتاب انتقد برينيه طريقة الكتابة العربية في الجزائر قائلاً لأنها غير فنية وغير متناسبة الأجزاء بخلاف الشرق حيث الخط وفن الكتابة يمتازان بالدق والتناسب . ولكنه لاحظ أن في فن الكتابة الجزائرية خصائص أساسية لا يدركها المرء إلا بعد الممارسة .

أما الملاحظة الثانية فهي حثه الفرنسيين على تعلم اللغة العربية لكي تكون وسيلة لهم إلى معرفة الشعوب الأخرى . فقد قال في مقدمة كتابه (الدروس العملية) إن اللغة العربية ليست وسيلة فرنسا للاتصال بعالم الأهالي (الجزائريين) فقط بل بالعالم العربي الإسلامي أجمع . وقال إن معرفة اللغة العربية ستجعل العالم الأوروبي يربط علاقات بالشعوب الإسلامية وهي علاقات لا تكفي فيها الكتب بل لا بد فيها من التعبير الشفوي أيضاً (4) .

لأن دور برينيه في ترويج العربية بين الأوروبيين لم يختره لنفسه فقط بل اختير إليه . وكان عليه هو أن ينفذه بدقة ونشاط

(1) اطلعنا على ط . 2 من الكتاب ، باريس - الجزائر 1857 .

(2) طبع عدة طبعات ، 1846 ، 1855 ، 1915 .

(3) المقدمة ، ص 5 ، ط . باريس 1852 .

(4) مقدمة ط . 3 ، 1915 .

لأنه بذلك يحقق أهداف الإدارة الاستعمارية . وهذه رسالة المتصرف المدني بريسون Bresson تشهد بذلك . وكان بريسون قد خلف جنتي دى بوسى فى الإدارة المدنية بالجزائر ، 1836 وقد سارع بكتابة رسالة إلى المفتش العام للتعليم جاء فيها أن مهمة فرنسا فى الجزائر تتوقف على دراسة العربية والتوسع فيها ، وذلك لمعرفة الأهالى والاتصال بهم ، وأنه لا يكفى فى ذلك الاعتماد على بعض المترجمين وقال أن إنجاز الاستعمار Colonisation يتوقف على نجاح برينيه فى مهمته ، وأن الحكومة لم تختره لذلك إلا لثقتها فيه وتقديرها له . وعليه أن يثبت ذلك ، كما عليه أن لا ينسى أن الدرس الذى يلقيه فى اللغة العربية ليس درسا عاديا ، لأنه درس جاء بعد احتلال الجزائر فاكتمل بذلك أهمية سياسية ومنفعة عظيمة . وعلى برينيه أيضا أن يعمل على توسيع المعرفة فى العربية الدارجة ، وأن لا يقتصر فى ذلك على لهجة مدينة الجزائر بل عليه أن يفعل نفس الشئ مع لهجات التل وقبائل زواوة وقبائل السهول والجبال عندما

تستطيع فرنسا الوصول إلى هذه المناطق (1) .

وكان لبريسون مخطط آخر أيضا كشف عنه فى هذه الرسالة التى تعكس اهتمام الفرنسيين المبكر بدراسة العربية كوسيلة للاحتلال والتوسع : فقد جاء فى نفس الرسالة أنه (بريسون) يتطلع بكل رضى ممزوج بالأمل أن يرى الشباب الأوروبى فى الجزائر ، وقد درس العربية واستفاد منها فى الفلاحة والتجارة وفى الوظائف العمومية لأن الإدارة ، كما قال ، تخطط أن لا تقبل فى المستقبل فى هذه الوظائف إلا الأوربيين الذين يعرفون العربية والفرنسية معا ، بل أن المترجمين أنفسهم سيقع تفضيل الذين درسوا منهم فى الجزائر على الذين درسوا خارجها . ومن أجل ذلك طلب بريسون من مفتش التعليم أن يكشف للآباء عن هذه النية ، وأن يطبع الكتب الابتدائية ، وأن يشتري الكتب الضرورية ، وأن يفتح أقساما جديدة للعربية فى المدارس الفرنسية ، وأن يحدث مسابقات وجوائز لهذا الغرض (2) .

(1) كان الإحتلال الفرنسي عندئذ (1837) ما يزال مقصورا على بعض المدن للساحلية .

(2) رسالة بريسون إلى المفتش العام للتعليم نشرتها (لومونييتور) فى 10 فبراير 1837 انظر كور ، ص 33—35 .

والغريب أنه فى الوقت الذى يعلن فيه بريسون عن مخططاته لنشر العربية بين الأوربيين فى الجزائر كان يحرم الجزائريين من تعلم لغتهم وقد استولى الفرنسيون على المؤسسات الدينية والتعليمية ، وحولوا أعدادا منها إلى كنائس وملاجئ ومخازن ودكاكين كما استولوا على الأوقاف الإسلامية التى كانت تغذى للتعليم ورجال الدين والعلم وترعى المكتبات .

ولكن تطلعات بريسون لم تتحقق كلها وبسهولة ، بل أن الطريق كان مليئا بالعثرات والنتائج المخيبة ، كما سنرى . فلم تكن عشرية الأربعين حتى كان نظام معرفة العربية للأوربيين في حاجة إلى اصلاح ومراجعة . وقد بدأ في إصلاح فرقة المترجمين العسكريين سنة 1842 . وذلك باجراء امتحان لهم يتسابقون فيه على تصنيفات ورتب محددة وكان مقرر اللجنة هو برينيه نفسه . وقد ترشح للامتحان عدد من تلاميذه وتقدم خريجو كرسى (حلقة) العربية في الجزائر على من عداهم من المترجمين . وأصبح المترجمون العسكريون هم اليداليين للإدارة الاستعمارية في الجزائر إذ كانت البلاد كلها محكومة بنظام عسكري دقيق (تابع لوزارة الحربية) ، وكانت « المكاتب العربية » التي تتولى شئون الجزائريين منتشرة عبر الأجزاء المحتلة من الجزائر وكان على رأس كل مكتب عربي (1) ضابط فرنسي يعرف العربية بالطريقة

التي كان يعلم بها برينيه . وبذلك النوع من الامتحان أخرج من المترجمين العسكريين من لا هدف له إلا المصلحة الشخصية ، أو المرتزق . ويستعمل فيرو كلمة « التطهير » في هذا المجال .

وأمام حاجة الإدارة الاستعمارية إلى موظفين يعرفون العربية وأمام انخفاض عدد الحضور (2) لدروس برينيه ، فإن الحاكم العام المارشال بوجو ، استصدر مرسوما ملكيا سنة 1845 ينص على أنه ابتداء من 1847 سيكون من المحتم على كل طالب وظيفة من المدنيين أن يكون عارفا بالعربية ولكن هذا المشروع الطموح لم ينفذ في النهاية ، لأن بوجو صاحب الفكرة غادر الجزائر في منتصف 1847 ، ولكن ثورة 1848 بفرنسا قد غيرت نظام الحكم بها كما غيرت من سياسة فرنسا نحو التعليم في الجزائر على العموم (3) .

(1) « المكتب العربي » مصطلح يعنى مركز السلطة الفرنسية لإدارة شئون الأهالي في الأمن والقضاء ونحو ذلك ، وفد بقى إلى سنة 1870 ، ثم انحصر في المناطق الجنوبية فقط .

(2) يذكر كور ، ص 39 ، أن عدد الحضور لدروس العربية قد انخفض تدريجيا حتى وصل إلى 12 شخصا فقط في درس العربية العامة وعشرة فقط في العربية الفصحى . ويعال كور لذلك بقوله إن هجرة الأوربيين إلى الجزائر كانت إلى ذلك الحين (1844) محصورة في المدنيين الأميين بصفة عامة ، وابتداء من 1845 حل بالجزائر شباب متعلم للاستيطان والعيش فيها ، حالما بمستقبل مليء بالوعود .

(3) من ذلك أن قرار 16 أوت 1848 نص على إلحاق المدارس الفرنسية والإسرائيلية في الجزائر بوزارة التعليم مباشرة أما المدارس الإسلامية فقد تركت تحت وزارة الحربية والغريب في الأمر أن مسئول مصلحة التعليم في الجزائر كان يتراسل بطريقتين مختلفتين : فهو يتراسل مباشرة مع الوزير في باريس بالنسبة =

ولكن سنة 1846 شهدت عمليتين تتعلقان باللغة العربية . الأولى أحداث كرسى جديد (أو حلقة) للغة العامية في كوليج الجزائر . ولما هذا الكرسى أجريت مسابقة فاز فيها المستشرق قرقوس Gorgues ومن الطريف أن نعرف أن مواد المسابقة التي جرت تحت إشراف برينبيه كانت تتألف من :

- 1- معرفة نحو العربية العامية .
- 2- عناصر العربية الأدبية (الفصحى) .
- 3- إنشاء بالعربية العامية حول موضوع معين .
- 4- قراءة وترجمة نص من كتاب مفتوح من مخطوط سهل .
- 5- درس حول نقطة في النحو العربي تتعلق بمسألة في كتاب عربي .

أما العملية الثانية فهي أحداث كرسىين للعربية الدارجة في كل من وهران وقسنطينة وقد جرت مسابقة أيضا على نفس النسق لاختيار من يقوم بالوظيفتين . وكانت النتيجة فوز فينيار Vignard الذي تعين لقسنطينة أما كرسى وهران فقد كان من نصيب هادمار Hadamard ، المترجم السابق في مصلحة أملاك الدولة . ومن جهة أخرى لم يطل أمد فينيار في قسنطينة إلا بضعة أشهر ثم حل محله المستشرق شيربونو خريج مدرسة اللغات الشرقية بباريس (1) . وتجدر الملاحظة أن كلا من أستاذ كرسى العربية في وهران

للمدارس الأولى ، أما بشأن مدارس المسلمين فعليه أن يرأس فقط مع الوالى للعام بالجزائر ومن التغيرات أيضا إنشاء أكاديمية التعليم بالجزائر ، سبتمبر 1848 ، وتعين ديلاكروا على رأسها وتسميته عضوا في مجلس الوالى العام ومن الملفت ، للنظر أيضا أن للقرار المذكور لم يشر إلى كراسى العربية الأربعة . وقد يفهم من ذلك أنها تابعة للتعليم الإسلامى ، ولكنها من الناحية المالية كانت تابعة للتعليم للعالمى بفرنسا نفسها انظر كور ، ص 41-42 .

(1) جاك شيربونو Cherbonneau ولد سنة 1813 وتابع دراسته في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، وقد نشر عدة مقالات في المجلة الآسيوية ، وكانت تسميته لكرسى العربية في قسنطينة قد جعلته يكرس جهده لحياة الجزائر العربية وفي سنة 1861 أصبح مدرسا في المدرسة العربية الفرنسية بنفس المدينة ، وبعد سنتين أصبح مديرا للكوليج العربى للفرنسى في الجزائر ، وفي سنة 1871 أصبح مديرا لجريدة (المشرق) وهى جريدة رسمية كانت تصدرها إدارة الجزائر باللغتين العربية والفرنسية . ومن وظائفه في الجزائر أنه أصبح مفتش المدارس العربية - الفرنسية الثلاث وبعد أن فرغ كرسى العربية المغربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس بوفاة البارون دى سلان ، رجع شيربونو إلى هذه المدرسة كأستاذ للعربية العامية (العامية) وقد نشر عدة أعمال تدخل في مهنته مثل الكتب المدرسية ومعجم عربى - فرنسى ، وتصريف الأفعال في العامية وغيرها مما يدخل في دراسة اللهجات ، كما نشر بعض الأعمال التاريخية مثل وثائق حول عبادة الله المهلى ، وتحقيق تاريخى حول الدولة الأغلبية ، وآخر حول عائلة بنى جلاب ، ومقالة عن الأدب العربى بالسودان وقد علق أحدهم على دور شيربونو فقال إنه كرس جهده في الجزائر لصهر العنصر الفرنسى والعنصر العربى عن طريق التعليم انظر ماسيه ، ص 11-13 ولا نجد لشيربونو ذكرا في (موسوعة المستشرقين) لعبد الرحمن بدوى .

وقسنطينة كان يلتقى ثلاثة دروس في الأسبوع بمعدل ساعة للدرس . وقد أعطيت الحرية لكل منهما في التصرف بما يراه مناسبا بعين المكان. ١

ورغم هذا التوزيع الجغرافي لحلقات تدريس العربية للأوربيين وإجراء المسابقات لاختيار أحسن الأساتذة ، فإن النتائج لم تكن في مستوى الاهتمام . وقد انتقد بيليسيه دى رينو حالة التعليم في الكراسى الثلاثة فقال عن الحضور إنهم لا يتجاوزون الستين شخصا وأن حالة الاقبال لا تختلف عن حالة الاقبال على دروس الكوليج دى فرانس . ولاحظ تقرير في نفس الفترة (1848) أنه رغم حماس الأساتذة فإن نتائج الدروس كانت مخيبة للآمال . وقال إن عدد الحاضرين للحلقة وهران كان قليلا . وعلى ذلك بصعوبة العربية في بدايتها ، وقيل إن الحاضرين يكثرون في أول السنة ثم يتناقص عددهم بعد برودة الحماس الأول ولا يبقى منهم إلا عدد ضئيل (١) .

ولم يسع وزارة التعليم لإلا تكوين لجنة سنة 1849 مهمتها اقتراح الوسائل لنشر العربية بين الأوربيين والفرنسية بين المسلمين في الجزائر فورا . والواقع أنه لا معنى لكلمة « فورا » هنا لأن توصيات اللجنة لم يؤخذ

بها في حينها ، كما سنرى . وكانت اللجنة برئاسة الجنرال بيدو الذى طالما قاد المعارك ضد الأمير عبد القادر ، وعضوية المستشرق الشهير بيرسوفال من الكوليج دوفرانس ، والدكتور بيرون Perron مدير مدرسة الطب بالقاهرة ، وفرديناند بارو Barrot مقرر اللجنة . وفي تقريرها لاحظت اللجنة أن نشر الفرنسية بين الجزائريين سيسهل مهمة الاستعمار ، وأما الوسائل لذلك فهي تهدئة الأوضاع (أى القضاء على المقاومة) والاندماج .

وأكدت اللجنة اضطراب عدد الحضور في دورس العربية التى يتولاها المستشرقون الأربعة ، إذ يبلغ عدد المسجلين في بداية السنة حوالى مائة ثم ينخفضون إلى حوالى 15 في نهاية الفصل ، وأن هذا الحضور يختلف من مدينة إلى أخرى فعدد تلاميذ شيربونو بلغ 15 بينما بلغ تلاميذ هادمار بوهران ستة فقط ، منهم بعض الموظفين الجزائريين وكانت اللجنة على العموم راضية بدروس برينيه ، وقالت إن دروسه مقسمة على النحو التالى :

1- ثلاث حصص أسبوعيا للتدريب الشفوى وتعلم طريقة النطق والقراءة .

2- حصّة لقواعد النحو والإسلاء والأسلوب .

3- حصّة للأدب مع شرح قطع من المؤلفات الأدبية أو العلمية .

4- حصّة لترجمة الرسائل والعقود والكتابات العادية .

وحكمت اللجنة أن نتيجة الدروس العربية تكاد تكون صفرا رغم حماس الأساتذة وأهليتهم ، وقد طالبت بضرورة منح تشجيعات للأساتذة وفتح المجال أمام التلاميذ الدارسين كمجعل الوظائف المدنية مشروطة بإتقان اللغة العربية .

ولاحظت أن المعلمين الفرنسيين في المدارس الابتدائية لا يعرفون العربية .

وتساءلت ما إذا كان من الحكمة الاستعانة بالمتعلمين الجزائريين الذين يعرفون شيئا من الفرنسية في تعليم العربية لأبناء الفرنسيين ورأت أنه من الخطأ ترك المتعلمين الجزائريين

غير موظفين لأن الفراغ يجعلهم يفكرون في العمل ضد النفوذ الفرنسي . بالنسبة للتعليم الثانوي لاحظت اللجنة أن تعليم العربية في الليسيه الوحيد عندئذ هو ساعتان في الأسبوع فقط ، وأوصت أن تدرس العربية يوميا في الليسيه، وتقسم دروسها على مدار السنة ، وشمول دراستها النحو وترجمة كتابات عربية إلى الفرنسية ، وكتابات فرنسية إلى العربية : أما بالنسبة للتعليم العالي (أى مستوى التعليم في كراسى اللغة العربية) فقد رأت اللجنة أنه يحتاج فقط إلى التنظيم والتوسيع والتدعيم لما هو موجود : وأوصت بأن تفتح حلقات أخرى للعربية في عدة مدن أخرى بالجزائر (1) :

ولكن تقرير اللجنة المذكورة لم تكن له نتيجة عاجلة : فقد بقيت كراسى اللغة العربية على ما هى عليه : غير أن خطوات ثلاث تحققت وهى تهدف كلها إلى تشجيع دراسة اللغة العربية : الأولى إنشاء المدارس

(1) نقل ذلك كور ، 45-46 . أما ما يتعلق بتعليم الفرنسية للأهالى ، فاللجنة رأت ضرورته لأن الفرنسية « لغة سيادة » إذ أن الأهالى يستمعون إلى قرارات المحاكم بها وكل الاتصالات الرسمية ستكون بها عاجلا أو آجلا ، كما ستحرر بها كل الوثائق للعامة كما أن الفرنسيين قادرون على دمج الجزائريين وعلى « فرنستهم » في حدود عاداتهم ودينهم انظر أيضا كور ، ص 51 .

الثلاث (1) (1850) : والثانية

إنشاء جوائز سنوية لعارفي اللغة العربية من الفرنسيين طبعا (1851) . والثالثة لإعلان وزارة الحربية عن تفضيلها لعارفي العربية في الوظائف المدنية (1853) .

وبعد أربع سنوات انشئ في الجزائر كوليج عربي - فرنسي موجه لنشر التأثير الفرنسي بين الجزائريين . وكان يضم تلاميذ فرنسيين أيضا . ومن ثمة فإن هدفه ليس كهدف الحلقات الدراسية المذكورة أو

كراسي اللغة العربية : وكان مديرة هو الدكتور بيرون Perron (2) الذي استدعى من مصر لهذه المهمة . وإذا كان البرنامج العام للكوليج في حله ذاته لا يهتمنا هنا ، فإنه يهتمنا منه كراسي اللغة العربية الذي ألحق به سنة 1863 والذي أسند إلى مستشرق مختص هو هوداس . وبعد سنة أنشأت وزارة التعليم كرسيا للهجة الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس وأسندته إلى مستشرق مختص آخر هو البارون دي سلان (3) .

(1) هي ثلاث مؤسسات عربية - فرنسية بالعاصمة وقسنطينة وهران وكان للغرض منها تخريج كوادر جزائرية تحتاجها الإدارة الفرنسية في ميدان القضاء والترجمة والتدريس لذلك كان برنامجها يشمل المواد الفقهية والعربية بالإضافة إلى اللغة الفرنسية وكانت إدارتها تحت عناصر جزائرية إلى حوالي 1895 ثم تولى إدارتها مستشرقون فرنسيون وكان تعاميمها يعتبر عاليا وليس هنا محل الحديث عن هذه المدارس. للتوسع انظر بحثنا (مدارس الثقافة العربية في الجزائر 1830-1954) ، وفي كتابنا (أفكار جامحة) ، الجزائر 1988 :

(2) نيقولا بيرون ولد سنة 1798 ، تابع الدراسة الإنسانية ثم تخصص في الطب ومال إلى اتباع سان سيمون وأثناء ممارسته الطب تعلم العربية في مدرسة اللغات الشرقية ، كما درس الفارسية والتركية ولغة جاوة وكان كلوت باي قد أسس مدرسة الطب في مصر وجاء إلى باريس يبحث لها عن الأساتذة وكان منهم بيرون الذي سافر إلى مصر وهناك واصل دراسة العربية ، وأتى دروسا في الكيمياء وفي الفيزياء وغيرهما ، وبشر أبحاثا في هذه العلوم وترجم رحلة ابن عمر التونسي ، كما ترجم كتاب خليل ابن إسماعيل في الفقه المالكي وفي سنة 1857 ولته حكومته إدارة الكوليج الأمبريالي (العربي - الفرنسي) في الجزائر ، وبعد سبع سنوات سمته مفتشا عاما للمدارس العربية - الفرنسية في الجزائر ، وقد توفي الدكتور بيرون سنة 1876 قريبا من باريس . ومن أعماله أيضا كتاب المرأة العربية قبل الإسلام ، وبعده ، والحاجة الطبية الجزائرية انظر ماسيه ، ص 20-22 .

(3) ولد البارون دي سلان de Slane في بيلفاست (إيرلندا) سنة 1801 وجاء باريس سنة 1830 (سنة احتلال الجزائر) ، وانضم إلى تلاميذ المستشرق دي ساسي وقد أخذ الجنسية الفرنسية ، ونشر ديوان أمرى القيس ومنهجات من كتاب الأغاني ونشر قسما من ابن خلكان ، وأعمالا تتعلق بالمغرب العربي مثل الزويري وابن حوقل وابن بطوطة ، وترجمة مقدمة ابن خلدون وتاريخه وبين 1843-1845 كلفته الحكومة الفرنسية ب مهمة في الجزائر فأرسل إليها تقريره عن أهم المكتبات وعدد المخطوطات في قسنطينة وقد طبع التقرير ثم

كان تدريس اللهجة العامية باللغة الفرنسية هو الطريقة التي اتبعها أساتذة الكراسي المذكورة أو الحلقات . وكان الهدف كما أشرنا هو جعل الأوربيين في الجزائر يختلطون بالأهالي ويعرفون أفكارهم وحاجتهم . وقد أجاب أحد هؤلاء الأساتذة وهو ماشويل الذي تولى تدريس العامية الجزائرية في ليسيه العاصمة ثم في حلقة وهران قبل أن يتولى شؤون التعليم في تونس بعد احتلالها ، قائلا : لو لم نكن في الجزائر ولو لم تكن لدينا حاجة ملحة للاتصال بالأهالي عن طريق اللسان لكنا من الذين يؤيدون البدء بدراسة الفصحى التي هي واحدة ، وهي هي نفسها بالضبط في كل البلدان التي فيها القرآن هو القانون الديني . وقال ماشويل بأن هدفه هو جعل الأوربي يعرف الدارجة العربية كما يعرفها الإنسان

الأهلي الذي لم يدخل المدرسة أبدا ، مضيفا بأن الأوربي سيتفوق بعد ذلك على الأهلي في معرفة الكتابة بالدارجة (والكتابة عموما) كما يتفوق عليه بالذكاء . واستخلص التجربة من تونس حيث الحالية الإيطالية هناك تتحدث مع التونسيين بالعامية ولا تعرف من الفصحى إلا قليلا ، مما جعل لها في نظره تأثيرا قويا على السكان . وقد استفاد ماشويل في طريقة تدريس العامية بآخر التطورات الحديثة في أوربا لتدريس اللغات للشباب ، خصوصا بالنسبة لنظريات تدريس الانكليزية والالمانية وأعمال روبرتسون . واتو ، وولندورف ، مصرحا بأنه استفاد من هؤلاء أكثر مما استفاد من طرق تدريس زملائه الفرنسيين أمثال برينييه وشيربونو (1)

والواقع ان تعليم العربية للأوربيين كان عملية شخصية يقوم بها الأستاذ المستشرق في كل مركز من المراكز المذكورة

سمى مترجما في الجيش الفرنسي بالجزائر ، وكان هو الذي يشرف على لغة البلاغات الرسمية والمراسلات العربية للحكومة مع الجزائريين وهو الذي يعطيها الأسلوب الملائم حتى أصبحت طريقته تقليدا ان جاء بعده وفي 1863 رخص له بتولي كرسى العربية الجزائرية في مدرسة اللغات الشرقية ، وهو الكرسى الذي تحول منذ 1871 إلى العربية العامية بعد أن كان يشغاه بروسفال . ولدى سلان أعمال أخرى حول الحروب الصليبية وغيرها ، وقد أخرج كاتلوع المخطوطات العربية في المكتبة الوطنية بباريس وتوفي سنة 1878 (انظر عنه ماسيه ، ص 13-19 و ليس له ترجمة في (الموسوعة) الدكتور بدوى .

(1) ذكر ماشويل ذلك في مقدمة كتابه (طريقة لدراسة العربية العامية) ، الطبعة الثانية سنة 1875 ونحن نجد صدى ذلك أيضا في مقدمة كتاب : أيدنشانك وكوهين سولال (الكلمات المستعملة في العربية الدارجة) ، الجزائر 1897 فقد قال بأنهما اتبعنا في تدريس العربية نفس الطريقة المتبعة بنجاح منذ عشرين سنة بالنسبة للغات الأنريقية والإنكليزية واللاتينية والألمانية .

فكانت شخصيته وعلمه وغيرته هي التي تجلب اليه الجمهور . ولم يكن لوزارة التعليم ولا للسلطات المحلية مخطط محدد تتابعه في هذا المجال ، كما كان الحال في بداية الأمر خصوصا في عهد بريسون وبوجو مثلا . ورغم أن هذا التعليم كان مصنفا في المستوى العالي ، فإن الأساتذة وجدوا أنفسهم مضطرين إلى أحداث ثلاثة مستويات : ابتدائي في العامة لمن ليس لهم الملم بها ، ومتوسط لمن يرغب في معرفة شيء من النحو وحتى قراءة نصوص من القرآن الكريم ، وعال وفيه تعلم تراجم المؤلفين ومختلف أنواع الكتابة . ويقول نقاد هذا التعليم إنه انخفض لأن العربية لا تعلم في المدارس الابتدائية والمتوسط حيث يتم لأعداد الراغبين في المزيد الأعلى يد الأساتذة المستشرقين (1) .

وخلال السبعينات ظهرت انتقادات أخرى لمشروع تدريس العربية الذي نحن بصددده ، من وجهتين : الأولى أن الحكومة لم تدعم جهود المستشرقين كالمترجمات من العربية ولا الأعمال العلمية المتصلة بالتراث

العربي الإسلامي سواء في الجزائر أو خارجها ، باستثناء تمويلها لمشروع اكتشاف الجزائر العلمي وترجمة دي سلان لتاريخ ابن خلدون . والثانية أن النظرة السائدة سواء عند السلطة أو عند مؤلف الكتب المدرسية الموجهة للأوربيين الراغبين في العربية نظرة تقوم على مبدأ واحد وهو أن العربية مجرد وسيلة للاتصال مع الأهالي وأداة للتوغل السياسي . أما العربية كعامل ثقافي ووسيلة للاطلاع على كنوز حضارتها اللامعة النائمة في الكتب المؤلفة بها كما يقول ماسيه فهذا ما لم يحدث قبل إنشاء المدارس العليا والكليات الجامعية .

ويؤرخ الدين تتبعوا الدراسات الاستشرافية في الجزائر نشأة هذه المدارس العليا بسنة 1879 ففي هذا التاريخ أنشئت ثلاث مدارس هي الآداب والعلوم والحقوق (وسبق لمدرسة الطب أن تأسست منذ 1857) . وكانت هذه المدارس الأربع هي نواة جامعة الجزائر التي أعلن عنها رسميا سنة 1909 بعد تحويل المدارس العليا المذكورة إلى كليات . وبهنا

(1) أنظر النقد الذي ورد في تقرير مفتش التعليم في الجزائر في (الإحصاءات العامة) سنة 1873—1875 كما نقله كور ، ص 95—62 وقد لاحظ صاحب التقرير أنه كان الأولى لأبناء الأفرانسيين في المدارس الابتدائية بالجزائر أن يدرسوا العربية بدل الإيطالية أو الأسبانية ولاحظ أن عدد الحضور للدروس كان يتراوح بين 20—30 في الشتاء ، و15—20 في الصيف ، معتبرا ذلك تعليما محدودا جدا ولا يحقق النتائج المرجوة ولكنه لاحظ أن وزارة التعليم رفعت أجرة أستاذ الكرسى إلى ألف فرنك .

من هذه المدارس الأربع مدرسة الآداب :
 فهي التي ضمت قسما صغيرا للدراسات
 الاستشرافية ، كما ضمت كرسيًا للغة العربية
 وآخر للآداب العربي : وقد تولى هوداس (1)
 كرسي اللغة العربية بمساعدة بلقاسم بن
 سديرة أحد الجزائريين الذين تكونوا في
 مدرسة الاستشراق الفرنسي وساهم فيها
 بفعالية بتدريسه وتأليفه : وبالإضافة إلى
 ذلك تولى ريني باسيه (2) تدريس مادة
 الآداب العربي : ولم يلبث هوداس أن غادر

الجزائر (1884) إلى باريس ليتولى هناك
 تدريس العامية الجزائرية في مدرسة اللغات
 الشرقية خلفا لشيربونو . وقد حل باسيه
 محل هوداس في كرسي العربية بالجزائر ،
 كما حل ادمون فانيان (3) محل باسيه في
 مادة الأدب العربي .

ويعتبر هذا العهد (1880—1905) هو
 العهد الذهبي للمستشرقين الفرنسيين في
 الجزائر وهو العهد الذي كلل بانعقاد المؤتمر

- (1) ولد أوكشاف هوداس Haudas في لوتارفيل سنة 1840 وتوفي بالجزائر سنة 1916 وقد حل بها سنة 1863 عند استلامه كرسي العربية في الكوليج للعربي - الفرنسي وبقى في الجزائر إلى سنة 1884 حيث عمل أيضا أستاذا في لپسيه العاصمة ، وتولى كرسي العربية بوهرا ن ، وكرسي العربية بمدينة الجزائر ، ثم افتتح تعليم العربية في مدرسة الآداب العليا عند إنشائها سنة 1880 نشر هوداس مؤلفات موجهة لتلاميذه وكذلك ترجم تحفة ابن عاصم في الفقه المالكي وهو للعمل الذي شغله قرابة عشر سنوات كما ترجم أعمالا تتعلق بتاريخ المغرب العربي عموما وللإسكندرية وبعض صحيح البخاري انظر عنه ماسيه ص 25—27، وكذلك كور ، ص 49
- (2) ولد ريني باسيه Rl Bossei سنة 1855 وقد انجذب منذ عهده الأول نحو اللغة العربية ، ودرس في مدرسة اللغات للشرقية بين 1873—1880 وفي هذه السنة وصل إلى الجزائر حيث أصبح مديرا للمدرسة الآداب العليا ثم عميدا لكلية الآداب إلى وفاته سنة 1924 بالجزائر وقد أتقن أيضا اللغة الحبشية واللبربرية ونشر عن الأخيرة أكثر من 25 عملا ومن تلاميذه في ذلك ديستان Destaing الذي أصبح أستاذا البربرية في مدرسة اللغات للشرقية وقد شمل اهتمام باسيه جوانب عديدة من الدراسات الاستشرافية : اللغة ، للفولكلور للتاريخ ، الدين ، ونشر أعمالا عن الأدب الجاهلي والإسلامي (البردة ، بانت سعاد ، وألف ليلة وليلة إلخ .) انظر عنه الفريد بيل في (أفريقية للفرنسية) ، 1924 ، ص 13—14 و (المحلة الأفريقية) 1924 ، ص 12 وما بعدها وهناك Melange باسمه ضم حوالي 40 صفحة عن أعماله مقسمة إلى أبواب . وماسيه ، ص 27—29.
- (3) ادمون فانيان E. Fanian من مواليد لياج سنة 1846 وقد توفي بالجزائر 1931 اهتم بالترجمة عن العربية وواصل للعمل الذي بدأه دي سلان لا سيما الجانب التاريخي ، من ذلك تاريخ الزركشي عن الموحدين والخفصيين وتاريخ ابن الأثير عن المغرب والأندلس ، وتاريخ ابن عذاري ، وكتاب الماوردي ، ورسالة للقيرواني في الفقه كما أنه هو واضع كاتلوج المخطوطات العربية والتركية والفارسية في المكتبة الوطنية بالجزائر وفانيان هو الذي تولى تدريس مادة الآداب العربي بعد وفاة باسيه . انظر عنه ماسيه ، ص 29—30، وكذلك (المحلة الأفريقية) 1931 ، ص 139 وما بعدها .

الرابع عشر للمستشرقين العالميين سنة 1905 بمدينة الجزائر والذي حضره حوالي خمسمائة شخص (1) . ولم يحضره من المشرق العربي ، حسب علمنا ، غير ثلاثة من مصرهم : محمد فريد وعبد العزيز جاويش وساطان محمد . ولكن حضره عدد من تلاميذ وأعوان المستشرقين الفرنسيين أمثال محمد بن أبي شنب وعبد الحليم بن سماية والقاضي شعيب بن علي . وليس الحديث عن هذا المؤتمر وما جرى فيه من مهمة بحثنا هذا . وحسبنا أن نقول ونحن بصدد الحديث عن لغة الضاد ، أن الوفد المصري قد انتقد غياب التعليم العربي للجزائريين وقد دخل في نقاش حاد مع الوفد الفرنسي في المؤتمر حول هذه النقطة .

لقد اندمجت كراسي العربية العامة القديمة التي ابتدأت منذ 1832 والموجهة إلى الأوروبيين فأصبح مقرها في المدارس الإقليمية ، فتحول كرسى وهران إلى مدرسة تلمسان العربية - الفرنسية التي

كانت تحت إدارة المستشرق الفريد بيل وتحول كرسى قسنطينة إلى المدرسة العربية الفرنسية أيضا والتي كانت بإشراف موتيلا نسكي إلى 1906 (2) ، أما كرسى العاصمة فقد تولته مدرسة (كلية) الآداب العليا وكذلك المدرسة الثعالبية (العربية - الفرنسية) التي كانت بإشراف ادمون ديستان إلى ذهابه إلى باريس لتولى كرسى البربرية في مدرسة اللغات الشرقية .

ومنذ ما يسمى بعهد إصلاح المدارس العربية - الفرنسية (1895) ثم إصلاحات الوالي العام جوناو (1903-1912) في التعليم عموما ، أصبح على الجزائريين أن يدرسوا هم اللغة الفرنسية « لغة السادة » ولم يعد الأوروبيون مطالبين بدراسة العربية لا باسم تسهيل الاختلاط بالأهالي ولا باسم المعرفة الثقافية للتراث العربي لأنهم كانوا في الحملة يحتقرون هذا التراث ولا يعترفون به ولا باسم الحاجة إلى الترجمة لأن قسم

(1) كان رئيسه هو ربنى باسيه وقد صدرت عن هذا المؤتمر عدة مجلدات في شكل وقائع ومذكرات كما أن الحملة الأفريقية قد خصصت له عددا خاصا .

(2) بدأ موتيلانسكي A. Motilinski حياته مترجما في غرداية بالجنوب ومن ثمة اهتمامه بالمذهب الإباضي والمؤلفات التي ألقت حوله ومنذ 1887 أصبح مديرا لمدرسة قسنطينة العربية - الفرنسية ، ثم أصبح هو أستاذ كرسى العربية فيها (1889) وقد قام بتدريس اللهجات البربرية ، وبشر أبحاثا حول جربة وسكان جبل نموسة ، ووادي ميزاب ومن ذلك بديلوغرافية عن ميزاب ، وأخبار الأيمة لابن الصغير وتوفي سنة 1907 بعد أن قام بمهمات « علمية » في الصحراء انظر ماسيه ، ص 32 .

الاستشراق في كلية الآداب وخريجي المدارس الحكومية الثلاث المشار إليها أصبحوا يمدون الإدارة بما تحتاجه من ذلك . وهكذا وجد الاستشراق نفسه في الجزائر منذ انشاء نواة الجامعة وإصلاح التعليم وأصبح مقصورا على أهل الاختصاص الذين كان عليهم أن يدرسوا العربية العامية والفصحى والبربرية بمختلف لهجاتها . اما الأوروبيون في الجزائر فقد كان لسان حالهم ما قاله ما شويل منذ 1875 وهو « ليس علينا نحن المنتصرين أن نتعلم اللغة العربية ، بل الواجب على الأهالي أن يدرسوا لغتنا » . وقد رفضوا حتى « التنازل » على هذا الحق — كما نصحههم ما شويل — حق الانتصار والسيادة !

ومن الصعب أن نعدد أعمال المستشرقين بعد أن آلت اليهم دفعة الدراسات العربية في الجزائر (1) بعد أن انتزعوها من أيدي المترجمين ومؤلفي الكتب المدرسية بالعامية وما شاكلها . ولكن أهم النواحي التي اهتموا بها هي : المعاجم . واللسانيات والخطوط والنقوش والتاريخ الديني ، وتحقيق النصوص والترجمة في ميادين الأدب والتاريخ والعلوم والجغرافية والفقه بالإضافة إلى أعمال انثروبولوجية وفولكلورية الخ . ومادام

هذا البحث خاصا بتدريس العربية فلن نتوسع في ذكر أعمال المستشرقين الأخرى .

وقد تبين من هذا البحث أن العلاقة بين الاستعمار والاستشراق في الجزائر كانت وطيدة وأن الحديث في ذلك إنما هو محض تكرار لاطالة منه . ولكن هناك نقاط أخرى يمكن أن نستخلصها وهي :

1— ان عزم الفرنسيين على البقاء في الجزائر وهجرتهم إليها واستيطانهم لها ترتب عليه الاهتمام بلغة السكان فحاولوا تعلمها ليفهموا أهلها ويسهل عليهم التعامل معهم قبل ان يتوطد حكمهم وتنتشر لغتهم وتأثيرهم . وقد أدى ذلك إلى اهتمام خاص بدراسة اللهجات الجزائرية العربية وغير العربية فألفوا فيها الكتب المدرسية ، ودونوا أمثالها وكتابتها وتعابيرها ودرسوا الفروق بينها من منطقة إلى أخرى . وكذلك الفروق بينها وبين اللهجات العربية الأخرى التي امتدت إليها معرفتهم . ولكن ذلك لم يخل من مغامرة كالقول بأن اللهجات العربية في شمال افريقية ابتعدت أكثر من غيرها عن العربية الأم . وقد رأينا انهم أنشأوا عدة كراسي للعامية في الجزائر ثم أضافوا إليها كرسي العامية الجزائرية في مدرسة اللغات

(1) اشتملت دراسة هنري ماسيه (الدراسات العربية في الجزائر) على بيباوغرافية مبوبة بأعمال المستشرقين والمترجمين معا .

الشرقية بباريس وآخر عن البربرية في نفس المدرسة .

2- أن الجزائر أصبحت منطلق نشاط الاستشراق الفرنسي مبكرا . فقد وقعت مخطوطاتها ووثائقها وآثارها بين أيدي المستشرقين فتصرفوا فيها تصرف المالك في ملكه ، وضاعت معهم اليوم ثروة هائلة من ذلك بعد أن استولوا عليها بطرق مختلفة تحدث عن بعضها كبارهم من أمثال بروجر ودي سلان وفانيان . ومن الجزائر انطلقوا أيضا فيما يسمى « بالمهمات العلمية » إلى كل من تونس والمغرب والسنغال وتمكنو وغدامس الخ . فتحدثوا عن المخطوطات والمكتبات هناك ووصفوها وفهرسوا بعضها ونقلوا منها ثم نشروا من ذلك ما يفيدهم ويفيد دولتهم .

3- انه في الوقت الذي أنشئت فيه الكراسي المذكورة ونشطت بالجزائر ونحوها كانت الإدارة الفرنسية ، بمباركة هؤلاء المستشرقين ، تستولي على مؤسسات التعليم العربي في الجزائر وتحولها عن أغراضها وتصادر جميع أوقافها وترمي بالأطفال الجزائريين في حضن الجهل حتى لقد قال اليكسيس دي طوكفيل سنة 1848 : لقد أطفأنا الشموع (وهو يعني المدارس) التي جئنا لنضيئها . وآخر ما صدر عن الإدارة المذكورة في محاربة المدارس العربية والتعليم

العربي للجزائريين هو مطالبة كل من يرغب في فتح مدرسة أو إعطاء درس أن يحصل على رخصة مسبقا حسب قانون أكتوبر 1892 ، ولكنه لن يحصل عليها على كل حال . وهذا القانون هو الذي سلطته الإدارة ضد جمعية العلماء الجزائريين ، وحركة ابن باديس عامة ، عندما عملوا على احياء التعليم العربي - الإسلامي .

4- وسواء تعلق الأمر بالمرحلة الأولى أو الثانية في تدريس العربية للأوروبيين ، فقد كان واضحا ومعلنا بأن الهدف من ذلك هو التوغل السياسي ، وتسهيل مهمة الاتصال بالأهالي ، ومساعدة الأوروبيين على ممارسة تجارتهم وفلاحتهم ، وليس دراسة العربية الفصيحة والاطلاع على ثقافتها وإحيائها ، كما وقع مثلا في الشام على أيدي بعض الجمعيات التبشيرية . فالنشاط اللغوي الفرنسي في الجزائر كان سلبيا بالنسبة للغة العربية وحضارتها .

5- وقد صنف هؤلاء المستشرقون اللغة العربية ثلاثة أصناف : العربية الدارجة وهي التي أخذوا في دراستها منذ بداية الاحتلال ، وظلوا لا يعترفون إلا بها في الجزائر ، كنوع من « الفولكلور » المحصور في بيئات صغيرة ، ولذلك فإن تعليم العامية الجزائرية كان يتم بالفرنسية ، وكانت كتبهم تقرأ من اليسار إلى اليمين ، وحتى

الجزائريين الذين تخصصوا في اللغة العربية أيام الاستعمار كانوا يتخصصون في اللغة العامية — باستثناء من دخل منهم المدارس الحكومية الثلاث التي أشرنا إليها ليمتخرج قاضيا أو مترجما . المصنف الثاني العربية الكلاسيكية (هكذا يسمونها) وهي لغة الأدب القديم بما فيه القرآن الكريم والحديث الشريف وأمّهات كتب التراث . وقد اعتبر المستشرقون هذا المصنف لغة ميتة مثل اللاتينية والإغريقية لا يدرسها الا أمثالهم للاطلاع على حضارة العرب والإسلام والاستفادة من ذلك لدولتهم في معاملاتها مع الأقطار العربية والإسلامية . اما المصنف الثالث فهو ما أطلقوا عليه العربية العصرية أو الحديثة ، وهي عندئذ لغة الجرائد والكتب المطبوعة حديثا والتي كانت متداولة في المشرق العربي . وهذه اللغة كانت في نظرهم « أجنبية » فكانت صحنها ومجلاتها

وكتبها تدخل الجزائر أحيانا ولكنها كانت تعامل معاملة المطبوعات الأجنبية : وبناء على ذلك فان الصحيفة العربية التي تصدر بالجزائر مثلا كانت تخضع لقانون الصحافة [الأجنبية الذي لا تخضع له الصحف الصادرة في فرنسا نفسها :]

6- ومع ذلك فان جهود هؤلاء المستشرقين في دراسة وتعليم اللهجة الجزائرية وفي نشر وتحقيق وترجمة مجموعة من كتب التراث هي جهود جديرة بالتنبؤ . يضاف إلى ذلك أن عددا من الجزائريين قد تتلمذوا عليهم وأصبح بعضهم في طليعة الباحثين والمؤلفين في نفس الميدان . ونكتفي هنا بذكر بلقاسم بن سديرة (1) الذي ألف مجموعة من الكتب المدرسية التعليمية منذ أواخر القرن الماضي . ويختلف محمد بن أبي شنب (2) عن زميله في عنايته بالتراث العربي وتحقيق

(1) من كتب ابن سديرة : موجز النحو العربي ، ودروس تطبيقية في اللغة العربية ، ودروس في الأدب العربي ، ومعجم عربي - فرنسي وآخر فرنسي - عربي ، والدروس التدرجية من الرسائل العربية المخطوطة وقد سماه بالعربية هكذا : (كتاب الرسائل في جميع المسائل) ، 1893 بالجزائر ولابن سديرة تأليف في البربرية أيضا (القبائلية) وقد أصبح أستاذا بمدرسة الآداب للعليا وبالمدرسة النورمانية وعضوا في الجمعية الآسيوية بباريس .

(2) حصل ابن أبي شنب على الدكتوراة من السوريين ، واشتغل أستاذا للأدب العربي في كلية الآداب بالجزائر ، وهو من تلاميذ ريني باسيه وقد حضر عدة مؤتمرات دولية للمستشرقين (استكهولم ، لندن إلخ) وكان عضوا في المجمع العلمي العربي بدمشق ومن تلاميذه المستشرق البارز الفريد بيل أستاذ كرسى للعربية ومدير مدرسة تلمسان العربية - الفرنسية وحياة ابن أبي شنب وأعماله منشورة في (محمد بن أبي شنب) تأليف عبد الرحمن الجيلالي ، ط 2 ، 1983 وكتاب (أعلام الجزائر) لعادل نويهيض ولنا بحث حوله سميناه (بين علماء الجزائر وعلماء الشام) في كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة) ، 1983 .

العديد من المخطوطات . والغريب أنه لم يظهر بعد الفترة التي تناولتها علماء جزائريون في مدرسة الاستشراق الفرنسي في مستوى ابن أبيديره وابن أبي شنب (ما عدا ربما صوالح) رغم أن مدرسة الاستشراق في الجزائر قد شقت طريقها وأسست لها حوالى سنة 1933 مع هذا نخاصا سمته معهد الدراسات الشرقية ، ونشرت (حوليات) باسمه ظلت تصدر إلى 1962 تاريخ استقلال الجزائر .

وما دام البحث عن المستشرقين واللغة العربية في الجزائر فلنختمه بتعليق الشيخ عبد الحميد بن باديس على تصريح المستشرق الشهير لويس ماسينيون حول اللغة العربية . كان ماسينيون في طريقه إلى مصر لحضور دورة مجمع اللغة العربية الذي كان عضوا فيه ، وعند مغادرته فرنسا صرح بأن على فرنسا الاهتمام باللغة العربية لأنها « ليست غريبة عنا ، بل هي جزء من تراثنا القومي . » وعندما قرأ ابن باديس هذا التصريح كتب قائلا : إن ماسينيون يعرف موقف حكومته

في الجزائر من اللغة العربية ومن التعليم العربى الحر ، ومع ذلك لم يرفع أصبعه ، وأنه لو أراد حقا خدمة اللغة العربية « لقد قدم تقريرا رسميا دعا فيه حكومته إلى اعتبار العربية لغة رسمية وإلى حرية تعليمها في الجزائر ، ثم ناقشه في دعواه أن العربية جزء من التراث القومى الفرنسى ، قائلا ولكن « اللغة هي الطابع الصحيح للقومية التي تعرب عن وحدة الشعور والتفكير ، وعمما يعمها من احساسات الألم وبوارق الأمل ، مما اتحد من ماضيها وحاضرها ومستقبلها . فاللغة العربية انما هي من تراث القومية العربية فقط . كما أن اللغة الفرنسية انما هي من تراث القومية الفرنسقية فقط » وقد ختم ابن باديس رده بقوله : لعل ماسينيون أراد بذلك التصريح المجاملة فقط ، ولكن لا مجاملة في المسائل العلمية « خصوصا في مقومات الأمم وأعز شئ لديها » (1) .

أبو القاسم سعد الله
عضو المجمع المراسل من الجزائر

(1) جريدة البصائر عدد 20 يناير 1939 وكان ابن باديس رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وقد قال ذلك حوالى سنة قبل وفاته (توفي 16 أبريل 1940) ويعنى ابن باديس « بالمجاملة » أن ماسينيون يتقدم سمعة فرنسا في المشرق وخصوصا بين العرب الذين تربطهم بعض الروابط بفرنسا .

الألفاظ العربية في اللغة البربرية

للأستاذ محمد الفاسي

أَلْقَيْتَ

في أحد مؤتمرات
المجمع السابقة بحثاً

عنوانه « البربرية شقيقة العربية » وبينت فيه استناداً إلى النحو والصرف أن البربرية لغة سامية ، وأوردت حججاً على ذلك بالمقارنة مع العبرية والآكادية والأمهرية والعربية الفصحى . ولم أعتبر المفردات العربية التي اقتبسها البرابرة بعد إسلامهم واختلاطهم بالعرب عن اللغة العربية كما هو الشأن في اللغات الإسلامية الأخرى . وإني أشتغل منذ سنين بأثر اللغة العربية على هذه اللغات وهي لغات الأمم العجمية التي بقيت مستعملة في البلاد التي اعتنقت الإسلام ، ولكنها حافظت على لغاتها في المخاطبة وفي نظم الشعر مع استعمال العربية في التأليف الخاصة بالعلوم النقلية ، والعقلية .. وهكذا نرى مثلاً العالم الرياضي الكبير عمر الخيام الفارسي يضع كتبه في العلوم

الرياضية باللغة العربية وينظم رباعياته التي جعلت له شهرة عالمية باللغة الفارسية حتى غطت شهرتها على إنتاجه العلمي خصوصاً عند الغربيين ولم يعرفه العالم العربي إلا في هذا العصر الحديث بتأثير الغرب حيث أخذ العرب يترجمون هذه الرباعيات إلى لغاتهم ولم يكونوا يعرفونه إلا كعالم ، وهذه المناسبة أنه إلى أن خرياته التي تتضمنها رباعياته لا يعنى بها الخمر المسكر وإنما هي إشارات صوفية على غرار الشاعر الصوفي ابن الفارض صاحب الخمرية التي يقول فيها :

شربنا على ذكر الحبيب مُدامة

سكرونا بها من قبل أن يخاق السكرم

فشوهوا بفهمهم السطحي ملهبه وأخذوا يطلقون اسمه على الحانات والمراقص ونحوها وهكذا عن كل الشعراء الذين وضعوا دواوينهم

(١) ألقى في الجلسة الثامنة يوم الاثنين ٢٨ من رجب سنة ١٤١٩ هـ الموافق ٦ من مارس (آذار) سنة

بالفارسية كمولانا جلال الدين الرومي صاحب
المثنوى وفريد الدين العطار صاحب منطق الطير
والسعدى والنظامى وغيرهم ...

حدثكم عن الألفاظ العربية في التركية وفي
السواحلية في مؤتمرات سابقة .

والآن أريد أن أتطرق إلى أساليب اقتباس
البرابرة للألفاظ العربية ولإدخالها في لغتهم .

أولاً : بكيفية عامة يأخذون اللفظ كما
يسمعه ، مثلاً : إن البربرية لا أداة تعريف
فيها أو أنها صارت لاصقة بالكلمة تنكيراً
وتعريفاً فإنهم يأخذون الكلمة بلامها حيث
لا يسمعون الهمزة من - ال - التعريف
فيقولون مثلاً : لكأس وإذا أضافوه إلى الضمائر
يقولون : لكاسينو أى كاسى كأن اللام
أصلية .. وهكذا في كل الكلمات التى تبتدئ
بحرف قمرى . أما التى تبتدئ بحرف شمسى
فيأخذونها بالتشديد كما يسمعونها ، مثلاً :
زيتون وسوق - دروج أى المدارج دق أى
الحلى من دق الذهب أو الفضة أى سبكها .

ومن طرقهم في اقتباس الألفاظ من العربية
أنهم إذا رأوا في كلمة عربية في أولها تاء
اعتبروها مؤنثة لأن التاء عندهم في أول الكلمة
علامة الاسمية للمؤنث . والتاء في الأخير
علامة التأنيث للبشر وللحيوانات وعلامة
التصغير في غيرها من المفاهيم كما في العربية
وعليه فإنهم يستخرجون من الكلمة العربية
التي تبتدئ أو تنتهى بالتاء مذكراً لها ، فتعرب
مثلاً : - والتاء المثلثة تنطق تاء في المغربية -
فقالوا في المذكر : أعلبون وأنشوه على طريقهم
بتاعلمبتوننت والحانوت استخرجوا منه مذكراً

ومثل هذا نراه عند علماء البربر فإنهم
وضعوا كتبهم في العلوم الإسلامية وفي العلوم
العقلية بالعربية ولكنهم على خلاف الأعاجم
الآخرين نظموا الشعر كذلك بالعربية الفصحى
كالشاعر الكبير أبى العباس أحمد بن عبد السلام
الجزاوى شاعر الموحدين مثلاً ، وليس معنى
هذا أنهم لم ينظموا الشعر بالبربرية لكن
نتاجهم بهذه اللغة لم يدون وبقى شعراً شعبياً
يتغنون به في حفلاتهم ويتداولونه فيما بينهم
ولقد جمعت منه الشيء الكثير عندما كنت
منفياً مع جماعة من الوطنيين من سكان القبايل
البربرية .

وكما قدمت فإن البرابرة الذين اعتنقوا
الإسلام أقبلوا على اللغة العربية حتى استعربوا
كلهم ولم يبق من يتكلم البربرية إلا القاطنون
في أعالي الجبال والشيوخ والعجائز ولكن
بسبب تداخلهم مع العرب خصوصاً بعد
دخول موجات الأعراب من بنى هلال
وسليم إلى المغرب الأقصى في القرن الخامس
اقتبسوا من العربية ألفاظاً تبلغ نسبتها أكثر
من خمسين في المائة من لغتهم وهذه نسبة
متوسط الألفاظ العربية في اللغات الأعجمية
فهى تراوح بين سبع وستين في المائة في
الفارسية وسبع وأربعين في التركية وقد كنت

هكذا أحانوا وصغروه بتأخيرات أي دكان صغير .

ومن طرقهم في ذلك أنهم إذا رأوا في كلمة عربية مفردة النون في آخرها اعتبروها جمعاً لأن جمع المذكر السالم عندهم بالنون كما هو الشأن في العربية فثلاً : لسان ظنوه جمعاً واستخرجوا منه مفرداً هو إلس ، وجمعوه على إلسان ويفعلون كذلك بجمع التكسير العربي المنتهى أصلاً بالنون ، فثلاً : المصارن وهي الأمعاء أخذوا منه إصرم بالقلب وجمعوه على إصرمان .

ومن ذلك أنهم يأخذون الكلمة المؤنثة العربية المؤنثة معنى ويجعلون لها علامة الاسم المؤنثة ، وفي آخرها تاء التأنيث المسكنة في لغتهم مثال ذلك العين بمعنى منبع الماء جعلوها تالعينت . وتالاعونت أي الماعون وهو عندهم مؤنث وتادارت أي الدار .

ثم إن الكلمات العربية المؤنثة بتاء التأنيث يأخذونها غالباً كما هي ولكن يجعلون تاءها مسكنة على طريقتهن مثال ذلك لبهينت أي البهيمة مع قلب الميم نوناً ونخببت الخابية أي البحرة ولغابت الغابة ولغابت الغاية .

ومن أساليبهم أنهم يستعملون لأسماء الحرفة الصيغة العربية فعال ويؤنثونها على طريقتهن فيقولون للنجارة : تانجارت .

وللحدادة تاحدات ، وهكذا دواليك وهذه الصيغة البربرية أخذها المغاربة في لغتهم العامية فنقول كذلك : تعطارت وتادباغت لمهنة العطار والدباغ .

وإذا كانت في العربية كلمة تنتهي بتاء أصلية اعتبروها للتأنيث وزادوا في أولها تاء الاسمية للتأنيث مثال ذلك الياقوت بمعنى اللؤلؤ قالوا فيها : تالياقوت .

وكثيراً ما يجمعون الكلمة العربية على طريقة جمعهم فيقولون لجمع الدار أي : تادارت : تيدار جمع تكسير .

ومن الظواهر التي تدل على مقدار تأثير اللغة العربية على البربرية أن البرابرة أخذوا كلمات لا تستعمل في العربية العامية المغربية ومعنى ذلك أنهم أخذوها مباشرة من الأعراب الوافدين على المغرب في حين أهملها المستعربون من قبلهم من المغاربة من أهل المدن وذلك نحو لغمد أي الغمد غشاء السيف وتيمصليحت أي المصلحة ويعنون بها المكنسة .

ومن طرقهم في الاقتباس أنهم أخذوا كلمات عربية وأعطوها معنى خاصاً ليس لها في العربية وذلك مثل آسليخ بمعنى الجلد من سلخ ولفتاح بمعنى شوكة التلقيح تفساؤلا ، وإنسلمن بمعنى الخنة من المسلمين . ولعايل بمعنى الطفل من العائلة ولجبر بمعنى الحراث أي ما يجز .

ثم إن البرابرة يعمدون كثيراً إلى القلب ما بين الحروف في الكلمات العربية عند إدخالها في لغتهم والأدلة على ذلك كثيرة فمن قلب الميم نوناً : تاخذين أي الخاتم . وفي هذا المثال قلبوا كذلك التاء دالا وتالقين أصلها تالقينمت أي اللقمة .

ومن قلب القاف غيناً : إمرغان أي المرق وهو جمع صيغة ومفرد معنى ، لأن اللغسة البربرية لا تستعمل المفرد لما كان مظهره غير كتلة واحدة وليس لهذه الألفاظ مفرد من لفظها . فالهاء مثلاً : سمي أمان الذي إذا جرد من أداة الاسم المذكرة ومن نون الجمع يبقى ما ، وهذه الظاهرة نفسها تراها في العربية حيث يسمى الماء ميم بالإمالة وميم الجمع التي تقوم مقام النون في العربية والبربرية . وهذا مما يؤيد أيضاً أن البربرية لغة سامية ، ومن الأمثلة كذلك : إيردن القمح وطومزين الشعير وهما جمعان .

ومن قلب الطاء ضاداً : آضبيب العليبيب وشرض أي الشرط .

ومن قلب الضاد طاء : لطفط أي الخفضة ، في الرسم وروط أي المقبرة والأصل الروض

ومن قلب الدال تاء : لنتفع أي البندقية من المدفع وفي هذا المثال قلبت الميم نوناً أيضاً .

ومن قلب الدال ضاداً : أمياض : الصياد

ومن قلب الصاد زايًا مفخمة : زوم أي صوم .

والواو المشادة تقلب واوها الأولى قافا . معقدة مثل ذلك : إخكوان أي كأنها إخوان من الخوانين بمعنى السراق عندهم .

ويقلبون لام أل التعريف راء في بعض الكلمات نحو : أربعض أي البعض وأرجسامع أي الجامع بمعنى الكتاب وفي المدن يقال له : المسيد من المسجد وأرجهاد أي الجهاد .

وبعض القبائل تنطق الكاف شيئاً فيقولون مثلاً لمبارك : مبارش وآشريش الشريك ، ولشيل الكيل ولوشيل الوكيل وهذا النطق كان عند بعض قبائل العرب ولا يزال في اللهجة العراقية .

ومن أساليبهم القلب الاصطناعي كما في العربية أعني تقديم حرف على آخر نحو : تاغريفت أي كأنها تارغيفت الرغيفة وشرف أي قطع من رشق .

وأحياناً يتصرفون في الكلمة العربية بشقي الأساليب حتى يحجب نطقها الأصلي ، فمثلاً يسمون المسجد تمزكيدا ومنها أخذ الأسبان اسم المسجد إذ يسمونها Mesquita

ويستعملون أيضاً الإدغام فيدغمون مثلاً الدال في الزون فيقولون : صزوق للصندوق ونم للندم . ونه لنده ... إلخ .

ويدغمون الدال في اللام فيقولون لوالين للوالدين .

وبعد ، فهذه نماذج من الأساليب التي
استعملها البرابرة في نقل ألفاظ عربية إلى
لغتهم ومختلف لهجاتها .

ومن خلال الأمثلة التي أوردتها يظهر
اتساع هذا الأخذ وهو كما قلت يقدر بخمسين
المائة من مجموع اللغة البربرية التي تسمى

أيضاً الأمازيغية لأن البرابرة يسمون أنفسهم
إمازيغن جمع أمازيغ أى الإنسان الأبيض
الحر - ولقد وضعت قاموساً بربرياً عربياً
فرنسياً أنا في صدد إخراجه للدفعه للطبع قريباً
إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

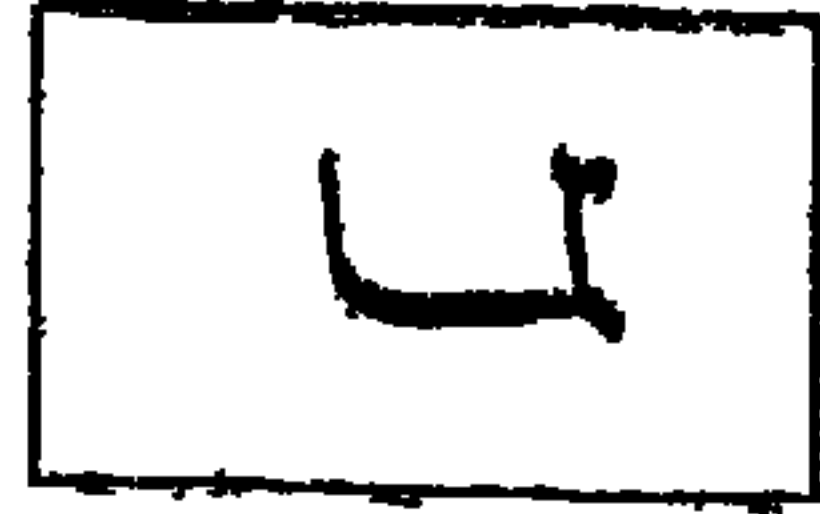
محمد الفاسي
عضو المجمع من المغرب



أجراحة في الإسلام

للدكتور مهدي محقق

الجراحة والجراح :



كان العمل الجراحي
يجرى على أيدي

الأطباء المهرة المدربين ، والآلات والأدوات
الحديدية المناسبة فقد افرقت التعبيرات عن
العمل الجراحي في الطب الإسلامي باليد
والحديد فنشاهد في كتب الطب نظير « علاج
الحديد » ، الأعمال بالحديد » ، « عمل اليد »
« وصناعة اليد » ونحو ذلك . وهذه التعبيرات
هي ما يطلق عليها اليوم اسم الجراحة المترجمة
في كتب الأفرنجية إلى

operative treatment surgery

ويطلق في الكتب الإسلامية على الطبيب
الماهر علماً وعملاً في هذا الفن اسم « جراح »

أو « جرائحي » أو « دستكار » وهي كلمة
وردت من الفارسية إلى العربية .

أما كلمة جراح العربية فهي صيغة مبالغة
من المصدر « جراحة » بمعنى الحرفة أو المهنة
ويعني بذلك الشخص الذي يشق جلد البدن
بالآلة الخاصة حتى يعالج الداء من الداخل
وهذه الكلمة مستعملة في العربية والفارسية
من قديم الأزمان . فالطبري يقول « كان
المجبرون والجراحون يأتون ليربطوا أرجله » (١)
وكلمة « جرائحي » نسبة إلى جرائح جمع جريحة
وكانت هي الأخرى متداولة بين الأطباء .
يقول ابن بطلان : « يحتاج الجرائحي أن
يكون عالماً بالتشريح ومنافع الأعضاء وموانعها
ليجتنب في فتح المواد قطع الأعضاء وأطراف

بادر خوارزمي جوسنكين دل پزشك دست پر مسبار دارد آستین پر نیستر

(*) ألقى في الجلسة العاشرة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار)
سنة ١٩٨٩ م .

المصادر

(١) ترجمة تفسير طبري (تهران ١٣٤٢ هـ . ش .) ، ج ٥ ص ١٢٣٧ .

تراهم على الدواب ومعهم الكلاب والمباضع
يداؤون الرماح وغيرهم من الأفعال (٤٤).

مصادر علم الجراحة في الإسلام :

أشار العلماء المسلمون إشارات قصيرة إلى
الجراحة الهندية والعربية . أما أهم مصادر
هذا الفن فقد توفرت لهم من اليونان ومن
أهم هذه المصادر آثار بقراط وجالينوس .

فعلى بن ربن الطبرى فى كتابه الطبى
ذكر فى مقالة واحدة أبواباً من محاسن كتب
الهند فى الطب وأفضل أدويتهم وفى الباب
الثانى ينقل عن كتاب سسرود Susruta أنه قال :
« أن علم الطب ثمانية أجزاء أطفالي وميلي
وبعضى وجسمى وأرواحى وترياقى وباهى
والمشب » وهو يفسر الميلي بعلاج العين

العضل والأوتار والألياف (٤٥). كما كانت
هذه الكلمة مستعملة إلى جوار كلمة
« طبائعى » التى يراد بها الطبيب غير الجراح (٤٦)
وأما كلمة « دستكار » الفارسية بمعنى جراح
فأخوذة من الكلمة « دستكارى » وهى
ترجمة لكلمة « عمل اليد » وقد وردت فى الأدب
الفارسى . قال ازرقى الهروى : « الريح
الذى يهب من جانب الخوارزم يحكى طبيباً
جراحاً جريئاً يده مليئة بالمسابر وكه
بالمباضع » (٤٧) .

وعند ماروى أبو منصور الثعالبي قصيدة
أبى دلف الخزر جى الساسانية فسر كلمة
« نطاس » الواردة فى هذا البيت :

ومنسا كل نطاس على البر زك مستحري
بأن النطاس « القوى القلب من المستكارين

(١) دعوة الأطباء ، ابن بطلان (القاهرة بدون تاريخ) ، ص ١٥ .

(٢) طب النبى (ص) ، ابن القيم الجوزية (القاهرة ١٣٩٨) ، ص ٢١٠ .

(٣) ديوان حكيم أزرقى الهروى (تهران ١٣٣٦ هـ . ش .) ، ص ٢١ .

(٤) بتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر . أبو منصور الثعالبي (القاهرة ١٣٦٦) ، ج ٣ ص ٣٦٦ كما
استعملت كلمة « دستكارى » فى كتاب الأغراض الطبية ، سيد إسماعيل الجرجاني (طهران ١٣٤٥) ، ص
٤٧٤ يجب أن نذكر أن كلمة « دستكارى » أو « العمل باليد » يشمل أصنافه الستة :

١ - جبر العظم المكسور .

٢ - إصلاح العظم المخلوع .

٣ - البيط .

٤ - الخياطة .

٥ - القطع .

٦ - الكى .

ارجع إلى كتاب دستان الأطباء وروضة الأطباء ، أبو نصر أسعد بن الياس بن المطران (مخطوطة مكتبة
ملك فى طهران رقم ٤٢١٠) ، ص ١٩ .

(٥) فردوس الحكمة ، على بن ربن الطبرى (برلين ١٩٢٨) ، ص ٥٥٨ ترجمة كتاب سسرود
الإنجليزية طبع فى كلكتة سنة ١٩٥٧ .

وهى الحمى التى تعاود الإنسان كل أربعة أيام فالشاعر العربى الشنفرى يقول :

وألف هموم ما تزال تعوده
عيادا كحمى الربع أوهى أثقل^(٤)

وقد رويت عن الرسول الأكرم صلوات الله عليه وآله وسلم أحاديث وروايات تحكى عن أنه فى الحالات التى لاحيلة لها تجب المبادرة إلى الجراحة . منها أنه روى عن على كرم الله وجهه أنه قال : « دخلت مع رسول الله على رجل يعود بظهره ورم ، فقالوا : يا رسول الله بهذه مدة . قال : بطوا عنه . قال على : فما برحت حتى بطلت والنبي شاهد^(٥) . وروى عن أنس هريرة « أن النبي أمر طبيباً أن يبط بطن رجل أحوى البطن ، ففعل : يا رسول الله هل ينفع الطب ؟ قال : الذى أنزل الداء أنزل الشفاء فيها شاء^(٦) »

والمبضع والمرهمات ، وفى موضع آخر ينقل عن نفس الكتاب بهذه العبارة : وينبغي أن يروض نفسه بالمبضع والكى والقلع والخياطة والقطع للجلود ويتدرب على عيون الشاة وما أشبهها حتى يستمر يده^(١) . هذا ، ونشاهد فى كتب التاريخ اشارات مجملة إلى طب العرب من جملة ذلك أن ابن خلدون يقول : « وللبادية من أهل العمران طب يبنونه فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحى وعجائزه وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب كثير وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كلدة وغيره^(٢) » كما أنه يحدث أحياناً أن يشار فى العربية إلى بعض الأمراض مثل « حمى الربع^(٣) »

(١) نفس المرجع ، ص ٥٦٠ .

(٢) مقدمة ابن خلدون (للقاهرة ١٩٣٠) ، ص ٤١٤ .

(٣) هى المعروفة اليوم بالمalaria .

(٤) لامية للعرب للشنفرى ، اللاميات للثلاث (للقاهرة ١٣١١) ص ١٢ وهى المalaria التى أصيب بها

المتنبى بعد ذلك بقرون فقال فى وصفها :

وزائرتى . كان بها حياء فليس تزور إلا فى لظلام
إذا ما فارقتنى غسلتنى كأننا عاكفان على الحرام
أراقب وقتها من غير شوق مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدّها وللصدق شر إذا القاك فى الكوب العظام

شرح التبيان على ديوان المتنبى ، للعكرى (للقاهرة ١٢٨٧) ، ج ٢ ص ٤١٣ / ٤١٤ .

(٥) طب للنبي (ص) ، ص ١٨٥ .

(٦) نفس المرجع .

فبالنظر إلى هاتين الروايتين المذكورتين نستنتج أن رسول الإسلام قد جوز استعمال الحديد في بعض الأمراض وإن كان قد أظهر كراهيته للعمل الجراحي في بعض الموارد كراهية اقتضت ظروفها وكيفية الخاصة وتكون القصة التالية من مصاديق هذه الموارد روى عن الامام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال : « أن قوما من الأنصار قالوا : يا رسول الله أن لنا جاراً » اشتكى بطنه أفئاذن لنا أن ندأويه ؟ قال : بماذا تدأوونه ؟ قالوا يهودى عندنا يعالج من هذه العلة قال : بماذا قالوا : بشق البطن فيستخرج منه شيئاً ، « فكره ذلك رسول الله (ص) فعاودوه مرتين أو ثلاثاً ، فقال : افعلوا ما شئتم ، فدعوا اليهودى فشق بطنه ونزع منه رجرجاً كثيراً » ثم غسل بطنه ثم خاطه ودأواه ، فصيح ، فآخبر النبي (ص) فقال : « إن الذى خلق الأدوية خلق لها دواء » (١) وقبل أن تترجم كتب أطباء اليونان أمثال بقراط وجالينوس إلى العربية . كان عمل الجراحين يتم ببساطة على أساس المعلومات الحاصلة من التجربة

والمهارة في العمل . ولدينا أخبار متناثرة هنا وهناك عن هذا القبيل من العمليات ، منها أن أبا الفرج الأصفهاني قال : « أن سكينه بنت الحسين عليه السلام خرجت بها سلعة في أسفل عينها فكبرت حتى أخذت وجهها وعينها وعظم شأنها ، وكان بدر اقس منقطعاً إليها في خدمتها ، فقالت له : ألا ترى ما قد وقعت فيه ؟ فقال : أتصبرين على ما يمسك من الألم حتى أعالجك ؟ قالت : نعم . فأضجعها وشق جلد وجهها حتى ظهرت السلعة ثم كشط الجلد عنها أجمع ، وسلخ اللحم من تحتها فأخرجها أجمع ورد العين إلى موضعها وعالجها وسكينه مضطجعة لا تتحرك ولا تتن حتى فرغ مما أرد فزال عنها وبرئت منها (٢) »

المصادر اليونانية في علم الجراحة :

أهم ما وصل إلى أيدي المسلمين من المصادر اليونانية في علم الطب كان من الطبيين المشهورين بقراط hippocrates وجالينوس galen وعلماء المسلمين الذين اهتموا بشرح أحوال الأطباء والفلاسفة قد فصلوا القول في ذكر هذين الحكيمين وآثارهما . فابن رضوان المصرى في مستهل رسالته « نبى

(١) دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام ، القاضي الزمان المغربي (القاهرة ١٣٧٩) ، ج ٢ ص ١٤٢ والظاهر أن الرسول كره أن يكون بدن المسلم مورداً للجراحة تحت يد غير المسلم وربما كان هذا لما يجب للمسلمين من مهارة في هذا الفن كما أظهر الشافعي لهذا الأمر بعد سنوات وقال : « لا أعلم علماً بعد الحلال والحرام أنبل من الطب » وكان يتلطف على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول : « ضيعوا ثلث العلم ووكاوه إلى اليهود والنصارى » الطب النبوى ، الحافظ أبو عبد الله الذهبي (للقاهرة ١٣٧٦) ، ص ١٢٥ .

(٢) الأغاني ، أبو الفرج الأصفهاني (للقاهرة دار الكتب المصرية ١٣٤٥) ، ج ١٦ ص ١٦٠ .

المطرق بالطب إلى السعادة « قال » لقد أكمل بقراط صناعة الطب وهذب جالينوس تعليم بقراط ثم ذكر أسماء خمس وخمسين كتاباً من آثار بقراط وبين ترتيب قراءتها على هذا النحو : « وليس هي مرتبة ويمكن أن ترتب ترتيبين أحدهما يليق بأصحاب التجارب وهي أن يبدأ بقراءة قاطيطرون وتفسيره حانوت الطبيب ثم نثني بعده كتاب الكسر والرض ثم كتاب الجبر ثم كتاب الخراجات ثم سائر الكتب العلمية على ترتيب ما ينبغي أن يقرأه شيئاً » بعد شيء فلما فرغت الكتب العملية يبدأ بعدها بكتاب طبيعة الإنسان وترتيب القراءة فيها على ما ينبغي . والترتيب الآخر يليق برأي أصحاب القياس وهو أن يبدأ بقراءة كتاب طبيعة الإنسان ثم يوالى القراءة على ما ذكرت

ويحفظ ظاهر كتاب الفصول وكتاب مقدمة المعرفة فإذا فرغت كتب علم هذه الصناعة يبدى بقراءة كتاب قاطيطرون وما بعده على حسب ما يوجهه العمل (١) وكما نلاحظ فإن كتابي بقراط الهامين الذين يرتبط أحدهما بالطب العلمي والآخر بالطب العملي قد تحصلا لأيدى المسلمين وقد أولى أصحاب التجارب جل اهتمامهم بالجانب العلمي . ويقول بقراط في بداية كتابه قاطيطرون = (حانوت الطبيب) (٢) « وأما الأشياء التي عندها يعمل باليد في حانوت الطبيب فالمريض والمعالج وخدمته وآلاته وأدواته والضوء وأين وكيف وكم وفي أي الأشياء وبأي حال ومتى والجسم والآنية والوقت والجهة والموضع » (٣) ثم بين كلام هذه الأمور بالتفصيل . وكانت أهمية قاطيطرون

(١) مقالة في التطرق بالطب إلى السعادة ، ابن رضوان ، مجلة تاريخ العلوم العربية ، معهد التراث العلمي العربي (حلب تشرين الثاني ١٩٧٨) ، ج ٢ العدد ٢ ص ٤٤٠ .

(٢) كان في اليونان القديم ثلاث مدارس طبية :

١ - أصحاب التجارب Empiricistes

٢ - أصحاب القياس Dogmatistes

٣ - أصحاب الطب الخليلي Methodistes جالينوس في كتابه « في الفرق » وكذلك في « في التجربة الطبية » (اكسفورد ١٩٤٤) تكلم عن الاختلاف بين هذه المكاتب الثلاثة وارجع أيضا « إلى كتاب » جالينوس الفرغامسي « لجورج سارتن (جامعة كانزاس ١٩٥٤) وقد انجز هذا الخلاف بين الفرق الطبية إلى العالم الإسلامي ارجع إلى مناظرة الأطباء في مجلس الواثق بالله التي نقلها المسعودي بالتفصيل في مروج الذهب (بيروت ١٩٧٣) ، ج ٤ ص ٢٧٧ .

(٣) كتاب بقراط المعروف بقاطيطرون (كمبودج ١٩٦٨) ، ص ١ .

بالغة حتى أن جالينوس مع عاو مرتبته قد
فسره ، ونقله حنين بن اسحق من اليونانية
إلى السريانية وترجمة حبيش إلى العربية
من أجل محمد بن موسى (١) .

أما جالينوس فإنه حتى يؤسس أصول
الجراحة فقد ألف كتابين الهامين في علاج
التشريح وفي منافع الأعضاء (٢) وقد صرح
الأطباء المسلمون بأن الجراحى يحتاج أن يكون
عالما بالتشريح ومنافع الأعضاء ومواقعها
ليجنب في فتح المواد قطع الأعضاء وأطراف
العصل والأوتار والاليف (٣) وكانت
معرفة الجراحين الإسلاميين بكتاب جالينوس
المعروف بقاطاجانس في الجراحات والمراهم (٤)
أمرا « الزاميا وذلك لأن الطبيب ينبغي
أن يكون واعيا بكيفية فتح البدن والخياطة
واستعمال المراهم وعيا كاملا وقد فصل جالينوس
هذه الأمور في ذلك الكتاب وهو نفسه كتب

كتبا « متعددة أخرى في علم التشريح لتعين
الأطباء في علم الجراحة ومن أهم تلك الكتب
هى : في اختصار كتاب مارنيس في التشريح
في اختصار كتاب لوقس في التشريح ، فيما
وقع من الاختلاف في التشريح ، في تشريح
الحيوان الميت . في تشريح الحيوان الحى ،
كتابه في علم بقراط بالتشريح ، كتابه في علم
علم أرسطوطلس في التشريح ، كتابه فيما لم
يعلم لوقس من أمر التشريح ، كتابه في تشريح
الرحم ، كتابه في تشريح آلات الصوت ،
كتابه في تشريح العين (٥) وما أن توافرت
هذه المصادر القيمة للمسلمين . حتى تسلطوا
على علم التشريح ومنافع الأعضاء ثم استفادوا
بهذا العلم في قسم الجراحة وعمل اليد بسهولة .
وكتاب جالينوس في علاج التشريح هو نفس
الكتاب المعنون « كتاب جالينوس في عمل
التشريح ما لم يبق منه في اللغة اليونانية » الذى طبع
في مجلدين سنة ١٩٠٦ في لايبزيغ وقد

(١) رسالة إلى على بن يحيى في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعمله وبعض ما لم يترجم ، حنين
ابن اسحق (ليزيغ ١٩٢٥) ، ص ٤٣ والترجمة الفارسية لهذه الرسالة في ص ٤٠٦ من عشرين مقالة في
مباحث العلى والفلسفى والكلامى والفرق الإسلامية ، مهدى محقق (طهران ١٣٥٥ هـ . ش) .

(٢) رسالة حنين ، ص ١٩ و ٢٧ الترجمة الفارسية بيست كفتار (عشرين مقالة) ، ص ٣٨٣
و ٣٩١ .

(٣) دعوة الأطباء ، ابن بطلان ، ص ١٥ .

(٤) لمزيد الاطلاع ارجع إلى « فىلسوف الرى محمد بن ركرىا الرازى » بالفارسية : مهدى محقق ،
(طهران ١٣٤٩) ، ص ٣١٦ .

(٥) رسالة حنين ، ص ٢٠ إلى ٢٣ الترجمة الفارسية « بيست كفتار » ص ٣٨٤ إلى ٣٨٦ .

أورد فيه جالينوس نبذاً من الكتب المذكورة ومن جملة ذلك ما أورد في أوائل المقالة التاسعة على ما يلي :

« والتشريح الذي يكون في بدن حيوان قد مات يتعلم الرجل ويعرف به كل واحد من الأعضاء وعددها وخواصها في جواهرها ومقاديرها وأشكالها وتركيبها فأما التشريح الذي يكون في بدن حيوان حي فمرة يفيد صاحبه معرفة فعل العضو الذي يشرحه بلا واسطة فيما بين ذلك ومرة يفيد معرفة الأصول التي يحتاج إليها في العلم بفعل العضو وإذا كان الأمر في ذلك كذلك معاً فإنه ينبغي أن يكون تشريح الحيوان الحي وتشريح الحيوان الميت يمكن يعالج بضربين أحدهما العضو الذي شرح في موضعه من جملة البدن والآخر العضو الذي قد أخرج عن موضعه من البدن وإفراد وحده (١) .

جراحوا عالم الاسلام :

لقد بحث أطباء العالم الإسلامي أمثال علي بن ربن الطبري في فردوس الحكمة ومحمد بن زكريا الرازي في الحاوي وعلي بن عباس الجوسى في كامل الصناعة وابن سينا في القانون بحوثاً مسهبة في مورد تشريح الأعضاء ومنافعها وأبانوا في موارد متعددة

عن قطع الأعضاء ووصلها وشقها وخياطتها إلا أنه للأسف أن هذه الطريقة في المعالجة قد نسيت على مدى جيلين بعد العلماء المشار إليهم . فهذا صاحب كتاب هداية المتعلمين وكان تلميذاً أبي القاسم المقانعى تلميذ الرازي عندما ذكر عارضة « الفتق » تراه على الرغم من أنه بين عمله الجراحى نظرياً على هذا النحو : « وعلاجه أن يشق جلد البطن فيظهر الشق (الفتق) فيخاط ثم يضعون على الجراحة الدواء اللازم لا بداء اللحم قياساً على أن من فتحت بطنه يجب أن يخاط إلا أنه اعتبر هذا العمل صعباً وختم كلامه بقوله : « ونظراً إلى صعوبة لم يقدم عليه أحد » (٢) .

وهذا المقال وإن لم يكن المجال الذي تقدم فيه كل الجراحين الإسلاميين وكل الكتب التي ألفت في فن الجراحة إلا أننا نحرص أن نتناول بالحديث جراحاً من الشرق وهو محمد بن زكريا الرازي وجراحاً من الغرب وهو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى ونذكر خدمتهما لهذا الفن بشيء من البسيط .

أما الرازي فقد اهتم بالجراحة بالآلات والأدوات الحديدية اهتماماً بالغاً وكتب كتاباً تحت عنوان « في العمل بالحديد

(١) كتاب جالينوس في عمل التشريح ، ترجمة حنين بن إسحق ج ١ ، أول المقالة للتاسعة .

(٢) هداية المتعلمين ، ربيع بن أحمد البخارى الأخوينى (مشهد ١٣٤٤ هـ ش .) ، ص ٥٥١ .

والجبر^(١) وكما يظهر من عنوانه، فقد جمع قوانين الجراحة والتجبير ومقراراتها في مكان واحد وعلاوة على هذا فقد تحدث عن صناعة الجبر في كتابه المنصوري أيضاً^(٢).

كما خصص الرازي فصلاً في كتابه «الحاوي» للتشريح ومنافع الأعضاء باعتبارها أساساً لقن الجراحة وأشار في نفس الكتاب إلى الدقة والغاية قبل العمل وأثنائه وبالمريض بعد العمل. فمثلاً يقول: «قبل العمل يجب أن يعطى المريض أدوية مريحة مسهلة، والليمة قبل العمل يجب أن يحقن المريض حتى تخلو معدته تماماً، وأثناء العمل يبين كيفية انامة المريض مقابل النور ووظيفة الممرض، وبعد العمل يشرح مقررات الأكل والشرب والنوم والنظافة وتسكين الألم^(٣).

ونلتقى بين طيات كتاب الحاوي^(٤) بأنواع العمل الجراحي وأقسامه من ذلك ما يلي من الموارد: في صدد علاج الشعر الزائد في العين أي «مرض الشعر» الذي يعرف بالأفريجية trichiasis يقول الرازي

«تؤخذ حديدته في دقة الأبرة قدر شبر فيعطف رأسها على زاوية قائمة قدر عقد ثم يحمي الرأس جداً ويقلب الحفن ويمده اليك ويوضع على أصل الشعرة المنقلبة فتكويه^(٥) نهما فإنه يحترق وإلا يعود ينبت فإن كان شعراً كثيراً فأكوكل مرة واحدة أو اثنين ولا يكوى حتى يبرأ الأول اعني موضعه. «وفي فتح الحنجرة tracheostomy ومنع الاختناق هكذا يقول: العلاج أن تشق الأغشية الواصلة بين حلق قصبة الرئة ليدخل النفس منه ويمكن بعد أن يتخلص الإنسان وتسكن تلك الأسباب المانعة من النفس أن يخاط ويرجع إلى حاله ووجه علاجه أن يمد الرأس إلى الخلف ويمد الجلد ويشق أسفل من الحنجرة ثم يمد بخيطين إلى فوق وأسفل حتى تظهر قصبة الرئة» ويقول في نهاية هذه القسمة: «فلإذا سكن الورم وكان النفس فليخط^(٥) ويمسك قليلاً وأجعل عليه دروزاً أصغر».

ويشرح الرازي كيفية عمل حصوة المثانة^(٦) وفي مورد المصابين بأسر البول ومن يتعذر

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة (بروت ١٩٦٥)، ص ٤٢٦ له «مقالة في علاج العين بالحديد» عيون الأنباء، ص ٤٢٧.

(٢) نفس المرجع ص ٤٢٣.

(٣) أبو بكر زكريا الرازي حياته ومآثره للدكتور فرات فاتق (بتداد ١٩٧٣)، ص ٦٢.

(٤) الحاوي في الطب، محمد بن زكريا الرازي (حيدرآباد، دائرة المعارف للعثمانية)، ج ٢ ص ٢٦٦.

(٥) الحاوي، ج ١٠ ص ١٥٣.

(٥) الحاوي، ج ٣ ص ٢٥٥.

عليهم الأدرار يقترح استعمال القاثطير Catheter أو المبولة (١) وأخيراً يجب أن نذكر بأن الرازي ربما يكون من الأوائل من أشاروا إلى الجراحة البلاستيكية plastic surgery فهو يبين كيفية هذه الجراحة في الشفة والأنف والأذن حينما تطرأ عليها لحمة ضخمة شديدة ، ويوصي بالعمل بحيث يحتفظ لهذه الأعضاء بصورتها وحالتها الطبيعية حتى يرتفع القبح الناشئ عن اللحمة الزائدة (٢)

وأما الزهراوى فهو ألف كتابه القيم بالتصريف لمن عجز عن التأليف واختص مقالة منه بالعمل باليد وقسمها على ثلاثة أبواب الباب الأول فى الكى بالنار والكى بالدواء ، والباب الثانى فى الشق والبط والفصد والحجامة والجراحات وإخراج السهام ، والباب الثالث فى الجبر والخلع وعلاج الوثى .

يقول الزهراوى فى مبتدء هذه المقالة : « لما أكملت لكم يا بنى هذا الكتاب الذى هو جزء العلم فى الطب بكماله وبلغت الغاية فيه من وضوحه وبيانه رأيت أن أكمله بهذه المقالة التى هى جزء العمل باليد ، لأن العمل باليد محسنة فى بلدنا وفى زماننا معدوم البتة حتى كاد أن يدرس علمه وينقطع أثره وإنما بقى منه رسوم يسيرة فى كتب الأوائل قد صحفته الأيدى وواقعه الخطاء والتشويش حتى استغلقت معانيه وبعدت فائدته فرأيت أن أحياه وأؤلف فيه هذه المقالة على طريق الشرح والبيان والاختصار وأن أتي بصور حدائد الكى وسائر آلات العمل إذ هو من زيادة البيان ومن وكيد ما يحتاج إليه (٣) وفى نفس تلك المقدمة الزهراوى ينصح تلاميذه بهذه العبارة : « يا بنى ينبغى لكم أن تعلموا

(١) الحاوى ، ج ١٠ ص ١٥٣ « القاثطير وهى الآلة التى يبول أصحاب حصر البول » كلمة « قاثطير » يونانية وهى Catheter الإنجليزية وبقراط فى كتاب « فى حبل على حبل » الذى طبع فى مركز مطالعات الشرق الأوسط فى كبرج ١٩٦٨ قد ذكر هذه الآلة وأنهم يدخولونها فى رحم المرأة حتى يخرجوا القيح من الرحم والمترجم الإنجليزي عندما تعرض للعبارة « . . . أن تدخل فى رحمها ميلاسمى بالقافطير » لم يعرف كلمة القافطير (ص القاثطير) وقال معنى هذه الكلمة غير معلوم ، ص ١٢ .

(٢) الحاوى ، ج ٦ ص ٢١٨ حصل التمييز فى عرف الطب بين « التزيين الطبى » و « التزيين التحسينى » ارجع إلى مقالة جالينوس فى أجزاء الطب (برلين ١٩٦٩) ، ص ٢٤ .

(٣) للتصريف لمن عجز عن التأليف ، الزهراوى (جامعة كاليفرنيا ٣ ١٩٠٣) ، ص ٣ مع الترجمة الإنجليزية تحت عنوان : Alleucasis on surgery and Instruments

وطبعت نسخة مصورة منه أيضاً فى موسكو ١٩٨٣ مع للترجمة الروسية للأستاذ ضياء الدين بن موسى يونيا توف تحت إشراف أكاديمية العلوم للاتحاد السوفيتى ، قسم للعلم للتاريخى .

أن العمل باليد ينقسم قسمين عمل تصحبه السلامة وعمل يكون معه العطب في أكثر الحالات وقد نهت في كل مكان يأتي من هذا الكتاب العمل الذي فيه الغرر والخوف فينبغي لكم أن تحذروه وترفضوه لئلا يجد الحاهل السبيل إلى القول والطعن فخذوا لأنفسكم بالحزم والحياطة والمرضاكم بالرفق والتثبت واستعملوا الطريق الأفضل المودى إلى السلامة والعاقبة المحمودة وتنكبوا الأمراض الخطيرة العسيرة البروم ونزهوا أنفسكم عما تخافون أن يتدخل عليكم الشبهة في دينكم ودنياكم فنهوا بني لحاهكم وأرفع في الدنيا والآخرة لأقدراكم ، فقد قال جالينوس في بعض وصاياه لا تداو وأمراض سوء فتسموا أطباء سوء^(١) ومن نصائح أيضا : « وأنا أوصيكم عن الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فإنه قد يقع إليكم في هذه الصناعة صنوف من الناس بضروب من الاسقام فمنهم من قد ضجر بمرضه وهان عليه الموت لشدة ما يجد من سقمه وطول بليته وبالمرض من التقرر ما يدل على الموت ومنهم من يبذل لكم ماله ويغنيكم به رجاء الصحة ومرضه قتال فلا ينبغي لكم أن تتساعدوا من أتاكم ممن هذه صنته البتة وليكن حذركم أشد من رغبةكم وحرصكم ولا تقدموا على شيء من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندهم بما يصير إليه العاقبة

المحمودة »^(٢) وفي مطاوى الباب الثاني الذي جعله الزهراوى سبعة وتسعين بابا يذكر موارد عديده من عمل اليد في كل عضو ولا يجوز لنا أن نطيل هذه المقالة بذكر تلك الموارد وعلى الطالبين الرجوع إلى كتاب التصريف .

وجدير بالذكر أن نذكر أن الزهراوى في كل عمل ينصح كيفية وضع المراهم على موضع الجراحة ويشر إلى الأدوية المناسبة لسرعة البرء ومن جملة ذلك ما يذكر بعد كي الرأس على ما يلي : « خذ شيئا من ملح فحمله في الماء واشرب فيه قطنة فضعها على الموضع واتركه ثلاث أيام ثم أحمل عليه قطنة مشربة في السمن واتركها عليه حتى تذهب الخشكريشة من النار ثم عالجها بالمرهم الرابعي إلى أن يبرء إن شاء الله تعالى »^(٣) وعلى رغم أن كتابه مستوعب لاهم موارد المعمل باليد الزهراوى يشجع تلاميذه بالاجتهاد والاستنباط وقياس الحاضر على الغائب ومن ذلك ما يقول بهذه العبارة : « إن أجزاء هذه الصناعة وتفصيلها لا يدرك بالوصف لا يحيط به كتاب وإنما الصانع الحاذق يقيس بالقليل على الكثير وبما حضر على ما غاب ويستنبط عملا جديدا وآله جديدة عند النوازل الغربية إذا نزلت من هذه الصناعة »^(٤)

(١) التصريف ص ٧ .

(٢) التصريف ، ص ١٦٧ .

(٣) التصريف ، ص ١٩ .

(٤) التصريف ، ص ٦١٧ .

آلات الجراحة وأدواتها :

يستخلص من مطاوى كتب الطب أن الأطباء الإسلاميين كانوا يتجهزون بالوسائل اللازمة والآلات والأدوات المختلفة وكما سيرد ذكره كانت بعض الأدوات ذات صفة عامة " ينبغي لكل طبيب أن يختارها وبعضها الآخر كان مختصا بأنكحاليين والجراحين .

يقول الشيزرى عالم القرن الثامن في كتابه : ينبغي للطبيب أن يكون عنده جميع آلات الطب على الكمال وهى كلبات الاضراس ومكاوى الطحال وكلبات العلق وزراقات القولنج وزراقات الذكر وملزم البواسير ومخرط المناخير ومنجل النواصير وقالب التشمير ورصاص الثقيل (ظ : الفتيل) ومفتاح الرحم ونوار النساء ومكدة الحشا وقده الشوصة غير ذلك مما يحتاج إليه في صناعة الطب^(١) .

ومن قبله ابن بطلان في كتابه اللطيف أتى بهذه العبارة التى تعد فيها الأدوات اللازمة للطبيب : « فلا أزال أذكر نفسى الآلام والأوجاء واحضر بين يدي آلات العلاج .

ثم قال لغلामه أرفع الحلاوء وهات ما عندك فما شككت أنه جام آخر ولون قد تأخر وإذا طبق فيه كلبات الاضراس ومكاوى الطحال والرأس وكلبات العلق والنشاب وصنابير السبل ورصاص الثقيل ومنجل البواسير (ظ : النواصير) ومخالب التشمير ومحك الحرب ومنشار القطع ومهت القطع ومجرفة الأذن ومبرد السلع وقمادين الحرب ومخشنة الكتف وحجال الورك ومفتاح الرحم ونوار النساء ومكدة الحشى وقده الشوصة ودرج المكاحل ومرهمدان المراهم ودست المباضع^(٢)

ومن أهم المصادر التى يوجد فيها أسماء الآلات والأدوات الجراحية كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف للزهراوى وراقم هذه الأسطر إستخرج تلك الأسماء وأوردها في مقالة مع ذكر موارد استعمالها وفى هذه المقالة نكتفى بذكر بعضها على ما يلى : أنبوبة جفت ، زراقة ، صنارة ، قناطير ، كلاليب لولب ، مبرد ، مبضع ، مجرد ، محجمة ، محقنة مخدع ، مدس ، مدفع ، مسبار ، مسعط ، مشداخ ، مشرط ، مشعب ، مقده مقص ، منقاش ، موسى ، مهت مرود^(٣) .

(١) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، عبد الرحمن بن نصر الشيزرى (القاهرة ١٩٦٤) ، ص ٩٩ .

(٢) دعوة الأطباء ، ابن بطلان ، ص ١٠ .

(٣) ذكرت موارد ذكرها في مقالة من راقم هذه الأسطر (= مهدي محقق) بالفارسية تحت عنوان :

« زهراوى وكتاب التصريف » في مجلة نشر دانش (طهران ١٣٦٢ هـ . ش) ج ٣ عدد ٣ ص ٧٥ .

ونجد في كتاب الزهراوى لكل منها أقساما مختلفة مثلا : صنارة بسيطة ، صنارة عمياء ، صنارة ذات فخطافين ، صنارة ذات الثلاثة مخاطيف ، ومبضع بريد ، مبضع ريحاني ، مبضع زيتوني ، مبضع نشل ، (ظ : نشبيل) ومدفع مصمت مدفع مجوف . ومشروط متوسط ، مشروط صغير (١) .

وهو يؤكد لزوم هذه الآلات بهذه العبارة « هذه الآلات كلها كلما كثرت أنواعها وكانت معدة عند الصانع كان أسرع لعمله وأرفع عند الناس لقدره فلا تستحق منها آلة أن تكون عندك معدة ولا بد من الحاجة إليها (٢) »

امتحان الجراحين :

موضوع امتحان الأطباء يعتبر منذ القدم من الأمور المهمة ولخالينوس كتاب باسم في محنة أفضل الأطباء « ترجمه حنين بن اسحق إلى العربية (٣) ، وخلف الرازي كتابا باسم « في محنة الطبيب وكيف ينبغي أن يكون (٤) كما تكلم في نهاية الجزء الرابع من كتاب المنصوري عن امتحان الأطباء

والرازي في كتابه في محنة الطبيب يقول : « فأول ما تسأله عند التشريح ومنافع الأعضاء وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء فإن لم يكن عنده ذلك ، فليس بك حاجة إلى امتحانه في المرضى وإن كان عالماً بهذه الأشياء ، فأكمل امتحانه حينئذ في المرضى فتي رأيت يدرى في الأدوية (٥) » .

وفي مكان آخر في طي الأعمال التي يمتحن بها يقول : « متى رأيت الطبيب يبرى بالأدوية الأدوية التي تعالج بعلاج الحديد مثل الخراجات والديلات واللوزتين ، والحنازير واللهمة الغليظة والسلع والغدد والمواضع التي تعفن في البدن والعظام التي تتعري من اللحم فتي أجاد الطبيب جميع هذه ولا يحتاج في شيء منها إلى البط والقطع إلا أن يدعو إلى ذلك ضرورة شديدة فاحمد معرفته (٦) » كما نلاحظ في تلك العبارة الرازي (٦)

(١) نفس المرجع ، ص ٧٦ .

(٢) للتصريف ، ص ٤٩٥ .

(٣) رسالة حنين ، ص ٤٩ .

(٤) رسالة أبي ریحان في فهرست كتب الرازي (باريس ١٩٣٦) ، ص ٦ الترجمة الفارسية للرسالة ، مهدي محقق ، ص ٤٨ .

(٥) للرازي ومحنة الطبيب ، الدكتور ١ . ر. إسكندر ، مجلة الشرق (بيروت ١٩٦٠) السنة الرابعة والخمسون ، ص ٥١٧ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٥١٤ .

يصرح بأنه لا يجوز علاج المرضى بالعمل باليد متى يرجو الطبيب أن يعالجهم بالأدوية ولهذا صارت جملة « الكي آخر الطب » أو « آخر الدواء الكي »^(١) من الأمثال السائرة وقد أشير إلى اختيار الجراحين في كتب الحسبة من جملة ذلك أن ابن الأخوة القرشي قال : « وأما الجراحون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطا جانس في الجراحات والمراهم وأن يعرفوا التشريح وأعضاء الإنسان وما فيه من العضل والعروق والشرابين والأعصاب ليجنب ذلك في وقت فتح المواد وقطع البواسير وأن يكون معه دست المباح فيه مباح ممدورات الرأس والمؤربات والحربات وفاس الجبهة ومنشار القطع ومخرقة الأذن وورد السلع وهرهمدان المراهم ودواء الكتندر المقاطع للدم . »^(٢) وأحيانا ما يتفق اختيار الأطباء من حيث المهارة ولبونة اليد كما روى ابن بطالان في ضمن حكاية حكاها : « ثم قال أرني مباحك فأخرجت إليه دست المباح فتأمله وقال : اين الممدورات والشعرات والمرزويات والحربات واين فاس

الجبهة وصينارة الصديغ والدواء القاطع للدم قلت ما معنى من هذه كله شيء . قال : فأرني لطف أنا ملك . فلما أخرجت يدي قال : ما هذه أنا مل تصالح بلحس العروق ولا هذا زند يقده جواب هذه المسائل^(٣) .

أشباه الأطباء وأشباه الجراحين :

لما كانت الطب من الحرف التي تتعامل مع عامة الناس ، فإنه يتفق أحيانا أن يكون اجتذاب الأطباء الجبهة لعامة الناس شديدا فيحققون توفيقا أكثر في مهنتهم وقد كتب محمد بن زكريا الرازي في توجيه هذا الموضوع ثلاث رسالات بهذه العناوين :

- ١ - في الأغراض المميلة لقابول كثير من الناس عن فاضل الأطباء إلى أخصائهم .
 - ٢ - في العلة التي لها ترك بعض الناس ورعاهم الطبيب وإن كان حاذقا .
 - ٣ - في العلة التي لها ينبجج جهال الأطباء والعوام والنساء أكثر من العلماء^(٤) .
- ولهذا يتظاهر بعض الجبهة بصورة الطبيب ويخدعون الناس بالحيلة والشعوذة وهذا القبيل من الأطباء ليس لهم مكان أو محل معين

(١) ونقل بعض العوام هذا المثل على صورة « آخر الدواء الكي » ارجع إلى تقويم اللسان ، ابن الجوزي (قاهره ١٩٦٦) ، ص ٦٦ وكذا الطب النبوي ، الحافظ الذهبي ، ص ١٥٠ .

(٢) معالم القرية في أحكام الحسبة ، محمد بن محمد بن أحمد القرشي المعروف بابن الأخوة (كبرد ج ١٩٣٧) ص ١٦٩ .

(٣) دعوة الأطباء ، ابن بطالان ، ص ١٨ .

(٤) رسالة أبي ریحان في فهرست كتب الرازي ، ص ١٠ ، للترجمة الفارسية ، ص ٥١ .

حتى يؤخذوا باخطائهم ولهذا السبب بالذات وعلى حد قول جالينوس فإنهم يطلقون على أنفسهم اسم «الطوافين»^(١) ، وقد شوهد في العصور الاسلامي كثير من هذا القبيل من اشباه الاطباء ممن عبر عنهم بالمشعوذين والمشاتين .^(٢) وقد ذكر ابن طيفور في كتابه بغداد قصة أحد هؤلاء المشعوذين المشاتين الذي رآه يبسط كسائه ببغداد ويلقي عليه أدوية وهو قائم ينادى عليها : هذا الدواء لبياض العين والغشاوة وضعف البصر إلى غير ذلك كيف اجتمع العوام حوله وقد صدقوا كلامه وانخدعوا من احتياله .^(٣) والرازي في ختام المقال السابع من كتاب المنصوري تكلم في فخاريق المشاتين^(٤) وأعمالهم غير الصحيحة وأقداماتهم المخافية للصواب وحذر الناس منهم وفي كتابه محنة الطبيب ذكر بنده من خدع اشباه الجراحين من ذلك قوله : « أن مخاريق هؤلاء كثيرة يضيّق عن ذكرها كتابنا هذا

بأسره وجراثيمهم واستحلّاهم تعذيب الناس باطلا في الغاية التي لا وراءها غاية فإن منهم من يزعم أنه يبرى من الصرع بأن يشق وسط الرأس شقا صليبيا ثم يخرج أشياء قد أعدها معه يومهم بخفته وتمويهه أنه أخرجها من ذلك الشق »^(٥) ويقول الشيرزى نحو ذلك بهذه العبارة : « وقد يهرجون على الناس بعظام تكون معهم فيدسونها في الجرح ثم يخرجونها منه ممحضر من الناس ويزعمون أن أدويتهم القاطعة أخرجتها »^(٦)

حسبة الأطباء والجراحين :

أورد الشيرزى الباب السابع والثلاثين من كتابه في الحسبة تحت عنوان : « في الحسبة على الأطباء والكحالين والمجربين والجراحيين حيث بين شروط الأطباء وأطباء العيون ومجري العظام والجراحين فقال : وللمحتسب أن يمتحن الأطباء بما ذكره حنين بن إسحق في كتابه المعروف بحنة الطبيب » .^(٧) وأما

- (١) في الأسماء الطبية ، جالينوس ، ترجمة حبش ، ص ٤ . R. Dozey
- (٢) « المشاتين » بمعنى المحتالين نقلا « عن متمم معجم الأسماء العربية ، دزى ٧ (باريس ١٩٢٧) ، ج ٢ ص ٥٩٤ .
- (٣) بغداد ، ابن طيفور (القاهرة ١٩٤٩) ، ص ٥٤ نقلا عن تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، سائى خلف الحمارنة (القاهرة ٩٦٧) ص ١٣ .
- (٤) عمل الرازي كتاب المنصوري المروف بالكتاش المنصوري وفي اللاتينة Liber Almanzorig لمنصور بن أسد قرابة وإلى خراسان راجع رسالة أبي ربحان .
- (٥) الرازي ومحنة الطبيب ، مجلة المشرق ، سنة ٥٤ ص ٤٨٨ .
- (٦) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٢ .
- (٧) نهاية الرتبة ، ص ١٠٠ اطلق عليه ابن أبي أصيبعة « في إمتحان الأطباء » حرون الأنباء ، ص ٢٧٣

الكيمياء فيمتهنهم المحتسب بكتاب حنين بن اسحق أغنى العشر مقالات في العين (١) .
و « أما المحبرون فلا يحل لأحد أن يتصدى للجبر إلا بعد أن يحكم معرفة المقالة السادسة من كناش بولص في الجبر » (٢) . وأما الجراحيون فيجب عليهم معرفة كتاب جالينوس المعروف بقاطاجانس في الجراحات والمراهم (٣) ثم يذكر ساير شروط كل طبقة وهو يؤكد بأن من لم يكن حائزاً لهذه الشروط لا يحل له مدادة المرضى ولا يجوز له الاقدام على علاج يخاطر فيه ويؤيد اظهاره بذة الحكاية من قدماء اليونان : « وقد حكى أن ملوك اليونان كانوا يجلبون في كل مدينة حكماً مشهوراً بالحكمة ثم يعرضون عليه بقية أطباء البلد ليمتحنهم ، فن وجدته مقصراً في عمله أمره بالاشتغال وقراءة العلم ، ونهاة عن المداولة . وينبغي إذا دخل الطبيب على مريض أن يسأله عن سبب مرضه وعما يجد من الألم ويعرف السبب والعلامة والنبض والقارورة ثم يرتب له قانوناً من الأشربة

وغيرها ثم يكتب نسخة بما ذكر له المريض وبما رتب له في مقابلة المرض ويسلم نسخته لأولياء المريض ، بشهادة من حضر معه عند المريض فإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه ، وسائل المريض ورتب له قانوناً على حسب مقتضى الحال وكتب له نسخة أيضاً وسلمها إليهم وفي اليوم الثالث كذلك ثم في اليوم الرابع وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت فإن برىء من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته وإن مات حضر أولياءه عند الحكيم المشهور وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب أعلهم وأن رأى الأمر بخلاف ذلك قال لهم : خذوا دية صاحبكم من الطبيب فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه . فكانوا يحتاطون على هذه الشريفة إلى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله ولا يتهاون الطبيب في شيء منه (٤) وفي الإسلام اعتبر الطبيب

(١) نهاية ، ص ١٠٠ المقصود كتاب « عشر مقالات في العين » الذي طبع مع ترجمته الإنجليزية بمعرفة ماكس مايرهوف سنة ١٩٢٨ بالقاهرة .

(٢) المقصود بواص اجانيطي Paulus Aegineta وكناشه هو الذي لخصه حنين عيون الأنباء ، ص ٢٧٣ كلمة كناش آرامية بمعنى مجموعة وفي العربية استخدمت بمعنى مجاميع طبية . ارجع إلى متمم معجم الأسماء للعربية ، دزي ، ج ٢ ص ٥٩٤ .

(٣) في اللاتيني : De Composition Medicamentorum Secundum Genera

نقلا عن تاريخ البجاستات نات في الإسلام ، أحمد عيسى بك (دمشق ١٣٥٧) ، ص ٥٤ .

(٤) نهاية للرتبة ، ص ٩٨ . . .

مستولاً وفي حالة عدم المعرفة والتقصير فانه ضامن من في مقابل المريض ويستند هذا الأمر إلى الحديث الشريف المروى عن الرسول الأكرم (ص) : « من تطيب ولم يعلم منه بالطب قبل فهو ضامن ^(١) » وقال ابن القيم الجوزية : « والطبيب في هذا الحديث يتناول من يطبه بوصفه وقوله وهو الذي يخص باسم الطبائعي وبمروده وهو لا كحال ومبعضه ومراهمه وهو الجراح ^(٢) وبمساه وهو الخائن وبريشته وهو الفاسد وبمجاومه ومشرطه وهو الحجام ونجاعه ووصله ورباطه وهو الحبير وبمكواته وناره وهو الكواء وبقربته وهو الحاقن ووسوا ، كان طبه لحيوان بهيم أو

لإنسان فاسم الطبيب يطلق لغة على هؤلاء كلهم ^(٣) .

وفي مورد ضمان التشخيص غير الصحيح على الأطباء المخطئين بحث العلماء المسلمين والفقهاء بالتفصيل ومن جملة مراجع هذا البحث كتاب الطب النبوي لابن القيم الجوزية وكتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشرائع وتنوير المناكر لأبي عبد الله محمد بن أحمد العقباني التلمساني ^(٣) .

وهنا بهذه المقالة المشتمة على معلومات متناثرة عن الجراحة في الاسلام أختتم كلامي وأرجو أن يكون مفيداً مطالبي علم تاريخ الطب الإسلامي بعون الله الملك العلام

مهدى محقق

عضو المجمع المراسل من ايران

(١) بخصوص كلمة « تطيب » و « الفرق بين للطبيب والمتطيب » ارجع إلى فيلسوف الري محمد ابن زكريا الرازي ، مهدى محقق ، ص ٣٦٤ .

(٢) طب النبي ، ابن القيم الجوزية ، ص ٢١٠ .

(٣) بدون تاريخ ، ص ٨٧ .

ليس في اللغة "واو" للاستئناف

للكتور محمد نائل أحمد

ذكر

بعض النحاة المتأخرين ،
وفي مقدمتهم ابن هشام ،

أن الواو تأتي للاستئناف ، وذكروا بعض
الشواهد من القرآن الكريم ومن الشعر .

ولقد راجعت مؤلفات المتقدمين كسيبويه
وابن جني وابن يعيش ، فلم أجدها فيها شيئاً
اسمه « واو الاستئناف » وإنما تأتي عندهم
للعطف أو الحالية أو المعية ، فبهمتها عندهم
الربط والوصل ، وليس القطع والفصل ،
فكيف غاب عن ابن هشام العالم الفحل ، هذا
التضارب الواضح بين معنى « الواو » ومعنى
« الاستئناف » في اللغة وفي اصطلاح علماء
البلاغة .. فان اللغة تقول : الاستئناف -
تأنيلاً ابتداءً ، إذ هو مأخوذ من « الأنف » وأنف ،
كل شيء أوله .. وعلماء البلاغة يعرفون
الاستئناف بأنه فصل جملة عما قبلها لوقوعها
جواباً عن سؤال تضمنته الجملة الأولى ، فهو

قطع وفصل ، لا مكان فيه للواو .. فحين
قال يوسف - عليه السلام - : « وما أبرئ
نفسى » أثارت الحملة علامة استفهام كبرى
تخطر لكل قارئ أو سامع : كيف تنفى عن
نفسك البراءة وقد ثبتت بأكثر من شاهد ؟
فيكون الجواب : « إن النفس لأماراة بالسوء »
(يوسف ٥٢) فالجملة الثانية كأنها ابتداء
كلام ، إذ السائل عادة يقطع كلام المستؤل
فيستأنفه هذا بالجواب .

ويبدو أن ابن هشام حاول في كتابه
« المغنى » أن يتتبع كل المعاني والأفكار التي
طاقت بعقول العلماء والمتأديين في عصره ،
فذكر ما يصح وما لا يصح ذكر « واو
التذكر » و « واو الذكورة » و « واو الإنكار »
و « واو الثمانية » و « الواو الزائدة » و « واو
التعليل » ، وغير هألى ما يزيد عن عشرة

(*) أتى في الجلسة العاشرة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٥ من مارس (آذار)
سنة ١٩٨٩ م .

معان لم تعرفها اللغة الفصحى ولم يثبت منها
شيء عند التحقيق .

وسوف لا نناقش هنا إلا واو الاستئناف
وحدها .

قال ابن هشام في مغنيته : ومن أقسام الواو
واوان يرتفع ما بعدهما ، إحداهما واو
الاستئناف ، نحو « لنبيين لكم وثقة في الأرحام
ما نشاء » ، ونحو « لا تأكل السمك وتشرب
اللبن » فيمن رفع تشرب ، ونحو « من يضل
الله فلا هادي له ويذرهم » فيمن رفع أيضاً ،
ونحو « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، إذ لو كانت
« واو العطف لا تنصب (نقر) ولا تنصب
أو انجزم (تشرب) ، ولجزم (يذر) كما
قرأ الآخرون ، وللزم عطف الخبر على الأمر
(أى في الآية الأخيرة) وقال الشاعر :

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى

قضيته ألا يجسور ويقصد

وهذا (أى البيت) متعين للاستئناف ،
لأن العطف يجعله شريكاً في النفي ، فيلزم
التناقض ، وكذلك قولهم : دعني ولا أعود . اهـ
نص ابن هشام ، ج ٢ ص ٣٢ ، طبعة ١٩٢٨

ولقد نقلت كلامه كله ، لتسهيل مناقشته
جملة ثم تفصيلاً .

فلأول نظرة يتبين أنه اعتمد في رأيه هذا
على اختلاف حركة الإعراب وحدها ولم

يحاول أن يستوحي المعنى ، وما وراء مخالفة
الإعراب من سر ، وما أكثر الأسرار التي
يعبر عنها باختلاف الحركة ، من رفع يأتي
بعد نصب أو جزم ، سواء في الأفعال أو في
الأسماء كما سنرى بعد ، حين نعرض نماذج
له من كتاب الله .

وفي النظرة الثانية ، نقف عند قوله — تعليقاً
على البيت — إنه يتعين فيه أن تكون الواو
للاستئناف فإن مفهوم هذا النص أن ما سبقه
من الآيات لا يتعين فيها ذلك ، إذ قد تخرجها
العلماء فعلاً على العطف ، رافضين هذا
الاستئناف ، وبهذا لا يتبقى من شواهد
إلا البيت والجملة التي بعده ، على أننا سننظر
فيها جميعها ، شاهداً بعد شاهد :

١ - ففي قوله تعالى في سورة الحج (٥)
« يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نبعث
فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من
علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم
ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم
أخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم » .

هناك قراءتان في (نقر) الرفع والنصب ،
فالرفع هو ما اعتمد عليه ابن هشام في رأيه ،
والنصب عطف على (لنبيين) وفي نفسه
شيء من قراءة النصب لأن التعليل الواضح
في (لنبيين) لا يتضح في (نقر) بينما قراءة
الرفع هي التي يساندها السياق .

والمأمل في الآية يجدها استعملت حرف
« ثم » في العطف سواء في الأطوار التي سبقت

(نقر) والتي جاءت بعدها : فلم تلجأ إلى الواو إلا عند (نقر) وحدها . أليس في هذا التغيير إشارة إلى سر قصد إليه النظم ؟ أو ليست الواو هنا مع ما بعدها (مما أقر في الأرحام) ، مما يشير إلى حديث مطوى عن شيء لم يستقر في الأرحام .. ؟ وما أروع القرآن حين يوجز فيشير ، ويكتفي بالإشارة عن العبارة . إن ما هنا حذفاً في الآية دلت عليه الواو والفعل المرفوع بعدها . يتبين ذلك حين نصوغ الآية ببلغتنا نحن هكذا : يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فانظروا كيف خلقتم .. إنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، وجعلنا الأرحام تلفظ ما نشاء مما لم تكتب له الحياة ، وتقر ما نشاء مما أردنا له الحياة ثم نخرجكم طفلاً ... فالواو عطفت (نقر) على (تلفظ)

وبمثل هذا التقدير في إظهار ما طواه النظم الكريم ، كان العلماء يقدرون . فهذا ابن قتيبة .. وقد فطن إلى أن القرآن الكريم لا يمكن أن يترجم لفظه ، بل الميسور أن يترجم تفسيره — يقول : (واعلم أنك لو أردت أن تنقل (أي ترجم) قوله تعالى : « ولما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء » (سورة الأنفال ٥٨) ، لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أودعته ، حتى تبسط مخدوعها وتصل مقطوعها وتظهر مستودعها ، فتقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة ،

أو عهد ، فخذت منهم خيانة أو نقضاً ، فأعلمهم أنك قد نقضت ما شرطت لهم ، وأذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء (كتاب تأويل مشكل القرآن) ص ١٦ تحقيق السيد أحمد صقر هكذا كان الأوائل يدركون المطوى ، إيجازاً وإعجازاً في كتاب الله ، فإنه يحذف ويطوى ، مكتفياً بالإشارة والتلويح عن العبارة والتصريح .

فالعدل عن « ثم » إلى الواو ورفع ما بعدها في الآية وأمثالها ، إنما هو عطف على محذوف دل عليه السياق ، وما أشبه رفع الفعل هنا برفع الاسم بين المنصوبات في لفظ « الصابثون » كما سنوضحه فيما بعد .

ومهما يكن فقد رفض شراح ابن هشام أن يوافقوه على أن الواو للاستئناف ، فقال الدماميني : إنها للعطف على الفعل الذي تعلق به الجار والمجرور في (لنبيين) وقدره هكذا (نفعل ذلك لنبيين لكم ونقر ...) فعطف نقر على نفعل . بينما رأى الأمير أنها عطف على جملة (فانا خلقناكم) .

٢ — وفي قوله تعالى في الأعراف (١٨٦) :

« من يضل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون » قراءتان أيضاً في « ويذرهم » : الرفع وهي شاهد ابن هشام ، والجزم عطفاً على جواب الشرط ، إذ هو مجزوم محلاً وقدره

الزنجشري هكذا : (من يضل الله لا يهده
أحد ويذرهم) :

ولعل الأقرب من هذا ، أن نقول : إن
جملة « من يضل الله فلا هادي له » هي
حكم عام يشمل الخلق جميعاً ، فحين يساق
عند الحديث عن قوم بأعينهم يتساءل متسائل :
أهلأ يضلهم الله ولا يهديهم أحد...؟ يكون
الجواب : نعم ، يضلهم ويذرهم في ضلالهم
يعمهمون ، وهذا ما عناه الزنجشري حين قال :
إن الرفع على الاستئناف - أى الاستئناف
البلاغي الذي يعطف الفعل على جواب السائل
المخدوف ، وليس استئناف ابن هشام ، على
أن الشيخ الأمير يرى أن جملة يذرهم معطوفة
على الجملة الشرطية بتمامها ، ومعنى ذلك
أنها معطوفة على أية حال ، مجزومة أو مرفوعة
وأن الورو للعطف لا للاستئناف .

٣- وقوله تعالى في آخر سورة البقرة
(٢٨٢) : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، جاءت
الواو بين جملتين : إنشائية وخبرية ، ويرى
ابن هشام أنه لا يجوز عطف هذه على تلك ،
وهو الذي عقد فصلاً في هذا الكتاب بعنوان
(عطف الخبر على الإنشاء وعكسه) (ص ٧٩)
من الجزء الثاني وذكر فيه الخلاف بين النحاة
في من أجازهم ومن منعه ، وذكر أن ممن أجازهم
سيبويه والصفار وجماعة من النحاة ، محتجين
بقوله تعالى في أول البقرة : (وبشر الذين

آمنوا) ، ونقل في تأييد هؤلاء رأى الزنجشري
في هذه الآية ، وأنها من عطف جملة المعنى
على جملة ما سبقه من عقاب الكافرين ، بل
إن ابن هشام عقد عنواناً لعطف المعنى على
المعنى ، بل لعطف التوهم . .

فكيف ضيق الأمر في هذه الآية ولم ير
فيها عطف المعنى على المعنى ، أو العطف على
مخدوف - فلقد علمهم الله نظام التعامل في
الدين ، حاضرين ومسافرين ، وشدد على
الكاتب والشهود ، وكرر لهم الأمر بالتقوى
أكثر من مرة .. أفلا يصح تقدير الكلام
هكذا : ... فاتقوا الله فيما علمكم من هذه
الأحكام ويعلمكم من غيرها ، فكان تغيير
النسق في رفع يعلمكم إشارة إلى هذا المخدوف .
ولتربط هذه الواو ما علمهم قبل بما سيعلمهم
بعد .. لا ينبغي أن يفهم القرآن إلا على هذا
النسق .

٤- ثم نأتى إلى البيت الذي أصر على أنه
يتعين فيه الاستئناف لا غير :

على الحكم المأتى يوماً إذا قضى
قضيته ألا يجوز ويقصد
فان عطف (يقصد) على (يجوز)
يؤدى إلى التناقض

ولنا أولاً على هذا البيت أكثر من ملحوظة
فهو بيت مجهول النسب ، لا يعرف قائله ،
ثم هو سقيم الصياغة ركيك ، ثم إن نصف
ألفاظه مجتلب بلا فائدة ، ولو أننا عبرنا عنه

لقلنا : (على الحكم إذا قضى ألا يجوز)
فأدينا المعنى كاملاً تاماً بالكلمات (المأتى -
يوماً - قضيته - يقصد) زيادة لا حاجة
إليها ، فالبيت بهذه الصورة يشك في أنه
مصنوع وصناعته ديثة .

ومع كل هذا ، قد أواحنا الدماميني من
أمره ، إذ قال في حاشيته : يمكن أن الأصل
(وأن يقصد) فالواو عاطفة على أن لا يجوز ،
ثم حذف أن فارتفع الفعل ، على حذف قوله
تعالى : « ومن آياته يريكم البرق » ، وتسمع
بالمعبدى خير من أن تراه ... ولك أن تقول :
إن جملة (ويقصد) عطف على جملة (على
الحكم ...) ، كما تقول : على زيد الصلاة
ويزكى .

هـ - ثم مثاله الذى أحقه بالبيت في حتمية
الاستثناف وهو قولهم : (دعنى ولا أعود)
إنما يجرى على الألسنة ، وهو من فصيح
الكلام ، ولكن ليست واوه للاستثناف كما
يرى ، وإنما هى للعطف ، وقد قدره العلماء
هكذا : منك العفو ، ومتى الترك ، على
أساس أن هذا القول إنما يصدر ممن أخطأ
ويطلب العفو ويعد بالألا يعود ، وينبغى أن
يعلم أن المخطئ من شأنه .. وهو في موقف
الضعف - ألا يستعمل صيغة الأمر (دعنى)
بل حقه أن يقول : تدعنى وأعدك ألا أعود ،
أو تدعنى ولا أعود ، وإنما لجأ إلى صيغة
الأمر - وإن كان الأمر بمعنى الرجاء هنا -

كأنه يتعجل الإفلات من العقوبة ، وكثيراً
ما تجرى على ألسنة المخطئين عبارات : أرجوك
أتوسل إليك أن تعفو عني ولا أعود إلى
مثلها ، فالجملة الأولى تحمل في مضمونها
خبراً يعطف عليه الخبر بعدها .

* * *

وبعد :

فان لهذه اللغة أساليبها الدقيقة التى تستخدم
في التعبير والتصوير ، وهى فى سبيل الأغراض
التي يقصد إليها المتكلم ، تفسح له الطريق
بأساليب متنوعة ، يختار منها ما يشاء ، فمن
حقه أن يخالف النسق الإعرابى لأداء غرض
لا يود التعبير عنه بالكلمة أو الجملة ، ومن
حقه أن يحذف بعض الكلام ويشير إليه
بحرف العطف ، أو بحرف من الحروف
الزائدة ، التي نيط بها أداء هذه الغاية ، نحو :
« فبما رحمة من الله لنت لهم » .

ولئن كان ما وصل إلينا من كلام الفصحاء
الأول ، لا تشيع فيه الأساليب التي تقوم فيها
الإشارة مقام العبارة ، لقد جاءنا من كتاب
الله ما لا يكاد يحصى عدداً ، أو تدرك أبعاده
إعجازاً وأسراراً .

وليس هذا الذى تقوله هنا استطراداً دخيلاً
على البحث ، إنما هو في صميمه ومحتواه ،
فما جر النحاة المتأخرين إلى هذه المصطلحات
والمسميات الكثيرة المرهقة ، إلا انصرافهم
إلى المظهر الإعرابى المتعلق بالحركات ، بينما

كان النحاة القدامى يغوصون وراء المعاني ، ويتحسسون ما وراء المخالفة للنسق الإعرابي من أسرار وأغراض ، ولو أن النحاة المتأخرين ساروا على خطى المتقدمين لكفونا مثونة مثل هذه الدراسة حول واو الاستئناف وغيرها مما شغل حيزاً كبيراً في كتب المتأخرين ، وحرّم النحو من متعة التذوق والخصب في دراسة الشواهد والنصوص ، وساقنا إلى تشقيق هذه الدراسات إلى علوم ثلاثة : النحو والبلاغة والنقد ، بينما كان النحو الأول هو هذه الثلاثة مجتمعة . وغفر الله للسكاكي ، فهو صاحب هذه البدعة ، فقد كان « مفتاحه » هو الذي أغلق الباب في وجه الدراسات التي بدأها سيبويه وابن جنى والمبرد والجرجانيان : صاحب « الوساطة » وصاحب « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » ، والتي سجلها الزمخشري ببراعة واقتدار في الكشف « الباحث عن أسرار التنزيل » ، وهذه قطرة من — بحارهم :

١ — يقرأ الزمخشري قول الله تعالى في سورة المائدة (٦٩) : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله باليوم الآخر ... » الآية .

فيرى في الآية ظاهرتين تخالفان الآية نفسها في سورة البقرة (٦٢) : « رفع الصابئون » هنا ، ثم قدمها على النصارى ، بينما جساءت هنالك منصوبة ، ومتأخرة عنهم .. فما السر .. ؟ ولماذا خالف بين هذه وتلك .. ؟ ثم يجيب

بما يراه السر في ذلك ، فيقول : فائدة التقديم التنبيه على أن الصابئين يثاب عليهم إذا صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعسودين ضللاً وأشدّهم غياً ، لأنهم خرجوا عن الأديان كلها . (ج ١ ص ٦٣٢) .

ثم يستأنس بما قال سيبويه في قول الشاعر :
والأف فاعلموا أنا وأنتم
بغاة ما بقيننا في شقاق

إذ قال : قدم « وأنتم » قبل مجيء الخبر « بغاة » ليسارع إلى التنبيه على مشاركتهم في البغي ، إذ لو قال : « أنا بغاة وأنتم كذلك لأفاد أن المتكلم وقومه هم البادئون بالبغي ، وأن أولئك جاء بغيمهم رداً عليهم ، فقدم « أنتم » ليدفع هذا الوهم .

هكذا فهم النحاة الأوائل أن المخالفة في الإعراب أو المخالفة في الترتيب كلاهما وراءه مغزى وسر ، تماماً كالمخالفة في « نقر في الأرحام » بعد « لنبيين لكم » . وكلمة « الصابئون » في الآية خبرها محذوف ، والجملة معطوفة على جملة « إن الذين آمنوا » ، كما أن جملة « ونقر » معطوفة على الجملة المحذوفة كما سبق تقديرها (فنسقط من الأرحام ما نشاء ونقر ما نشاء) ، أو معطوفة على جملة الفعل الذي تعلق به (لنبيين لكم) أي (نذكر لكم ما ذكرنا من أطوار الخلق لنبيين لكم قدرتنا ،

وتحرر :..) ، والواو عاطفة لا استثنائية
على كل حال ، والعطف على المحذوف أشهر
من أن يذكر .

٢ - ويرى العلماء قول الله تعالى في قصة
بنى إسرائيل في سورة البقرة (٤٩) : « وإذ
نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب
يذبحون أبناءكم » قد فصل « يذبحون » عما
قبله ، بينما وصله بالواو في سورة إبراهيم (٦)
فيدركون أن الله تعالى - وهو المتحدث في
البقرة - أجمل العذاب ، ثم فصل ، على
حد قوله تعالى : « أمدكم بما تعلمون أمدكم
بأنعام وبنين (الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣) ، بينما
المتحدث في إبراهيم هو موسى ، فأراد أن
يذكرهم بأنواع العذاب التي كانوا يعانونها ،
من اضطهاد وضرب وسجن وتشريد ، ثم
نخص أشدها وأفجعها وهو ذبح الأبناء ..
فلما اختلف المعنيان بالتنوع عطف ، من
عطف الخاص على العام ، على حد قوله
تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومثك
ومن نوح » (الأحزاب ٧) ، ولا يعطف
الخاص على العام إلا إذا كان له خصوصية
تجعله كأنه نوع مستقل .

ولا أحب أن أسستطرد في ذكر هذه
الدقائق التي تراها منبثة في كتاب الله وفي
بعض الشعر ، والتي أغفلها النحو المتأخر ،
فابتعد عن أسرارها في كثير من نظراته ،
حتى حكم بزيادة إحدى الواوين في قوله

تعالى في سورة الزمر (٧٣) : « حتى إذا
جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام
عليكم » ليكون ما بعد الواو الزائدة هو جواب
إذا . قياساً على الآية التي سبقتها إذ كانت
(فتحت) فيها هي الجواب ، متغافلاً عن
الذكية التي ذكرها العلماء في حذف الجواب
في آية المتقين ، بل اتخذ من الآية شاهداً على
أن « الواو » تأتي زائدة ، دخولها كخروجها
ج ٢ ص ٣٤ من المغني .

ومن القضايا التي أجمع عليها الثقات من
أهل اللغة أن القرآن الكريم ليس فيه حرف
زائد دخوله كخروجه قط ، وإنما لكل
حرف زائد فيه معنى قصد به ، وغرض
سيق من أجله ، فكيف يقول بعض النحاة :
إن الواو هنا دخولها كخروجها ؟

كما أن من القضايا التي لا جدال فيها ، أن
اللغة لا تقبل بحال وضع جملة بجوار أخرى
إلا وبين الحملتين نسب وصلة ، وإلا كان
الكلام لغواً لا يشبه كلام الناس .. فان قويت
الصلة بين الحملتين بأن اتحد معنهما اتحاداً ما ،
وجب الفصل ، بأن يمتنع ذكر عاطف بينهما
وذلك إذا كانت الحملة الثانية بياناً للأولى
أو بدلاً منها أو توكيداً لها ، فان ضعفت
الصلة بينهما ، بأن تغاير معنهما مع وجود
صلة ما تجمععهما وجب الوصل بحرف عطف .

ولأنما أذكر هذه القضية الثانية ، مع أنها
معلومة ، لأن حديث النحاة عن واو الاستئناف

قد يوهم جواز الانقطاع بين الحمل وبينما اللغة
تأباه إباء شديداً وتسقط الكلام إذا بدت فيه
رائحة هذا الانقطاع ، ولهذا حوسب الشعراء
حساباً عسيراً ، عندما بدت في أشعارهم حمل
لا رابط بينهما ، كالبيت المشهور ، الذي
جمع بين مرارة النوى وكرم أبي الحسين :

لا والذي هو عالم أن النوى

صبر وأن أبا الحسين كريم

ومع تقديري للجهود التي بذلها علماءنا في
ضبط قواعد هذه اللغة ، مما يشكر لهم ،
ولا ينكر ، فأني لا أجد حرجاً في تعقب
بعض الآراء التي تثقل هذا العلم ولا تفيده ،
والتي يمكن ردها بيسر إلى القواعد والأصول
المتسقة مع أساليبها الجميلة والتي فطن إليها
الفحول القدماء من النحاة وأرباب الذوق .

فقد رأيتهم يردون جميع الشواهد التي
أريد بها أن تكون واوها للاستئناف إلى المعنى

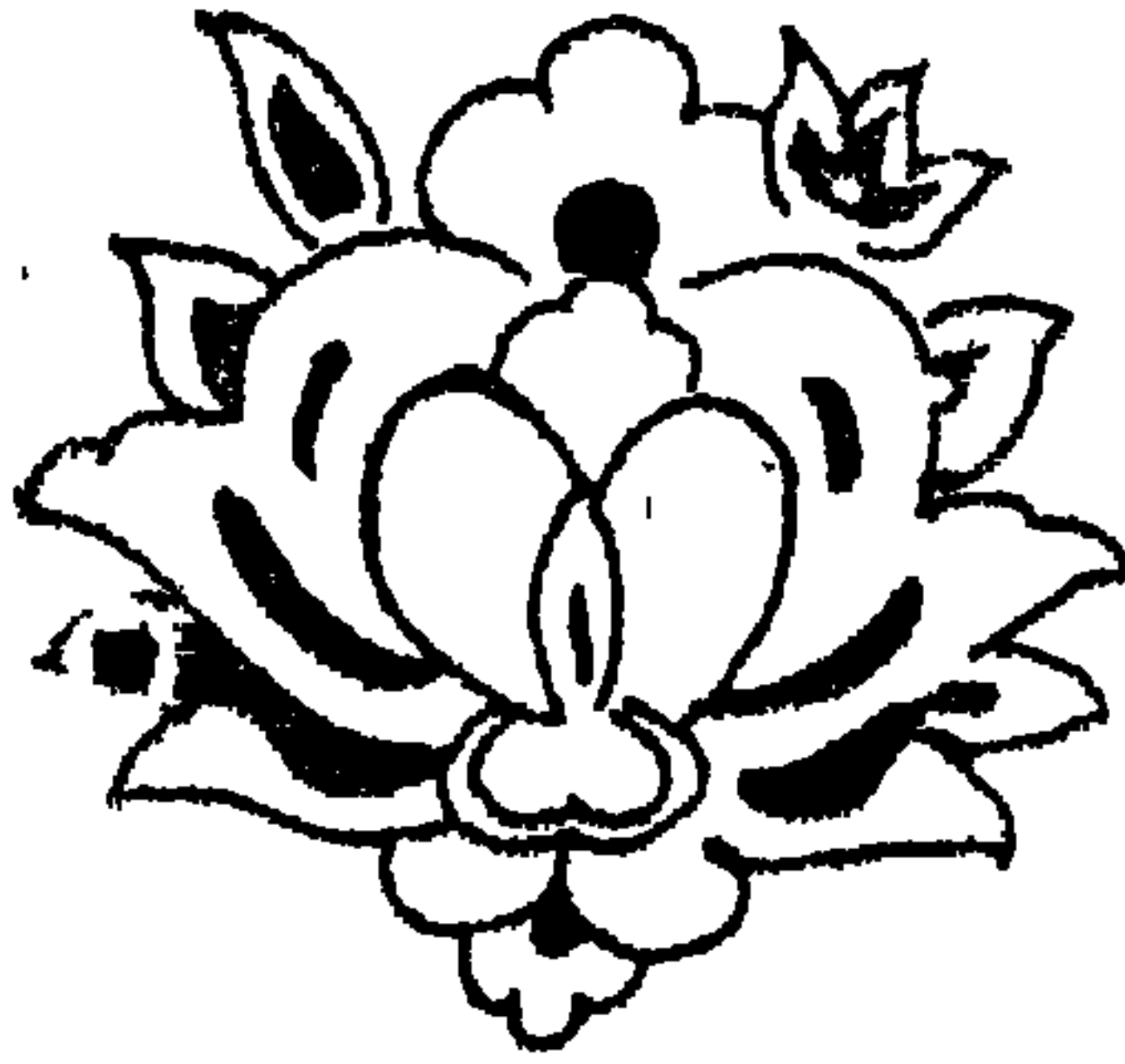
الأصلي للواو ، وهو العطف ، إما على محذوف
دل عليه المقام ، وإما على مضمون الكلام
السابق :

* * *

ومن هنا أرى مهمة المجمع وكل مشتغل
بعلوم اللغة . مهمة شاقة وواسعة المدى لا في
وضع مصطلحات للعلوم والفنون فحسب ،
بل في تخليص هذه العلوم مما يثقلها من التقسيم
والتفريع والتنويع ، وليتنا نفكر عملياً وجدياً
في العودة إلى النحو القديم ، ندرسه من خلال
الدس دراسة تطبيقية لا نظرية تنقد وتعرب
وتعال لما وراء الأساليب من أسرار وأبعاد ..
ليتنا .. وكان الله في عون الحافظين للضاد .^{٢١٥}

محمد نايل

عضو المجمع



آدم وهواء وإبليس في القرآن الكريم للكتور حسين مؤنس

عندما

كنا صغارا كنا نتعلم في الكتاب

من أثر بالغ العمق والشمول على قلوب الناس وعقولهم .

القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وتحفظ شيئا من القرآن الكريم ، ومنا من كان يحفظ المصحف كله ، وكان القرآن أعظم ما نتعلمه لأنه كتاب الله أولا وقاعدة الإسلام ثانياً ، ثم إنه كان أساس تعلمنا البلاغة ثالثاً ، والبلاغة يتعلمها الإنسان لأنها خصلة لا بد أن يولد بها بها صاحبها ولكن القرآن الكريم يجودها ويصقلها فتستقيم بلاغة البليغ بفضل القرآن الكريم ، ويستقر في سمعه الوقع القرآني العظيم . كنا نجد في كتابات بلغاء الماضي من أمثال : الحافظ وابن المقفع وابن عبد الحميد من القدماء ومصطفى صادق الرافعي وطه حسين ومصطفى لطفى المنفاوطى من المحدثين ، ونستطيع أن نقول : إن العامل الأكبر من بلاغة الكتاب في عصر العباقرة الذي نعيش اليوم في أعقابه يرجع إلى القرآن الكريم وماله

وشبابنا اليوم - وخلال العشرين سنة الماضية - يفقد هذه الصلة بالقرآن الكريم ، لأن الكتائب عصرها قد انقضى ، وأصبح الأولاد لا يتعلمون القرآن في المرحلة السابقة على المدرسة الابتدائية وهي التي تسمى الكندر جارتى ثم المدارس الابتدائية فالإعدادية وقد هبط مستوى اهتمام وزارات التربية والتعليم إلى درجة جعلت الوزارات تخصص له ساعة واحدة في الأسبوع تتركز الدراسة فيها على مادة الدين يحفظ فيها التلاميذ بضع آيات في القرآن الكريم حفظاً سطحياً عابراً ، وفي الغالب نجد أن الذين يقررون المواد يسيئون اختيار الآيات التي يحفظها الطلاب ، فيقررون على التلاميذ مثلاً آيات الميراث أو بعض الآيات من سور القرآن القصيرة العسيرة الحفظ والتي تحتاج

(*) ألقى في الجلسة الحادية عشرة يوم الأربعاء ٣٠ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٦ من مارس

(آذار) سنة ١٩٨٩ م .

إلى شرح كثير ، والذتيجة أن التلميذ يبغض تلك الآيات ويحفظها سرّاً عنه ولا يكاد ينهى الامتحان حتى ينساها وينقطع الأمل في أن يجيد العربية أو يحصل على ذلك الرنين القرآني البديع في أذنيه، وهذا هو السبب في هبوط مستوى علم الشباب - بل الكهول - في أيامنا في اللغة العربية. ومن الغريب أن اهتمام الناس بالإنجليزية في بلادنا يزيد على اهتمامهم باللغة العربية ، وأمر مدارس اللغات معروف حيث ينفق أولياء الأمور الألوف على أبنائهم في التعليم فيها على أمل إتقان اللغة الإنجليزية مع إهمال يكاد يكون تاماً للغة العربية التي يكتبون بالإنزير اليسر منها، والنتيجة أننا نجد أنفسنا في أزمة اللغة العربية الراهنة ، فنحن لا نكاد نجد إنساناً دون الخمسين يتقنها لا نطقاً أو كتابة ، ويكفي أن نقرأ الصحف حتى نتأكد من تلك الظاهرة المحزنة لكل عربي . كذلك نحن لا نظفر بين المذيعين أو المتحدثين في الإذاعة والتلفزيون من يقرأ جملة واحدة دون أن يترج في أخطاء بلا نهاية في اللغة العربية وأذكر القارئ بإعلان تلقيه إحدى مديعات التلفزيون عن مكتبات الأطفال ، والإعلان كله أربعة سطور ولكن المديعة تقع في تسعة أخطاء نحوية وهي تقرأه :

* * *

وكان هذا الضعف المتزايد للغة العربية في عصرنا هذا من أكبر ما يشغل بالي خلال

السنوات الأخيرة لشدة حرصي على اللغة العربية ورغبتي في تقوية الصلة بين الشباب والقرآن الكريم وزيادة مكان كتاب الله في التعليم لأن القرآن الكريم هو السبيل الوحيد لتقويم لسان الصبي في اللغة العربية وإرهاق سمعة اللغة حتى يعتاد أن يقرأها صحيحة دون جهد ، لأن النطق الصحيح باللغة العربية يترى في السمع أولاً فيشب الإنسان وقد تعودت أذنه الحركة الصحيحة لأواخر الكلمات ما بين رفع وجر ونصب وسكون ، ونحن أنفسنا نعرف ذلك فقد جربناه في حياتنا وتجربتنا ، وإذا كنا قد نسينا معظم ما حفظنا من القرآن في الصغر فقد بقي في آذاننا الجرس الجميل والوزن الصحيح ، بل إن محتويات الكتاب الكريم بقيت في أذهاننا ، والواحد منا يعرف ما هو من القرآن وما ليس منه ، وبالاستعانة بمعاجم القرآن ما بين لفظية ومعنوية لا يصعب علينا أن نجد أي آية من آيات القرآن إذا طلبناها ، ونحن لا نستغني عن القرآن الكريم في كل ما نقوم به من بحث ودراسة ، لأن الواقع إن حفظنا القرآن الكريم ونحن صغار أصبح جزءاً أساسياً من تفكيرنا . حتى الذين يتقنون لغات غير العربية منا يحسون أن الفضل في ذلك يرجع إلى القرآن الكريم الذي أنشأنا على النطق العربي الصحيح والإحساس ببلاغة العربية ، ومن أتقن لغة أتقن غيرها إذا أراد ومضى بدرسها .

وقد كنت أفكرت في أساليب لتقريب القرآن الكريم إلى أذهان الشباب وقلوبهم ، وأعددت محاضرة في هذا الموضوع وألقيتها في الجامعة الأزهرية في قاعة محمد عبده وقلت فيها : إننا ينبغي أن نختار من القرآن للتدريس للشباب فقرات قصصية كما نرى في قصص الأنبياء والآيات العلمية ، كما نرى في سورة الرعد والآيات التاريخية كما نرى في سورتي الأنفال والأحزاب أو الآيات التصويرية ، أي ذات البلاغة التصويرية كما نجد في سورة الدور أو السور التي تصف المجتمع وما فيه والمصاعب التي يواجهها الإنسان في المجتمع وكيف يحلها بالصبر وطول البال والحسنى كما نجد في سورة التوبة ، وأذكر أنني قلت في نفس المحاضرة : إننا ينبغي أن ندرس القرآن للتلاميذ على أساس السورة لا الآيات المقطعة من السورة ، وليس معنى ذلك أن نحفظ التلميذ السورة كلها ، بل معناه أن نعطي التلميذ فكرة عن السورة التي نختارها ثم نبين له الموضوعات التي تتناولها لأن كل سورة من سور القرآن الكريم تتناول - موضوعات متعددة ولكن السورة كلها لها وحدة وشخصية واحدة ، ثم نختار للتلميذ آيات من موضوع من موضوعات السيرة ونأخذها ونقدمها للتلميذ ليحفظها مع الشرح والتعليق .

* * *

وقد ظل موضوع تقريب القرآن الكريم من نفوس الصبيان والشباب يشغل بالي حرصاً على تربية الشباب تربية إسلامية عربية صحيحة حتى قرأت أخيراً الجزء الأول من سفر التكوين لبعض أبحاثي فاستوقف نظري أن الإصحاحات التي قرأتها تحكي قصة الخلق ثم خلق آدم ، ولاحظت أنها تروى ذلك رواية بسيطة ذات طابع هو أقرب إلى ما نقرأه في أدب الأطفال وأنالم أرجع إلى الطبعة العربية القبطية من الكتاب المقدس بل الطبعة الدولية التي أقرتها المجامع الدينية المسيحية سواء الكاثوليكية أو البروتستانتية ، وهي الطبعة المعروفة باسم المنشقة Emoardant التي تأتي بالنص وتقارنه بما في طبعات المقدس الأخرى وتشير إلى التشابه بين المواضع في الطبعات المختلفة في الهوامش فإذا قرأ الإنسان فقرة عن خلق آدم مثلاً وجد في الهامش كل مواضع الخلاف والتشابه بين النص الذي يقرأ ونصوص الكتاب المقدس الأخرى . ومن المعروف الكتاب المقدس المسيحي يتكون من قسمين يسميان العهد Teataments فالعهد القديم يتناول كل ما روى في الكتب المختلفة عن الخلق وبداية تجارب الإنسان ثم تلى ذلك مرتبة ترتيباً زمنياً وأخبار أنباء بني إسرائيل أو اليهود وما يروى عنهم وما أثر من كلامهم وكل ذلك مروي بروايات الناس أي أنه

ليس بكلام الله سبحانه وتعالى كما هو الحال عندنا في القرآن الكريم . بل هو أشبه بما نسميه نحن بالآثار أى أخبار الأنبياء الماضين وما نروى نحن محمد صلى الله عليه وسلم من الأحاديث والأخبار مما يسمى في مجموعته بالسنن أو الأحاديث أو الصحاح أو المسانيد . والأجزاء الخمسة الأولى من العهد القديم يقال أنها الكتب الخمسة الأولى من التوراة وتتضمن أخبار الخلق والأنبياء إلى موسى عليه السلام . ولهذا فإنها تسمى بالكتب الخمسة pentateuch أو كتب موسى عليه السلام ثم تلى ذلك بقية الإصحاحات وهو تقريب للفظ عبراني هو الإصحاح ويراد به الصحيح الذى يوثق فيه . وهذا العهد القديم كله يعتبر وعاء من الله سبحانه بالغفران للإنسان عندما يرسل النبي المخلص للإنسان من خطيئته التى وقع فيها عندما عصى الله سبحانه وأكل من الشجرة فعاقبه الله بالخراج من الجنة ولكنه بحسب ما يقال فى المسيحية لم يغفر له أى إنه هبط إلى الأرض ملعونا ويقولون إنه عندما جاء المسيح عليه السلام خلص من آمن به بالمسح على رأسه بالزيت وهم يسمون ذلك بالسكرامنت ونتيجة ذلك هى الخلاص من لعنة الله salvation وبعد وفاة المسيح انتقل حق التخليص المقدس أو السكرامنت إلى الخواريين الذين أنشأوا الكنيسة وهى فى الأصل جماعة المؤمنين ، ثم أطلق ذلك اللفظ على المبنى الذى يضم المؤمنين . ثم

جاء الخوارى بولس Paulus وهو الذى استشهد بأمر المسيحية وخاصم برنيا وعددا من الخواريين الآخرين ومنهم مرقس منشى الكنيسة القبطية المصرية . وبولس هو الذى أنشأ الكنيسة التى سماها الجامعة Eatalica وهى أصل الكنيسة الكاثوليكية أما مرقس فقد أنشأ الكنيسة المستقيمة Orthodox . وقد انقسمت كل منهما إلى كنائس مختلفة . بعد ذلك . ولكن بولس هو الذى وضع ما يعتقدون أنه أصول المسيحية مثل الإيمان بالثالوث وضرورة تخلص الإنسان من الخطيئة الأولى على يد رئيس الكنيسة الكاثوليكية الذى يسموه البابا أو من يعينه هذا من كبار القساوسة كالكرادلة والأساقفة أو صغارهم وهم الرعاة pastors الذين يسمون أيضا بالآباء fathers أو رعاة prastors أما العهد الجديد فهو الإنجيل ، والإنجيل عند النصارى هو ما يدكرونه من أقوال عيسى ابن مريم عليه السلام وأعماله ومعظمها يتعلق بالشهور أو الأسابيع الأخيرة من حياته منذ انفصاله عن كنيسة بنى اسرائيل وتعميده نبيا على يد يوحنا المعمد أو المعمدان إلى موته شهيداً على الصليب فى رأيهم على يد اليهود ، وكانت هناك أناجيل كثيرة ولكن المجامع الكنسية أقرت منها أربعة ، وهى أناجيل يوحنا ومرقس ومتى ولوقا ، وهى تنشر فى العادة فى كتاب واحد يلى بعضها بعضا

لأنها قصيرة. النصيوص متشابهة الفقرات وهم يقولون : إن هذا العهد الجديد هو خلاص الإنسان من الخطيئة أو من قرأه وآمن بما جاء فيه عمده القس أى أدخله جماعة الكنيسة وأصبح عضوا من أعضائها

أما الحواري بولص - وتاريخه ومكانه في المسيحية عظيمان جدا . وليس له إنجيل ولكن له في «العهد الجديد» بعد الإنجيل رسائل يعتبرونها من أسس المسيحية، والحقيقة أن هذا الرجل الذي كان قويا جدا وبالغ الذكاء والنشاط هو الذي فصل المسيحية عن اليهودة وجعلها دينا مستقلا وهذا واضح في خطابات تلك وهي :

- خطابه إلى أهل مدينة روما

- خطابه الأول إلى أهل كورنثة

- خطابه الثاني إلى أهل كورنثة

- خطابه إلى أهل غلطة (بفتح الغين

واللام ، من مدن آسيا الصغرى)

- خطابه إلى أهل أفيسوس

- خطابه إلى أهل فيليبين

- خطابه إلى أهل كولوسنيس

- خطابه الأول إلى أهل تساليا

- خطابه الثاني إلى أهل تساليا

- خطابه الأول إلى طماوس

- خطابه الثاني إلى طماوس

- خطابه إلى الامبراطور تيتو

- خطابه الأول إلى القديس بطرس

- خطابه الثاني إلى القديس بطرس

- خطابه الأول إلى القديس يوحنا

- خطابه إلى فيلومون

- خطابه الثاني إلى القديس يوحنا

- خطابه الثالث إلى القديس يوحنا

- خطابه إلى العبرانيين

- خطابه إلى يهوذا

- نظرة عامة على الأناجيل الزائفة أى

الأبو كريفيا

وهذه الخطابات تتضمن أفكار بولص التي انتهت إلى فصل المسيحية عن اليهودية وجعلها دينا قائما بذاته .

والحق إن بولص هو الذي صاغ المسيحية بصورتها الراهنة، فهو الذي أوجد فكرة الثالوث ، وقال إنه يتألف من الله والابن - وهو عيسى عليه السلام في رأيه - والروح القدس ، وإن هذه الثلاثة تكون إلها واحدا هو الله ولما كانت هذه أفكارا معقدة فقد بذل بولص جهدا عظيما ليوضحها ويثبت أن الله - تعالى عن ذلك علوا كبيرا - نزل الأرض وأخذ صورة عيسى ابن مريم وقبض عليه اليهود وصلبوه على

الصليب حتى مات ، ولهذا أصبح الثالوث أساسا للمسيحية البوليسية ، والمسيح نفسه حتى في الأناجيل لم يقل بالثالوث ، ولا بو عرفه ، ولكنه كان يتحدث عن الله أحيانا بقوله « أبى » ومن هنا أخذ بولص فكرة أن المسيح ابن الله، وقد اختلف بولص مع كثير من الحواريين في هذه النقطة وغيرها ومنهم مرقص منشى الكنيسة المصرية وهى الكرازة المرقسية ويرتب صاحب الإنجيل المعروف لدينا وهو يعتبر عند النصارى من الأبوكريفا وهى الأناجيل الراضة في رأيهم .

وبولص هو الذى صنع الكنيسة نفسها ، ولفظ الكنيسة باليونانية هو اكليسيا ومعناه جماعة المسيحيين، وبولص قال إن الجماعة المسيحية لا بد أن يكون لها مركز مادي هو الكنيسة ، وهو الذى أنشأ كنيسة روما وقال إن الله اعتبرها وارثة السيد المسيح وإن رئيسها — وهو البابا — ينبغي أن يكون ملكا على الملوك جميعا ، ومن بولص أخذ أساقفه روما هذا الكلام وجعلوا أنفسهم بابوات وملوكا على الأرض ، وزورا خطابا زعموا أن المسيح كتبه يجعلهم به أصحاب روما ومسافة شاسعة من أرض إيطاليا ، وقد أثبت البحاثة الفرنسي « مابيون » أن هذا الخطاب زائف :

أقول هذا كله لكى يفهم القارئ عنى كل ما سأقول بعد ذلك لأننا نحن المسلمين لدينا

القرآن الكريم ، وهو كلمة الله تعالى التى لا يأتها الباطل من بين يديها أو خلفها أى فى أى شئ يتصل بالحاضر والمستقبل أو الماضي ، وأمر العقيدة واضح عندنا ولا يمكن أن يدخله ريب . والمسيحية عندنا هى مرحلة من مراحل تطور دين الله سبحانه من أيام سيدنا آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى وأخيه هارون ثم عيسى ثم محمد عليه الصلاة والسلام ، وكل هؤلاء كانوا مسلمين ، ولا دين عند الله إلا الإسلام الذى يقوم على التوحيد الثابت لله سبحانه فلا أم له ولا أب ولا ابن وإنما هو الله خالق كل شئ . والمسلمون يقولون أنه ما دام دينهم واحدا وواضحا فكذاك غيره من الأديان ، وهذا غير صحيح ، فهناك مسيحيات مختلفة وكل منها دين قائم بذاته ، وكذلك هناك يهوديات مختلفة . ولا يدرك نعمة التوحيد إلا من يعرف هذه الحقائق .

• • •

ولما كان موضوع آدم وحواء وتحدى الشيطان لهما وإجراجهما من الجنة يعتبر أساسا من أسس الفكر التاريخي المعاصر على اعتبار أن الحياة على الأرض تحد وأن الإنسان معرض لهذا التحدى في كل خطوة يخطوها ، على الأرض وفي كل عمل يقوم به لأن الشيطان آلى على نفسه أمام الله أن يتعقب الإنسان ويتدخل في حياته وأعماله ليفسدها ، فقد اتجه ذهني إلى استخدام موضوع آدم وحواء كما ورد في القرآن الكريم

كموضوع قصصى حضارى هام وممتع وجذاب
استطيع أن أجتذب به الشباب إلى قراءة
القرآن وأعوده محبته والإقبال عليه .

والذى قال بنظرية الحياة على أنها تحد
هو الكاتب الإنجليزي تشاوسر « Chaucer »
ولكن قصته بسيطة وغير جذابة بالصورة
التي أريدها، ثم جاء الأديب الألماني
« فولفجانج جوته » وكتب نفس القصة في
رواية فاوست « Faust » التي تعتبر العمل
الأساسى الرائع الذى جعل هذا الأديب
من أعظم أدباء الدنيا ، فقد روى قصة
فاوست وصور التحدى فيها تصويرا بنديعا
يرينا حقيقة أن الإنسان في هذه الحياة معرض
لإغراء الشيطان وخداعه لإفساده، فإن فاوست
كان عالما مسنا وهب حياته للعلم ، وكان
يقضى أيامه يقرأ ويكتب ويعيش
حياة صالحة فاتمخذه الشيطان أو إبليس ،
واسمه في القصة مفيستوفيايس
Mafistofilis ودخل عليه في مكتبته وجعل
يغريه بينت جميلة تسمى هيلانة وقال له
لأفائدة من علمه السقيم هذا وأن حياته تضيع
في كلام لا يجدى وجهده تافه لا نتيجة له
وأنه لو اتبعه وكفر بالعلم والحياة الصالحة
قانه سيفتح له قلب هيلانة الجميلة ويرده
شبابا، فيكفر بالله ويستمتع بالبنت ليخذه في
النهاية أنه خسر حياته دون أن يكسب شيئا
هذا قيمة ، وقد كانت حياته قبل ذلك

هادئة جميلة وإن كانت مملة ولكنه الآن
ضيعها وتحول إلى حطام ، وهكذا يكون
الشيطان قد حقق إرادته وعبث بالإنسان
كما قال .

وقد درس المؤرخ الإنجليزي ارنولد
توينبى موضوع فاوست وقال إنه رمز على
حياة الإنسان ، والإنسان الأوروبى بصفة
خاصة، لأن الأوروبى يعتمد على الله حقا
ولكن اعتماده على العقل عظيم، والحياة عنده
تحد دائم وتهديد بالفشل، وإذا كان التحدى
في الماضى هو تحد بالفساد والخروج عن
طاعة الله فقد أضاف إليها في أوائل القرن
السابع عشر تحديا جديدا هو التحدى للنجاح ،
فإن الإنسان اذا وجد على الأرض فعلية
أن يعمل ويدرس وينجح ويغتنى ويتخلص
من الفقر ، وعليه ان يدرس ليتخلص من
الجهل، ويدرس الطب ليتخلص من المرض
ومن هنا أصبحت الحياة تحديا متصلا ،
فالإنسان لابد أن ينجح فإذا لم ينجح استولى
عليه الشيطان واذله وأفسد حياته ، ومعنى
ذلك أن الإنسان أصبح أمام تحدين تحد
اخلاقى دينى وتحدي حضارى .

وكل جهد الإنسان على الأرض إنما
هو استجابته للتحدى الحضارى لأن الإنسان
لابد أن ينجح والنجاح يكون بالعمل
ومحاربة ظروف الأرض والتغلب عليها وإلا

فلا معنى للحياة، ومن هنا فإن توبيخي يسمى الحضارة الأوروبية حضارة فاوستية أى استجابة للتحدى ، وهذه الاستجابة ينبغي أن تكون إيجابية أى تقدمية ، وتقدمية معناها ناجحة ، فن الناس من يواجه تحدى الحياة وينهزم أو لا يقوم بأى مجهود ، وهذه هى التى تسمى الاستجابة السلبية negative Response ومن الناس من يواجهه مواجهة ضعيفة فلا ينقصر ولا ينهزم ويظل مكانه وهذه هى التى تسمى استجابة لا معنى لها ولا فائدة useless Response وهناك من يواجهها مواجهة ناجحة فينتصر ويتقدم Progressive وهذه هى الأمم المتقدمة أو دول الدرجتين الأولى والثانى The first and second worlds أما الدول المتأخرة وهى دول العالم الثالث The third world nations دول الدرجة الثالثة

وقد قرأت قصة خلق آدم وحواء وعبث الشيطان بهما وإخراجهما من الجنة فى أسلوب بسيط جدا لا يفهم معنى التحدى ولا فكرته فرجعت إلى القرآن الكريم فوجدته يقص القصة فى أسلوب أجمل بكثير مما هو فى الكتاب المقدس، فإن القصة مرسلة فى القرآن لإرسالا قويا متماسكا يعطى حقا فكرة التحدى وتدخّل الشيطان فى حياة آدم وحواء وهذا كله معروض عرضا جميلا جدا. حقا إنه

يرد بنفس الأسلوب أحيانا فى أكثر من سورة ولكن له فى كل سورة معنى آخر يرتبط بالسياق لأن القرآن لا تكرر فيه قط ، فقد يورد نفس الآية فى سورتين فيخيل إلينا أنه يكرر ولكننا إذا نظرنا فى السياق والمناسبة وجدنا أن المعنى يختلف :

وقصة آدم وحواء وإبليس مقصورة فى القرآن فى سور شتى ، ففضيت أجمعها وأرتب فقراتها بعضها بعد بعض على نحو قصصى متماسك ، فوجدت نفسى أمام آيات من القرآن يحبها الصغار والكبار ويتذوقونها ويحسون حقا أن القرآن جميل، ثم إن القصة مروية بكامل تفاصيل التحدى بحيث إننا إذا قرأنا الآيات معا تبيننا قصة التحدى بكامل عمقها وشمولها، وأنا هنا أفسر الآيات القرآنية لا تفسير الفقيه بل تفسير المؤرخ، وهو يختلف عن تفسير الفقيه ولكنهما لا يتعارضان .

وفى النهاية عندما جمعت الآيات ورتبتها وربطتها بعضها ببعض اجتمعت لى حكاية خلق الله سبحانه الأرض وآدم وحواء وتحدى إبليس ثم خروج آدم وحواء من الجنة على أجمل صورة :

وفى إلى سآورد الآيات بحسب الترتيب الذى رأيته وسأعلق عليها بما أرى حتى تكتمل القصة أمام الشباب وغير الشباب ويزداد حبهم للقرآن وإقبالهم عليه .

ولما كانت قصة آدم وحواء موزعة في سور كثيرة في القرآن ، فساورد هذه الآيات فيما يلي مرتبة ترقيبا مترابطا كما رأيت، وسأتبع كل آياتة بالشرح والتعليق .

(١) سورة البقرة ٢٩/٢ :

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شئ عليم » .

رأيت أن أبدأ بهذه الآيات من سورة البقرة وهى تقص قصة الخلق بصورة مختصرة جداً وهى مروية فى سورة أخرى بصور هى أكثر طولا وتفصيلا ، ولكنى رأيت أن آتى بهذه الآية نظرا لاختصارها وهى تشرح قصة الخلق فى الإسلام شرحا هو غاية الوضوح :

(٢) السجدة ٣٢ / ٩/٥ :

٦ - « ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم » .

٧ - « الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » .

٨ - « ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »

٩ - « ثم أسواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » .

هذه الآيات غاية فى الجمال والعمق فهى تجمع حقائق كثيرة لا بد أن يعرفها الإنسان عن الإسلام فان الله سبحانه يعرف الحاضر والمستقبل (فى هذه الآيات) وتكتفى الآيات فى مدحه سبحانه وتعالى بصفيتين هما العزيز والرحيم لكى تدل على عظيم قوته ورحمته وهما صفتان متناقضتان إلا فى الله سبحانه فهو وحده القوى الرحيم ثم تقول الآيات « إن الله أحسن كل شئ خلقه » والمراد بقوله « أحسن » « أتقن » ومعنى ذلك أن الله أتقن كل شئ خلقه . ولما كان الله هو المثل الأعلى للإسلام فان إتقان العمل من الفضائل التى ينبغى أن يتوخاها المسلم ، والعمل غير المتقن لا مكان له فى الإسلام ولفظة أتقن مشتق من الإغريقية technos وهو الإتقان ، ومنه التكنولوجيا وهو العلم المتقن ويقال إن الله سبحانه خلق الدنيا فى ستة أيام ثم خلق التقن فى اليوم السابع .

ثم يقول : « وبدأ خلق الإنسان من طين » وهذا معروف علميا فإن أصل الإنسان من طين أو من تراب ، وخلق إبليس من نار ، وسنرى أثر ذلك فيما يلي من تفاصيل قصة آدم وحواء . وقد جعل الله نسل آدم من ماء مهين والمراد بذلك السائل الذى يخلق منه نسل الإنسان عندما يجتمع بالمرأة ، ثم يقول « ثم أسواه ونفخ من روحه » .

ويفسرون نفخ الله من روحه في الإنسان بأن الله نفخ في الإنسان العقل ، وهو الميزة الكبرى والوحيدة كذلك للإنسان على غيره من المخلوقات . ولأن الله قد رزق الإنسان العقل فقد أصبح مسئولاً عن أعماله لأنه يختار الطريق السليم بعقله كما نرى . أما غيره من الحيوانات والمخلوقات فتسير بالغريزة والله سبحانه وتعالى يرزقها لأنها دواب لا عقل لها بل غريزة . ويخطئ كثير من الناس عندما لا يعبأون ويقولون إن الله لا بد أن يرزقهم مادام يرزق كل دابة على الأرض ، ونحن نقول له إن الله يرزق الدابة لأنها دابة بلا عقل ، أما الإنسان فمخلوق له عقل ، والله سبحانه وتعالى هو الذي نفخ فيه هذه الروح بعد أن سواه ، أي بعد أن أتم خلقه . ثم رزقه السمع والبصائر لكي يرى طريقه ويسمع الأصوات ويميز قبل أن يختار . أما الأفئدة فالمراد بها العقول وهي في القرآن أيضاً « القلوب » والقلب هو العقل وهو الذهن الذي يميز به الأشياء ويتمحمل مسئولية أعماله .

* * *

(٣) - البقرة ٣٠/٢ - ٣٨ :

٣٠ « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ونحن نسبح

بحمديك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . »

٣١ « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين »

٣٢ « قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم »

٣٣ « قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »

وهذه الآيات واضحة المعاني وليس فيها ما يستحق الشرح إلا أن الله عندما علم آدم الأسماء كلها أراد بذلك أنه علمه كل اللغات وكل المعلومات اللازمة له في الحياة .

ونريد هنا أن نقف لحظات عند قول الله « إني جاعل في الأرض خليفة » فما المراد بخليفة ؟ بعض المسلمين يرون أن المراد بذلك أن الله جعل الإنسان سيد الأرض وأنه خلق خيراتها كلها له ، وهذا غير صحيح فالخليفة معناه مخلوق له عقل لكي يستفيد من خيرات الأرض جميعاً . وإلا فهل يعقل أن يعهد الله في الأرض إلى الإنسان هذا المخلوق الضار المفسد الذي أفسد الأرض كما ترى ، فليس في مخلوقات الله من يعرف الحرب أي القتل الجماعي إلا

الإنسان ، وليس في المخالقات من اخترع
المفرقات والديناميت والقنابل والرصاص
والمدافع والقنبلة النووية والهيدروجينية إلا
الإنسان . فكيف يكون الإنسان بهذا الشر
ثم يقال إن الله سبحانه جعله سيد الأرض
وصاحب كل ما عليها وسيد كل من عليها ؟

٣٤ - « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من
الكافرين » .

٣٥ - « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك
الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا
هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » .

٣٦ - فأزلهما الشيطان عنها فأخذ بهما
كانا فيه .

وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوا لكم في
الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

٣٧ - فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب
عليه إنه هو التواب الرحيم .

٣٨ - (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما
بأعينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف
عليهم ولا هم يحزنون » .

وبعد أن عصى آدم ربه وأكل من الشجرة
التي حرم الله عليه الأكل منها أخرجه الله من
الجنة وأهبطه إلى الأرض . ولكنه تاب عليه ،
أى إن الإنسان في الإسلام لا يحمل مسئولية

خطأ جده آدم ، وليس عليه أن يقضى
عمره يكفر عن هذا الذنب ولا ينبغي عليه
- كما قرر الرسول بولص - أن يحصل على
التوبة على يد قس من الكنيسة ، فإن
الكنيسة لا تغفر الذنوب ، والله وحده هو
الذى يغفر الذنوب .

وهذا القول بالخطيئة الأزلية هو من
مبتكرات بولص فقد أراد أن يقيم دولة
الكنيسة ويعل لها سلطانا على الناس فأنشأ
هذه الدولة وجعل قوتها في هذا الغفران
الذى يقوم به القساوسة بعد اعتراف الإنسان
بذنبه .

وفي الآية السابعة والثلاثين من سورة
البقرة نجد الله سبحانه وتعالى يأمر آدم وأولاده
أن يهبطوا إلى الأرض بعضهم لبعض عدو ،
والعداوة جزء من طبيعة الحياة على الأرض ،
فنحن نرى أن الإنسان تحول أولا إلى حيوان ،
وقل إن العنصر الحيوانى في طبعه استيقظ
فيه عندما أخطأ وأخرجه الله من الجنة
فأحس آدم أنه ذكر وأحست حواء أنها
أنثى وطفقا يخاصمان على سوءاتها من ورق
الشجر . ثم هبطا إلى الأرض وقد حلت العداوة
في قلوبهما ، وستحل في قلوب أبنائهما لأنها عنصر
من عناصر الحياة على الأرض أما في الجنة
فلم يكن هناك صراع على البقاء ولا عداوة .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يتتبع حكاية
آدم وحواء وتطورهما بغاية الدقة مرحلة
بعد مرحلة .

(٤) طه ١١٥/٢٠ ÷ ١٢٧ :

١١٥ - (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل
فنسى ولم نجد له عزما)

١١٦ - (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
فسجدوا إلا إبليس أبى)

١١٧ - (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك
ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى)

١١٨ - (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى)

١١٩ - (وأنت لا تظلم فيها ولا تصبحى)

١٢٠ - (فوسوس إليه الشيطان قال
يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك
لا يبلى)

١٢١ - (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما
وظفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى
آدم ربه فغوى)

١٢٢ - (ثم اجتباه ربه فتاب عليه
وهدى)

١٢٣ - (قال اهبطا منها جميعا بعضكم
لبعض عدو فلما يأتينكم منى هدى فمن اتبع
هدى فلا يضل ولا يشقى)

١٢٤ - (ومن أعرض عن ذكرى فإن
له معيشة ضنكا ونعشره يوم القيامة أعمى)

١٢٥ - (قال رب لم حشرتني أعمى
وقد كنت بصيرا)

١٢٦ - (قال كذلك أثبتك آياتنا فنسيتها
وكذلك اليوم تنسى)

١٢٧ - (وكذلك نرى من أسرف ولم
يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)
فهذه آيات أساسية بالنسبة لموضوعنا ،
فنحن نرى في أولها مصداقا لما سبق أن
قلناه من أن آدم لا يمكن أن يكون سيد هذه
الأرض وصاحبها ، فهذا هو الله يقول :
إنه عهد إلى آدم في الأمانة فنسى ولم يجد
له عزما ، وبهذه الصورة لا يمكن لآدم أن
يظل صاحب ثقة الله سبحانه ، ومادام
قد نسى ولم يجد الله له عزما فقد فقد مكانته
وأصبح مخلوقا مثل غيره . ولم ينتفع بجوهره
العقل التي أهداه الله إياها . وهذا بدوره
يؤيد ما قلناه من أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق
هذه الأرض لآدم وأولاده لكي يستمتعوا
بخيراتها ويتصرفوا فيها ، بل خلقها لكل
مخلوقاته على سواء .

* * *

(٥) الأعراف ١٠/٧ - ٢٧ :

١٠ - (ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا
لكم فيها معاش قليلا ماتشكرون)

١١ - (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم
قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس
لم يكن من الساجدين)

١٢ - (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك
قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من
طين)

١٣ - قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين .

١٤ - قال أنظرنى إلى يوم يبعثون .

١٥ - قال إنك من المنظرين .

١٦ - قال فيها أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم .

١٧ - ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين .

١٨ - قال اخرج منها مذعوما مدحورا لمن تبعل منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين .

١٩ - ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين .

٢٠ - فوسوس لها الشيطان ليبدى لها ما وورى عنها من سوءاتها وقال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين .

٢١ - وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين .

٢٢ - فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتها وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين .

٢٣ - قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين .

٢٤ - قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين .

٢٥ - قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون .

٢٦ - يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكر ون .

٢٧ - يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنها لباسها ليريها سوءاتها إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .

وهذه الآيات شاملة جامعة، وهى تقص علينا جوانب جديدة من قصة آدم وحواء وإبليس ، وتحدى هذا الأخير للإنسان وتحذير الله سبحانه وتعالى للإنسان من الشيطان . وفى الآيات تكرار لبعض ما سبق ولكنه تكرار لفظي فقط لأن المعاني هنا تختلف عنها فى الآيات الأخرى المشابهة .

ففى الآية الأولى من هذه ، وهى الآية العاشرة من سورة الأعراف يقول الله جل وعلا إنه بعد أن خرج آدم وحواء من الجنة بفعل إبليس نزلا إلى الأرض بعد أن أصبحا مخلوقين أرضيين أى حيوانين فيها الغرائز وطبائع الصراع للحياة وللبقاء ويمكن الله لهما معاشه أى سبيلا للعيش لعلهم يشكرون مع أن الإنسان بطبعه غير شكور .

ثم يعيد الله سبحانه قصة خلق آدم وحواء وإعطائه إياهما هذه الصورة التي هما عليها . ويلاحظ هنا أن القرآن لا يقول إنه صور الإنسان على صورته سبحانه كما تقرأ في الكتاب المقدس ولكن على الصورة التي اختارها لها ، لأن الله سبحانه وتعالى ليست له صورة معينة في الإسلام فهو سبحانه لا يشبهه شيء ومن ثم فلا يمكن القول بأن آدم صور على صورة الله ففي هذا مساس بالسمو الإلهي والوحدة الربانية .

ثم أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم والسجود هنا ليس للعبادة بل معناه مجرد الاعتراف بامتياز الإنسان لأن الله منحه العقل دون أن يكون في ذلك أى سيادة من الإنسان على غيره من المخلوقات إذ أنه لاسيادة في الكون إلا الله .

وفي الآية رقم اثنتى عشرة نعرف السبب الذى جعل إبليس يرفض الاعتراف بامتياز آدم عليه ، وهو أن الله خلق آدم من طين وخلق الشيطان من نار ، والنار فى رأى إبليس أشرف من الطين ، ولا أساس لذلك من الصحة إنما هو غرور الشيطان بنفسه .

وهنا أخرج الله من الجنة فلا يجوز له أن يبقى فى الجنة وهو على هذه الكبرياء وهنا نجد كيف بدأ التحدى بين إبليس وآدم ، فإن الله أمر إبليس بأن يخرج من الجنة

ومن الأرض : ولكنه سأل الله أن ينظره إلى يوم البعث فشأت إرادة الله أن يبقى لكى يكون فى ذلك اختبار للإنسان، وبقاء الشيطان إلى جانب الإنسان فى الحياة واجتهاده فى إفساد أمر الإنسان والوسوسة إليه بالشر منى التي كانت سببا فى التحدى فمن ذلك الحين أصبح الإنسان فى موقف تحدى . الشيطان يريد أن يوقعه فى الشر ويفسد حياته ، والإنسان لابد أن يثبت ويتنبه إلى حيل الشيطان ويقاوم الفساد .

وكان التحدى مقتصرًا فيما مضى على التحدى الأخلاقى وضرورة محافظة الإنسان على نفسه من الوقوع فى غضب الله ، كما حدث بلحده آدم ، ولكن الأوروبيين من أوائل القرن التاسع عشر ابتكروا فكرة التقدم أى إن الإنسان ينبغي أن يعمل لكى يكون فى غده خيراً من يومه، وهذه هى فكرة التقدم the idea of progress

ولم يكن الماضون يعرفونها ولكنها أصبحت أساس الحياة فى عصرنا، فلا بد أن يعمل الإنسان ويتعلم لكى يتقدم وإذا لم يعمل لم يتقدم وظل متأخراً وهذا هو أساس ما نراه اليوم من وجود عالم أول first world وهو العالم الغربى الرأسمالى الغنى ، والعالم الثانى second world وهو العالم الشيوعى وهو عالم قوى ومتقدم أيضاً

رغم شيوعيته ، ثم العالم الثالث Third World وهو العالم المتأخر الذى نسميه من جانب الذوق والأدب بالعالم المتقدم أى الذى يتقدم The progressive world ونحن نتقدم فعلا ولكن فى بطء .

ونرى هنا أن الله سبحانه وتعالى يحذر الإنسان فى نهاية هذه الآيات من الشيطان الذى أخرج جده آدم من الجنة . ويلاحظ أن الله ينبه هنا إلى أن الشيطان عندما أخرج آدم وحواء من الجنة كشف فى نفس الوقت جنسهما لكى يصبحا مخلوقين من مخلوقات الأرض ، لأن آدم وحواء لم يكونا يشعران بالجنس فى الجنة لأن البقاء فى الجنة خالده دون جنس ، أما عندما هبط الإنسان إلى الأرض فكان لابد له من المحافظة على نوعه بالجنس فأحس آدم أنه رجل وأحست حواء أنها امرأة وأصبح هذا الجنس من متاعب الإنسان فى حياته الأرضية . وقال الله إن الشياطين يعيشون مع البشر على الأرض ولكن البشر لا يرونهم فى حين أن الشياطين يرونهم وهنا يمكن أن نفترض أن الميكروبات التى تصيب البشر وتقتلهم ربما كانت فى جملة الشياطين .

(٦) الإسرائ ١٧ / ٦١ - ٦٩ :

٦١ - (ولما قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال : أأعبد لمن خلقت طينا .)

٦٢ - قال (الشيطان) أرايتك هذا الذى كرمت على ، لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا .

٦٣ - قال (الله سبحانه وتعالى) اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا .

٦٤ - واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ؟

٦٥ - إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا .

٦٦ - ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتهغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا .

٦٧ - وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا ؟

٦٨ - أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلًا .

٦٩ - أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ، فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ؟

٧٠ - ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم

على كثير ممن خلقنا تفضيلاً .

هنا نرى كيف أن الله سبحانه يتم التحدى فيطلق للشيطان الحرية في أن يفعل بمن اتبعه ما يريد ، فهو يستطيع أن يستفزز من استطاع أن يستفزه منهم بصوته ويجلب عليهم بكل قوته ، بل يستطيع أن يشاركهم في أموالهم وأولادهم ويعدهم بما يشاء والشيطان لا يعد الإنسان إلا بالغرور .

أما عباد الله المخلصون فلا سبيل للشيطان عليهم لأن وكيلهم هو الله سبحانه وكفى به وكيلًا .

ثم يعطينا الله صوراً من أفضال الله على البشر ، فهو الذى يجعل لهم الفلك ليركبوها في البحر ليبتغوا من فضله إنه كان بهم رحيمًا ، وإذا مسهم الضر في البحر فلن ينفخهم إلا الله سبحانه . ولكن يحدث أن الله بعد أن ينجي الإنسان من الموت في البحر ويوصله إلى البر أن يعود الإنسان إلى كفره وينسى فضل الله ويعرض عنه لأن الإنسان كفور .

وفي آخر هذه الآيات البليغة العميقة المعاني يذكر الله في الآية ٧٠ أنه كرم بني آدم وحملهم في البر والبحر ورزقهم من الطيبات ثم يقول الله سبحانه إنه فضل بني آدم على كثير ممن خلق تفضيلاً . ولم يقل إنه فضل بني آدم على كل من خلق وهذا يؤكد المعنى الذى قلناه فيما سبق أن الإنسان ليس أفضل

الخلق جميعاً ومن ثم فلا يمكن أن يكون الله قد جعل خيرات الأرض كلها له وحده فهو ليس أفضل ما خلق الله .

* * *

(٧) البقرة ٣٧/٢ - ٣٩ :

٣٧ - فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

٣٨ - قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

٣٩ - والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

هذه الآيات من أدل الآيات على طبيعة الإسلام وامتيازها على غيره من الأديان فإن الله تاب على آدم بعد أن أخطأ ، تاب عليه قبل أن يهبط إلى الأرض .

فهبط دون خطيئة ، ولا تزر وزرته وزر أخرى : هذا ونحن نعرف أن الإنسان في المسيحية هبط إلى الأرض بخطيئته بحسب ما قال بولص : وكان على الإنسان أن يكفر عن توبته أو يخلص نفسه منها بين يدي القساوسة : وهذا هو الذى أعطى للكنيسة هذه القوة الكبيرة على الأرض في حين أن الإنسان في الإسلام حر تمام الحرية . فمن الناس من يأتته هدى الله فيلتم به ولا خوف

عليه ولاذو يحزن . أما الذين يكفرون بنعمة الله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

* * *

(٧) الإعراف ٢٦/٧ :

٢٦ - (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)
هذه آية ذات معان حضارية عظيمة حقا فإن الله سبحانه عندما أهبط الإنسان إلى الأرض وجعله مخلوقا أرضيا وأراه سوءاته وسوءة امرأته حواء . وكانا قبل ذلك لا يعرفان الجنس ، ولا يشعران به في الجنة وعلم الله آدم كيف يصنع الكساء من أشياء شتى منها الريش ولكن أعظم لباس للإنسان هي التقوى أى الخوف من الله ومراعاته ، وذلك هو الستر الحقيقي للإنسان في حياته على الأرض هي التقوى أى مراعاة الله والخوف منه .

* * *

(٨) الأعراف ٣١/٧ :

٣١ - يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين .

٣٢ - قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون .

ونحن نرى هنا كيف أن الله يرسم للإنسان حياته الحضارية على الأرض فإن الله يأمر

الإنسان بأن يأخذ زينته عند كل مسجد أى عند كل مكان يقيم فيه الصلاة والله سبحانه يدعه حرا في أن يأكل ويشرب ما يشتهي إلا المحرمات لأنها كلها ضد صحة الإنسان وحياته . والله سبحانه يأمر الإنسان ألا يسرف في الأكل أو الشرب لأن الله لا يحب المسرفين :

ولما كان اليهود يحرمون على الناس الكثير من الأطعمة فإن الله سبحانه يدع الإنسان حرا يأكل ما يريد مما خلق الله ويلبس ما يشاء ، لأن كل خيرات الدنيا هي لمخلوقاته أجمعين وخاصة البشر الذين آمنوا بالله في الحياة الدنيا وكلها خالصة له حتى يوم القيامة .

* * *

(٩) الأعراف ٧ - ١٧٢ :

١٧٢ - وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين :

١٧٣ - أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون .

١٧٤ - وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون .

هنا نرى كيف أن الله سبحانه وضع نظام تناسل بنى آدم على الأرض وأشهدهم على أنفسهم أنه عرفهم أنه ربهم وذلك حتى

لأيدعوا يوم القيامة أنهم لم يتنبهوا إلى ألوهية الله سبحانه وواجب عبوديتهم له . وهذا التنبيه صحيح متصل في الأجيال كلها فلا يجي جيل يقول إننا كنا جيلا جديدا لم يبلغنا خبر الإله وواجبنا نحوه . وهذا هو الالتزام الخلقى للإنسان في هذه الدنيا وهو نعمة أنعم بها الله عليه في مقابل غفرانه ذنب خطيئته في الجنة .

* * *

١٠ - سورة التين ٩٥ :

١ - والتين والزيتون .

٢ - وطور سينين

٣ - وهذا البلد الأمين

٤ - ٥ - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين .

٦ - إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون .

٧ - فما يكذبك بعد بالدين :

٨ - أليس الله بأحكم الحاكمين .

هذه السورة القصيرة من أهم ما يقرأه المؤرخ الذى يخشى أن يكون هناك تناقض بين ما فى القرآن الكريم وما يقول به التاريخ من تطور الإنسان على الأرض وارتقائه . مراحل التطور فيوجد في هذه السورة القصيرة أنه لا تناقض إطلاقا وأن القرآن الكريم يؤيد ما تقوله أبحاث التاريخ .

فالسورة تبدأ بالقسم بنباتين من نعم الله سبحانه على الإنسان وهى التين والزيتون ،

والتين حلو ، والزيتون مر ، ولكنهما يؤكلان ولكل منها طعم جميل وفائدة عظيمة وهم ينبتان في نفس المكان .

ثم يقسم الله بطور سينين وهو الجبل الذى تحدث الله إلى موسى عليه السلام وهو عليه .

ثم يقسم بذلك البلد الأمين وهو مكة مستقر الحرم الإلهى ثم يقول إنه سبحانه خلق الإنسان في أحسن تقويم عندما كان في الجنة فكان هناك في أحسن تقويم ثم خالف الإنسان ربه فعاقبه بالإخراج من الجنة وتحول إلى مخلوق أرضى مثله في ذلك مثل أى حيوان آخر ، أى الإنسان - بحسب هذه الآية بدأ على الأرض من أسفل سافلين بدأ حيوانا عليه أن يكافح على الأرض ليحافظ على وجوده ثم يرتقى نتيجة للكفاح . وهؤلاء الذين يرتقون هم أولئك الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات أى ساروا على الطريق الأخلاقى الذى رسمه الله فيجازيهم الله عن ذلك أحسن الجزاء ، وهذا معنى : فلهم أجر غير ممنون .

ثم تتساءل الآية عما إذا كان من الممكن بعد هذا أن يكذب الناس محمدا صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من دين . وهذا كله يدل على أن الله هو أحكم الحاكمين .

* * *

(١١) سورة البلد ٩٠/٦ - ٢٠ :

٦ - يقول أهلكم ما لا لبدا .

٧ - أحسب أن لم يره أحد .

٨ - ألم نجعل له عينين ؟

٩ - ولساناً وشفقتين ؟

١٠ - وهديناه النجدين ؟

١١ - فلا اقتحم العقبة ؟

١٢ - وما أدراك ما العقبة ؟

١٣ - فلك رقبة ؟

١٤ - أو إطعام في يوم ذي مسغبة ؟

١٥ - يتيماً ذا مقربة ؟

١٦ - أو مسكيناً ذا متربة ؟

١٧ - ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ؟

١٨ - أولئك أصحاب الميمنة ؟

١٩ - والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشئمة.

٢٠ - عليهم نار مؤصدة ؟

وهذه الآيات تكشف لنا عن سر الخير في هذه الحياة الدنيا ، وكيف أن الله سبحانه وتعالى هدى الإنسان النجدين أى فتح أمامه الطريقين طريق الخير وطريق الشر طريق الفضيلة وطريق الرذيلة ، طريق الجنة وطريق النار ليختار منهما ما يختاره بعقله الذى أهده إلية الله ، وهذا بريننا كيف أن الإنسان - لأنه عاقل - مشغول عن كل أعماله ؟

وقد أهده الله عينين ليرى بهما ولساناً وشفقتين ليتكلم لكيلا يقول بعد ذلك إنه لم يرزق الوسائل التى تمكنه من الرؤية والفهم والتمييز بين الخير والشر وطريق كل منهما . ومن هنا فإن الإنسان لا يستطيع أن يقول إنه أهلك ما لا كثير آ فى الشر ، فهل يحسب أن أحداً لم يره ؟ هذا وهم لأن الله سبحانه وتعالى يراه ويرى كل ما يفعل ؟

فلذا فكر الإنسان واختار طريق الصواب اقتحم بذلك العقبة إلى الجنة من بين الأعمال التى يستطيع الإنسان أن يفعلها لكي يكون مطمئناً إلى أنه يسير فى طريق الرضا . وفلك رقبة أى المعاونة على إطلاق سراح إنسان مسكين وقع فى الأسر والعبودية ، أو إطعام فى يوم جوع عام يتيماً قريباً منه أو مسكيناً فقيراً ذا متربة وكان بعد ذلك من الذين آمنوا بالله واتفقوا فيما بينهم على الصبر واتفقوا على معاملة غيرهم من البشر بالرحمة وأولئك هم أصحاب الميمنة أى أصحاب الجنة أما الذين خالفوا الطريق وساروا فى طريق الشر فهم أصحاب الشؤم وأهل النار يدخلون النار وتوصد أبوابها عليهم .

وهكذا نصل إلى نهاية هذه الدراسة عن
قصة آدم وحواء في القرآن الكريم ، تتبعناها
عبر آيات كثيرة تكمل القصة وترينا كيف أن الإنسان
من يوم كان في الجنة وهو في موقف تحد من

الشيطان الذي يجتهد في أن يفسد حياة الإنسان
ويضلّه ، ثم هناك التحدي الآخر وهو تحدّي
العمل للتقدم والاهتداء إلى طريق الخير
والحضارة والتقدم .

حسين مؤنس
مفتي المجمع

ألفاظ الحضارة في الوثائق العربية

ذات الطابع الدولى

للدكتور عبد الهادى التازى

البحث الذى قدمه د . عبد الهادى التازى
للمجمع اللغة العربية بالقاهرة ، فى دورته
الخامسة والخمسين (27 فبراير 13 مارس

(1989

الأمر بحديثنا عن تاريخ علاقاتنا مع الأمم
الأخرى :

وإذا كان الاعتراف بالحق فضيلة كما
يقال فإننا فعلا مقصرون فى هذا الباب تقصيرا
يبلغ فى بعض الأحيان درجة لا تمتلك معها
غير الاعتراف بواقع الحال ...

وهكذا فإننا إذ نشيد بدور مؤرخينا
القدامى ممن دونوا تاريخنا من أمثال ابن جرير
الطبرى (ت 310 = 923) والبهكرى
(ت 487 = 1094) ومن أمثال ابن الأثير
(ت 630 — 1233) وابن واصل
(ت 697 = 1297) وما لنا لا نقول أمثال

الدولى لأمة مامن الأمم
يعنى الاهتمام بما يربط جهة

التاريخ

من الجهات مع غيرها ، من حيث علاقاتها
السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ...
وهكذا فإن التاريخ الدولى هو شىء غير
التاريخ المحلى الذى لا يعدو الاشتغال بالأحداث
والوقائع التى تجرى على الساحة الوطنية
المحدودة ..

وإذا كان العتاب قد وجه من قديم لنا
— نحن العرب — بسبب إهمالنا لتاريخنا الإقليمى
فلن الشعور بالعتاب يزداد حدة عندما يتعلق

(*) ألقى فى الجلسة الحادية عشرة يوم الأربعاء ٣٠ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٦ من مارس
(آذار) سنة ١٩٨٩ م .

ابن خلدون (80=1332) والقلقشندي
1418=821 والمقرئزي 1441=844
وغيرهم كثير وكثير في المشرق والمغرب ؟

لكنني إذ أشيد فيه بذكر هؤلاء أجزر
على القول بأنهم يتحملون نصيباً من التبعة في
عدم إعطائهم للوثيقة العربية ذات الطابع
الدولي ما تستحقه من عناية وما تتطلبه من
تتبع وملاحقة !

وينبغي لكي نتصور - باختصار - ما
أقصد إليه أن أذكر أن ابن خلدون مثلاً وهو
رجل دولة عايش كثيراً من أحداث عمره
على الصعيد الدولي ...

هذا المؤرخ العظيم لم يهتم بإعطائنا صورة
لما كانت عليه العلاقات بتفصيل بين المغرب
مثلاً والممالك الأوروبية ... هناك وثائق
دبلوماسية حررت على مقربة منه ولكنها لم
تجد لها صدى في كتابه ولولا احتفاظ أرشيفات
فرنسا أو إيطاليا بها لذهبت أخبارها أدراج
الرياح ... ؟

وسأضرب مثلاً أكثر دلالة على عدم
اكتراثنا بهذه الحقول من ثقافتنا الوطنية
وحياتنا السياسية ، أضرب المثل أيضاً
بالقلقشندي الذي لا نجد في كتابه صريح

الأعشى على حجمه وضخامته لا نجد إلا
صورة مكاتبة واحدة ترجع إلى عصر السلاطين
المماليك : وهي الرسالة الموجهة من دوج
البندقية ميخائيل إلى السلطان فرج بن برقوق
في 16 صفر 814=10 يونيو 1411 وعلى
ذكر العلاقة مع البندقية أذكر أن أصول
اتفاقية 12 رجب 818=17 سبتمبر 1415
مع البندقية تختفي من الأرشيف المصري ... !
إذا ما استثنينا الإشارة العابرة لها والمختصرة
جداً عند المقرئزي في (السلوك) وعند ابن
حجر في (أنباءات الغمر) (1) في الوقت
الذي نجد الترجمة الكاملة للاتفاقية في أرشيف
البندقية ، أكثر من هذا نجد لوحة رائعة
لسفارة البندقية التي وردت على سلطان مصر
شيخ بن عبد الله الحمودي وهي من الرسوم
التي يمكن لكل واحد أن يقف عليها في
الرواق الكبير بمتحف (اللوفر) لوحة بريشة
بيلليني (Bellini)

وفيما يتعلق بالمغرب كذلك نجد أنه في
الوقت الذي لا يوجد فيه بالأرشيف المغربي
أثر لنصوص الاتفاقية التي عقدتها المملكة
المغربية مع البندقية بتاريخ 19 رمضان 913=
11 يناير 1508 نجد أن أرشيف الدولة في

(1) د. رؤوف عباس : مصر وعالم البحر المتوسط - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع -

فينيسيا يحتفظ بالنصوص الكاملة للاتفاقية المغربية البندقية مع ترجمتها وكأنها حررت بالأمس ..

وهكذا يتأكد أن بعض كتب التراث مما ذكرته آنفاً ونوهت به ما يزال « مناجم » في حاجة كبرى إلى اكتشافها وتقصى ما ورد بين ثناياها بالرغم من شحته وقلته !

ومن حسن الحظ أن بعض زملائنا وأساتذتنا أخذوا يشعرون بفداحة الفراغ الذي تشكوه المكتبة العربية فيما يتصل بهذا الموضوع فأخذوا يحاولون رأب الصدع ، وقرأنا لهم في مختلف البلاد العربية عدداً من المقالات ، وربما ظهر عدد من المؤلفات (1) التي تتحدث عن هذه السفارة أو هذه الوثيقة وربما ظهرت ترجمات لعدد من الكتب التي أسهم بها أصحابها من جنسيات أخرى في موضوع العلاقات الدولية (2) . وقد أخذنا نقرأ - وهذه ظاهرة محدودة عن بعض الأطاريح التي تعالج بعض جوانب هذه المواضيع .

وإننا إذ نكبر كل الجهود التي تبذل من أجل كتابة تاريخ علاقاتنا الدولية بما كان يصحبها من ظهور أسماء لبعض الشخصيات

وظهور أعلام جغرافية كذلك . وبما كان يقرن بها - أحياناً - من مناظرات ومحاورات حول شتى الموضوعات ... وبما كان يظهر على إثرها من كتابات وإفادات ... إذ نكبر كل ذلك ما نزال نعتبر أن جل أمهات التراث السياسي العربي والإسلامي وخاصة منه ما يتصل بجانب التاريخ الدبلوماسي ما تزال « مناجم » - كما قلنا - في حاجة إلى الكشف والاستكشاف ... وما تزال في حاجة إلى حفريات متوالية ووثيدة ليس فقط في خزائنا ومستودعاتنا بالبلاد العربية ولكن - وهذا مهم - في الخزائن والمستودعات التي تحتضنها الأرشيفات في الديار الغربية ...

لقد أتيت الفرصة لي - وأنا أحضر كتابي « التاريخ الدبلوماسي للمغرب » أن أتحدث على أرشيفات الدولة في معظم البلاد الأوروبية مثلاً ... هناك في بيزة وفي جنوة ، وفي فينيزيا وناپولي وفي ليشبونة وفي سيانكاس ... وباريز ولندن إلخ ... يجد المرء نفسه أمام متاحف عربية بكل ما تؤديه كلمة « المتحف » من معنى ... ليس في باب التراث كمخطوط ولكن فيما يتصل بعلاقات البلاد الغربية ، والإسلامية بالعالم الغربي .

(1) د. صلاح الدين المنجد : للنظم الدبلوماسية في الإسلام ، دار الكتاب الجديد ، بيروت لبنان 1983=1403

(2) وري ميخايلوفتش كوبيشا نوف : الشمال الأفريقي الشرقي في العصور الوسطى المبكرة وعلاقاته بالحزرة العربية . نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم - عمان 1988 .

وقد كان مما يثير الانتباه في أمر هذه الوثائق موضوع الهدايا المتبادلة بين ملوك ورؤساء الدول ، كانت هذه الهدايا تكون وحدها عنصراً على حدة يعبر عما وصل إليه الفكر الحضارى العربى بين الأمم من تذوق لنوع ما يهدى وشكل ما يقدم للامم الأخرى ، حيث تتبارى المكايسات والمجاملات فى انتقاء ما يجلب تقدير الآخرين ويترجم لهم عن مركز وقيمة ومكانة هؤلاء الذين تقدموا بهذه الهدايا والعطايا . وما تزال أمامنا الحكمة المروية عن النملة : « إن الهدايا على مقدار مهديها » .

فهنا نرى أن الذى يقدم الهدايا يحرص على أن يظهر أتم ظهور ... وهكذا فإن الهدايا فى الواقع بمثابة بطاقة تعريف تحسّل معها الحثيات والإمكانات والقدرات ...

وقد رأيت أن أقدم بهذه المناسبة بعض اللقطات التاريخية التى تعبر عن بعض الجوانب المغربية الحضارية التى اتسمت بها العلاقات المصرية فى العصر الوسيط ويتعلق الأمر بحديث جميل شاهده سنة 733=1338 ، ويتمثل فى إهداء العاهل المغربى السلطان أبى الحسن المرينى المصحف الكريم الذى خطه جميعه بذات يده إلى المسجد النبوى بالمدينة المنورة شكراً لله على توحيد المغربين الأقصى ، والأوسط ... وتعبيراً عن الحمد لله على أن مهد الطريق لحج بيت الله ... لقد عهد العاهل

المغربى السلطان أبو الحسن للإميرة المغربية مريم محل والدته بتبليغ المصحف إلى مكانه المخصص له . وكان السلطان الناصر محمد ابن قلاوون هو المخاطب الأساسى لإنجاح هذه المهمة وتحقيق هذه الرغبة .:

ومن حسن الحظ هذه المرة أن نجد الوثائق بين أيدينا ونجد المؤلفات كذلك فى مساعدتنا سواء فيها المؤلفات التى حررت بالديار المغربية أو الأندلسية أو التى ألقت كذلك بالديار المصرية .

وهكذا نمتلك حول هذا الموضوع مادة جسيمة تتمثل فى المراسلات الدبلوماسية ، والحوليات التى حررت من طرف شاهدى عيان والتى ترجم بعضها إلى الفرنسية والإسبانية والإنجليزية كذلك .

ويحتوى مجموع تلك المستندات على ثروة من ألفاظ الحضارة وأفعال الحضارة ، كذلك كانت تقتضى منا أن نلتفت إليها تحقيقاً وتعليقاً سيما وقد تعرض بعضها للتحريف عند النسخ أو عند الطبع أو عند الترجمة كذلك .

كان فى مقدمة المصادر التى تناولت الموضوع من الجانب المغربى :

أولاً : الرسائل الدبلوماسية التى رفعت من العاهل المغربى إلى العاهل المصرى والأولى منها تضيف إلى مهمة الوفاة معلومات عن الحالة السياسية فى المغرب وعن ظروف

العلاقات المغربية القشتالية في الأندلس : إن
النية كانت مصروفة لإرسال والدة السلطان
حسبما أخبر به سلطان مصر السفير ابن الجراح
لكن بما أن الوالدة هارت إلى عفو الله فإن
سلطان المغرب يبعث بزوجة والده محل
والدته : واستجابة لطلب ملوك مصر إخباره
بمتزيادات المغرب وجدنا السلطان أبا الحسن
يقدم المعلومات المطلوبة . أما الرسالة الثانية
فقد تخصصت لمهمة الوفادة : حمل المصحف ..
وحج الأميرة ... وذكرت من أعضاء الوفد
المغربي أبا إسحاق بن يحيى السويدي وأمير
الركب الحسن بن عمران ... وهذا الخطاب
« كتب في يوم الخميس المبارك الخامس
والعشرين من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين
وسبعمائة (21 أكتوبر سنة 1337) » .

وقد وردت نصوص هاته الرسائل في
صبح الأعشى للقلقشندي في المجلد الثامن منه .
ثانياً : كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة
تأليف لسان الدين بن الخطيب سنة
(776=1375) في مجلده الرابع (1) .

ثالثاً : كتاب المسند الصحيح الحسن
في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن
(781=1379) . تأليف محمد بن مرزوق
التلمساني (2) .

رابعاً : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
تأليف ابن خلدون في مجلده السابع والأخير
وفي كتاب (التعريف) الذي ألحقه الناشر
بكتاب العبر .

وقد كان كذلك في صدر من اهتم بهذا
الحدث من الجانب المصري .

أولاً : الخطاب الدبلوماسي الذي راح من
السلطان الناصر محمد بن قلاوون جواباً
على رسالة العاهل المغربي السلطان أبي الحسن
ويلاحظ أن الناصر يجعل الرسول هو أبا إسحاق
إبراهيم بن أبي يحيى (التازي) ويصف
السويدي بالحاجب الكبير ويكتفي بذكر الكاتب
أبي الفضل بن أبي عبد الله بن أبي مدين . .

ثانياً : صبح الأعشى للقلقشندي . .

(1) صدر بتحقيق محمد عبد الله عنان ج / 4 ص 322—325

() صدر هذا الكتاب عن المكتبة الوطنية بالجزائر ، بدراسة وتحقيق د . ماري خيسوس بيغيرا ، تقدم
عمود بوعياذ - الشركة للوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1401=1981 وقد كانت المحقة ترجمته إلى
الأسبانية عام 1977 ، وصدر عن المعهد الأسباني العربي للثقافة بمديرية ظهرت قبل هذا عام 1925 دراسة
وترجمة بالفرنسية لخب من الكتاب الأستاذ ليني بروفمال .

esperis 1925 T.V. 1 Trimestre

- ثالثاً : كتاب الساوك لمعرفة دول الملوك
لتقي الدين المقرئى . . .
(ت 845=1441)
- تضمن هديته إلى صاحب الديار المصرية
صهبة الربعة الكريمة بخطه . . . وفى ذلك يقول
ابن الخطيب:
- 1 — قبة كبيرة من مائة (بنيقة(1)) وفيها
أربعة أبواب .
- 2 — قبة أخرى من ستة وثلاثين (بنيقة)
داخلها حلة معلقة ووجهها حرير أبيض ،
وركيها أبنوس وعاج مرصع والأكبار(2)
فضة مذهبة والشرائط حرير . . .
- وقد ضربت القبستان بالصفيصف(3) ،
وحل فيها جميع الهدية وصفت جميع الدواب
بجهازاتها أمام القبة .
- 3 — ثلاثمائة من الخيل .
- 4 — خمسة وثلاثون من البغال بين ذكور
وإناث(4) .
- رابعاً: ابن إياس الحنفى (ت 930=1524)
فى كتابه بدائع الزهور فى وقائع الدهور . . .
وهكذا فنحن أمام إفادات تتضافر جميعها
على تسجيل مقدم الأميرة المغربية فى اليوم
الثانى والعشرين من رمضان سنة 738=13
أبريل 1338 .
- وإذا ما رجعنا إلى رواية ابن الخطيب
(ت 776=1375) وهو أقرب تاريخ
للزيارة فإننا سنجد فى معرض إشادته بالسلطان
أبى الحسن المرينى يأتى بنسخة العقد الذى

(1) بنيقة : كلمة عربية عرفت تطورات عديدة فى دلالاتها ، ومن جملة ما تعنى الحجرة يتخذها
الوزير ، مثلاً ، مكتباً له ، وربما منها . بتعريف . أتت كلمة (Cabinet (Ministériels) ولأجل تصور
وجود بنائق داخل القبة ينبغى أن نعرف معنى كلمة (أفراق) المحرفة عن (فرق) وهى تعنى مجموعة
مضارب صغيرة يستقر فيها أعضاء الحكومة أثناء السفر وقد فهم كانار CANARD خطأ أن القصد
بالبنيقة هنا قطعة الثوب G.S. Colin, Encyc. ISLAM 1954

(2) جمع كبر القصد إلى أعلى القبة أى ذروتها وتفاصيلها .

(3) محلة بتلمسان حيث كان العاهل المغربى يقم انذاك .

(4) كان جميعا بسروج ولحم مسقطة بالذهب والفضة . . . وبمفها سروجها وركبها من الذهب .

- (5) سبعمائة من الجمال إلا أنها لم تصنف بل أعدت لحمل الهدية .
- (6) أربعة وثلاثون من البزاة الأحرار .
- (7) مائتان وخمسة وعشرون من أحجار الياقوت (1) .
- (8) مائة وثمانية وعشرون من قضب الزمرد (2) .
- (9) ثلاثة آلاف وأربعة وستون من حبوب الجواهر الفاخر أكثره .
- (10) ثمانية وعشرون من أحجار الزبرجد .
- (11) عشرة من المهندات بحلية الذهب .
- (12) عشرة أزواج مہاميز من الذهب .
- (13) عشرة أزواج الأركب ، واحد كله ذهب وثلاثة كلها فضة وستة من حبيبة مذهبة على الحديد (3) .
- (14) مضمثان من ذهب .
- (15) شاشية مذهبة .
- (16) ثلاث عشرة حلة (مذهبة) .
- (17) عشر كلل .
- (18) مخاد مائتان بعضها نرف (4) ذهب وبعضها حلل .
- (19) عشرون أنساقاً ذهب (5) .
- (20) ستة وأربعون من القدود (6) .
- (21) فرش جلد (7) .
- (22) عشر علامات معشقة (8) .
- (23) عشر وقايات مذهبة .
- (24) ثلاثون من وجوه اللحف حرير وذهب (9) .
- (25) مائتان من المحررات الملونة الرفيعة الختمة .

- (1) ينعت ابن مرزوق الياقوت بأنه فاخر عظم القدر والمقدار ، النفح . 400,4
- (2) قضب ج قضيب ، تنظم فيه قطع الزمرد DOZY
- (3) نقل ابن الخطيب هنا أكثر وضوحاً ودقة .
- (4) (النزق) آلة النساج من تسمية الشيء باسم آله .
- (5) رسم عند آخرين انزاق جمع نزق 1939—1941 A. I. E. O.
- (6) يسميها ابن مرزوق أيضاً (الخلادى) جمع خلدى . جلد الغنم كانوا يتخذون منه لباساً . . .
- (7) M. Canard : Relations . . AIE.O 2932—41
- (8) يفع دوزى علامة استفهام على هذا اللفظ فلعلها معشقة أى مغشاة
- (9) يعادها ابن مرزوق عشرين

- (26) حيطيان أحدهما حلة والآخر نرق (1)
 (27) ثلاثة وعشرون شقة من الرصان (2)
 (28) إثنان من حنابل الحلة .
 (29) عشرة براقع للخيل ، منها ثمانية من الحلة .
 (30) مائتان من درق اللط المئمة (4)
 (31) ثلاثة طافس من الحرير .
 (32) حنبلان اثنان من الحرير .
 (33) عشرة حنابل من الحرير و الصوف .
 (34) مائة وسبعة من الحنابل الونشريشية والزمورية .
 (35) أربعة آلاف من الجلود الشركى ... والإغماتى .
 (36) مائتان من درق اللط المئمة (4) .
 (37) أربعة وعشرون من الأكسية المحررة .
 (38) ثمانية من البرانس المحررة .
 (39) عشرون من الأحارم ما بين محررة وصوف .
 (40) ثلاثون من أسلة (3) الخيل .
 (41) عشر لزمات من الفضة (6) .
 (42) ست عشرة شقة من الملف (7) .
 وأما أزودة الحجاج ، يتابع ابن الخطيب
 لألحة نسخة العقد التى وقف عليها :
 أعطى للحرمة المكرمة (8) أخته أعزها الله
 ثلاثة آلاف دينار من الذهب ومائتى كسوة
 برسم العرب .

- (1) تعبر ابن مرزوق . نسق
 (2) لعل أصل الكلمة من الإيطالية RASO
 (3) جمع سليل ، تعنى التجفاف ، يتق به كالدرع للفرس والإنسان
 (4) يضيف ابن مرزوق فيها إثنان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة
 (5) فى ابن مرزوق المشغف ، أى الشفاف Voir M. Canard — A.I.E.O.
 (6) اللزمة هى الشكيمة
 (7) جوخ يستورد من (أمانى) الإيطالية ، ويعرف بملف للطلبيان
 (8) يلاحظ أن الرسالة الرسمية التى بعها السلطان أبو الحسن تمنعت الحجة فى الرسالة الأولى : من
 يمت محرمة المحرم إلينا ويلزم بحق التربية علينا من يقوم عندنا مقامها « وفى الرسالة الثانية » « وهى
 محل والدتها المكرمة المبرورة ... » وفى ابن مرزوق يسحبها بمرم ويظهر أن الرسالين السلطانيتين تعمدتا
 هذا التكم فتللك للعادة المتبعة ...

* أعطى لمن سافر معها ستائة وسبعين
ديناراً (1) .

* أعطى لأبي إسحاق بن أبي يحيى ثلاثمائة
دينار من الذهب وكسوة رقيقة .

* أعطى لعريفه يحيى السويدي ألف دينار
من الذهب .

* أعطى للوصفان والخدم العدد الكثير
من الذهب .

* أعطى لرسوم التحبيس على قراء أربعة
الكرامة ستة عشر ألفاً وخمسمائة دينار (2)
وعلى غيرهم من علماء المالكية .

* * *

ويأتى بعد لسان ابن الخطيب ابن مرزوق
الذى يذكر هو الآخر أنه يعتمد في لائحته
على ما ضبط من نقل المتولى لذلك ، ومن
خلال المقارنات والمفارقات بين إفادة ابن
الخطيب وابن مرزوق يظهر أن الاختلاف
بينهما لا يكاد يذكر على ما وقفنا عليه في
التعليق المقتضية السابقة .

ولذا ما رجعنا أخيراً لابن خلدون فسنجد
في صفحتين متتابعتين من كتابه يردد عبارة :

أن الناس تحدثوا في البلاد دهرًا كاملاً عن
يوم مقدم الأميرة المغربية ، ويقول : إنه
وقف على برنامج الهدية بخط أبي الفضل
ابن أبي مدين لكنه ، أي ابن خلدون ونسيه !
وأن بعض قهارة الدار ذكر له كذا وكذا
مما كان يقارب الجرد الذى قدمناه نقلًا عن
ابن الخطيب .

* * *

ونرى في البداية أن نقف قليلاً أمام أربعة
الكرامة ، أي الصندوق المعد للمصحف
الشريف ، الذى نسخه للعاهل المغربي ، على
ما أسلفنا ، بخط يده وجمع الوراقين لمعانة
تذهيبه وتنميقه ، واستدعى القراء لضبطه
وتهذيبه حتى اكتمل شأنه — كما يقول
ابن مرزوق وابن خلدون معاً — : لقد كان
العاهل حبس هذا المصحف ابتداء على شالة
(مقبرة بنى مرين المطلة على وادى بورقراق
بالرباط) . . لكنه — وقد عزم على أن يبعث
أم ولد أبيه بعد وفاة والدته — قرر أن
يبعث بالمصحف إلى المدينة المنورة ، وهنا
وضع له وعاء مؤلف من خشب الأبنوس
والعاج والصندل الفائق الصنعة ، وغشى
بصفائح الذهب ونظم بالجواهر واليساقوت ،
وقد اتخذت له أصوثة الجلد المحكم الصنعة

(1) ينبغي أن نشير هنا إلى أن العدد العديد من السيدات اللاتي رافقن الأميرة كن من زوجات وكريمات
الوزراء والكبراء والقضاة على ما سندكره .

(2) يتساءل هنا عن عدم ذكر ابن مرزوق للكاتب أبي الفضل بن أبي مدين الذى ورد ذكره في خطاب
السلطان الناصر للسلطان أبي الحسن . . .

المرقوم أديمها بخيوط الذهب ، ومن فوقها غلاف الحرير والديباج وأغشية الكتان قبل أن يأخذ الركب طريقه من حاضرة تلمسان (1) في النصف الثاني من شهر جمادى الثانية على ما نقدر استثناساً برحلة مماثلة تمت في ظروف مشابهة سنة 1143=1731 (2) .

وحتى يحصل الغرض الذى قصده العاهل من تحجيس المصحف أخرج من خزائنه أموالاً عيناً لشراء الضياع بالمشرق لتكون وقفاً على القراء فيها ... وهو النص الذى يوضحه ما جاء فى اللائحة التى أسلفنا الحديث عنها (3) .

فإذا عن جواب مضر على هذه الوفادة التى تحدث الناس عنها دهرأ على ما أسلفنا ؟ هنا سنرجع للمعلومات القيمة التى أوردها المقرئ فى كتابه « السلوك » وهو المصدر الوحيد - على ما أعلم - الذى حدد يوم 22 رمضان سنة 738=13 أبريل 1338 (4) موعداً لوصول الأميرة التى ينعتها ببنت السلطان .. التى قدمت ومعها هدية جليلة للغاية ، نزل حملها من الاصطبل السلطاني ثلاثون قطاراً من بغال النقل سوى الجمال ،

(1) حضر ابن مرزوق هذه الأيام بتلمسان مع العاهل المغربى الذى أضفى عليه من عمارته ، ويفيدنا ابن مرزوق أن المصحف كان ما يزال بالمغرب ليلة عيد المولد النبوى 738 ، وقد أنشدت فيه عدد من القصائد الشعرية خلق يحفظ ابن مرزوق هذان البيتان .

يسا مصحفاً سارأى الراؤون فى زمن شهاً له مصحفاً من نسخ سلطان فضيلة مثلها فى الدهر ... عرفت من عهد عثمان إلا لابن عثمان ويفيد ابن مرزوق هنا أنه شاهد المصحف بالحرم النبوى ، هذا وقد تقيت أثر هذا المصحف فى المدينة فلم أقف له على أثر ، فى حين وقفت فيه على المصحف الذى حبس على بيت المقدس . . . التازى : أوقاف المغاربة فى القدس ، مطبعة فغالة (المحمدية) سنة 1981 ص 21-22 .

(2) القصد إلى الرحلة التى قامت بها الأميرة خنائة زوجة السلطان مولاي إسماعيل وأم السلطان مولاي عبد الله ، التى حجت صحبة حفيدها الأمير سيدى محمد بن عبد الله الذى أصبح ملكاً للمغرب : محمد الثالث لقد كان على الركب الأمير أن يقضى سبعين يوماً فى الطريق بين مدينة فاس التى ودعها يوم حادى عشر جمادى الثانية من سنة 1143=22-12-1730 وبين أول نقطة فى ولاية طرابلس د . التازى : أمير مغربى فى طرابلس أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقى (مطبعة فغالة 1976) .

(3) ينبغى أن نذكر هنا أن بعض المؤرخين يرون أن تقديم السلطات أبى الحسن مثل هذه الهدايا النخمة لسلطين مصر مقترنة بالمتزيدات عن امتداد سلطانه إلى حدودهم لم يقع موقع رضى من أولئك الحكام الذين نفسوا عليه ذلك الأمر الذى يفسر لإيواءهم لابن تافرا جن ألد خصوم السلطان أبى الحسن .

(4) يذكر ابن إياس خطأ أن الحرة حضرت مصر عام 736=1336 على ما أسلفنا - بدائع الزهور تحقيق محمد مصطفى ، الجزء الأول - القسم الأول ص 472 . الهيئة المصرية للكتاب القاهرة 1402=1982

وكان قد خرج المهمندار إلى لقاءهم وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح (1) ... وهم جمع كبير جداً . يقول المقرئزي : وكان يوم طوع الهدية من الأيام المذكورة ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسرهم على قدر مراتبهم حتى نزلت كلها ، سوى الجوهر واللؤلؤ ، فإنه اختص به ، فقدرت قيمة هذه الهدية بما يزيد على مائة ألف دينار .

ثم نقلت الحرة إلى الميدان (2) بمن معها ، ورتب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم بكرة وعشية ما عظمهم وفضل عنهم ، فكان مرتبهم في كل يوم عدة ثلاثين رأساً من الغنم ونصف أردب (3)

أرزاً وقنطار حب الرمان (4) ، وربع قنطار سكرأ ، وثمان فانوسان شمع (5) وتوابل الطعام ، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم ، وكانت أجرة حمل أثقال ركبتها قد بلغت ستين ألف درهم ... ثم خلع على جميع من قدم مع الحرة : فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين على قدر طبقاتهم حتى على الرجال الذين قادوا الخيول ، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يحل قدره ، وقيل لها : أن تملئ ما تحتاج إليه (فقالت) : « لا يعوزها شيء ، وإنما تريد شكر عناية السلطان بإكرامها وإكرام من معها حيث كانوا » .

(1) سمي هذا المسجد بالفتح لأن منه كان انهرام الروم إلى قصر الشمع حين قدم الزبير بن العوام والمقداد ابن الأسود فيمن سواهما مدداً اعمر بن العاص ، وكان الفتح ، وإن تحت حائط الشرقي قبر عامر الذي كان أول من دفن بالقرافة ، ومحراب مسجد الفتح منحرف عن خط سمت القبلة إلى جهة الجنوب انحرافاً كثيراً على نحو محراب جامع القرويين بفاس المغرب ... المقرئزي : الخطط ، طبعة بيروت ، 3 ص 447-450 د . التنازي : جامع القرويين ج 3 ص 656 طبعة بيروت 1922

(2) أي ميدان يقصد ٩ فالميلادين كثيرة على ذلك العهد في القاهرة ميدان القلعة وميدان القصر ، وميدان الملك العزيز إلخ انظر الخطط 3 ، ص 19-76 وانظر كذلك كتاب نظم دواة سلاطين المماليك للدكتور عبد المنعم ماجد ص 137 .

(3) الأردب مكيال ضخم في مصر يساوي 24 صاعاً ج أرادب .

(4) يمكن أن نلاحظ أن الرمان كان من الفواكه المدخنة لأن موسمة عادة هو الخريف ، ومعلوم أن الوفادة المغربية وصلت في إبريل ربيع 1338 .

(5) الفانوسيات ج فانوسية وهي على ما عند دوزي (Dozy) كمية معينة من شمع القوانيس والظاهر أن تلك الكمية كانت قدر ما يكفي للفانوس الواحد ، والفانوس لفظ يوناني معرب .

صاحبهم ، وجواباً على الهدايا المغربية وجدنا ملك مصر يسنى الهدية للسلطان أبي الحسن فيقدم له علاوة على ثياب الإسكندرية البديعة النسيج المرموقة بالذهب ، علاوة على ذلك أنواعاً من الفساطيط المصرية الغربية الهيكل والصنعة بالمغرب على ما يذكره ابن خلدون في كتابه (التريف 5) .

وقد وقفنا في هذا المصدر على تفصيلات أدق عن الفساطيط المصرية المهداة : إنها خيمتان شاميتان كانتا مئثار إعجاب كبير من سلطان المغرب ، ويتعلق الأمر بخيمة عظيمة على تصميم قصر فخم تشتمل على بيوت للمراقدة وأواوين للجلوس وأماكن للطبخ ،

فتقدم السلطان إلى النشو (1) وإلى الأمير أحمد أقبغا (2) بتجهيزها اللائق بها فقاما بذلك واستخدما لها السقائين والضوئية ، وهياً كل ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلوى والسكر والدقيق والبشماط (3) وطلبا الجمالة لحمل جهازها وأزودتها ، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولى الخيزة (4) ، وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام الحمل ويمثل كل ما تأمره به ، وكتب للأميرى مكة والمدينة بخدمة أتم خدمة .

وهكذا لقاهم سلطان مصر في طريقهم أنواع البر والتكرمة حتى قضوا فرضهم ، ووضعوا المصحف الكريم بحيث أمرهم

(1) هذا لقب كان يعرف به المشرف على الكتابة الخاصة بالملك مصر ، ما كان يسمى «ناظر الخاص» ويتعلق الأمر بشرف الدين عبد الرهاب بن التاج فضل الله الذي تردد ذكره كثيراً عند المقرئى فى الساوك، كما ورد ذكره أيضاً فى الخطط (ج 3 ص 80) فى معرض حديثه عن المطبخ . قال : أمر القاضي شرف الدين المطبخ الساطانى فى سنة 739 فوجد عدة الدجاج الذى يذبح كل يوم للبساط سبعة طائر .

وقد قتل عام 740 عتقاً له من الملك الناصر ، وقال فى النجوم الزاهرة ج 9 ص 132 . وجدت له صناديق كثيرة فيها قماش اسكندري مما عمل برسم الحرة جهة ملك المغرب قد اختلسه .

(2) يفترض الأستاذ كانار أنه ربما كان هو علاء الدين أقبغا صهر السلطان الناصر . Marin's Canard.

Les relations entre les Merinides et les Mamlouks. A.I.E.O. T.V 1939—41 P.62

(3) قطع من الحلوى الناشفة المجمرة تصبر على مدى الشهور ، والكلمة من أصل رومى ورد ذكرها علاوة على المقرئى فى الوثائق التركية بعد هذا التاريخ .

(4) متولى الخيزة يعتبر من ألصق الشخصيات بالسلطان الذى له بالخيزة عدة أملاك على ما يؤخذ من الخطط للمقرئى .

(5) ابن خلدون . التعريف ج 7 ص 1668 طبعة بيروت - د . التازى التاريخ الديبلوماسى للمغرب ج 7 ص 216 رقم الإيداع القانونى 1986/25 مطابع فضالة 1988=1408 .

وأبراج للإشراف على الطرقات وردحات عديدة فيها واحدة لخلوس السلطان للعرض ، وفيها تمثال مسجد بمحرابه وعمده ومثدنته ، وحوائط الخيمة كلها من خرق الكتان الموصولة بحيك الخياطة ، مفصلة على الأشكال التي يريدونها المستعملون لها ... أما الخيمة الشامية الثانية فهي على شكل مستدير عالية السمك ، مخروطة الرأس ، رحبة الفناء ، وهي تظلل أزيد من خمسمائة فارس . هذا إلى قطعة من الكسوة الثقيلة للكعبة على ما جاء في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري الذي حج في نفس العام (1) .

وإذا كانت هذه الوثائق بما تضمنه من رسائل وأجوبة ... وما تشمل عليه من نقول وفصول تعبر في حد ذاتها عن مظاهر حضارية أصيلة ، فإننا مع ذلك سنركز على بعض الألفاظ التي استرعت انتباهنا مما كان لها وزن في استعمالات العالم المتمدن ... وسنكتفي بعرض بعضها معلقين بما نراه ضرورياً ، لاستجلاء أمرها كما أننا سندرج فيها بعض الألفاظ الدخيلة (فارسية أو يونانية) (2) التي أصبحت — بحكم ممارسة العرب لها — داخلة في المعجم العربي .

(1) فيما يتصل بالربعة :

ومعلوم أن الربعة كما أسلفنا هو الوعاء أو الظرف الذي يحفظ المصحف ، وهذه الربعة وحدها تشتمل على عدد من الألفاظ والاصطلاحات التي تدون عادة في بابها المفردات الحضارية .

وينبغي أن نثير الانتباه أولاً إلى مادة الكاغد الذي كتب عليه المصحف المهدى ... الكاغد كان وما يزال عنصراً أساسياً يعبر عن رقي الأمم ... وفي هذا الصدد أذكر أن حاضرة فاس وحدها كانت في هذا العهد تتوفر على أربعمئة معمل للكاغد ...

وهنا أيضاً سنذكر بمهنة الوراق الذي يقوم بتذهيب الصفحات وتنميقها . . كما نذكر بالمواد التي صنع بها الصندوق : من أبنوس وعاج وصندل ، علاوة على سبائك الذهب وقطع اللؤلؤ والياقوت التي رصعت بها الربعة .. يضاف إلى كل هذا أغلفة الخلد التي كانت تحاط أيضاً بقطع من الحرير والديباج والقماش الرفيع ...

وكل هذا يقدم لنا طائفة من الألفاظ ذات الدلالات الحضارية الرائعة .

(1) م . المنوفي . ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين ، منشورات كلية الآداب الرباط

1979=1399

M. Canard: Les Relations entre les Mernides et les Mamlouks. A.I.E.O. (2)

T.V. Années 1939-41 p. 41 — 81

(2) فيما يتصل بالأحجار الكريمة التي اهديت لبلاط مصر والتي كانت تذكرني في كتاب (الذخائر والتحف) للقاضي ابن الزبير ، نجد أرفع أنواع الجواهر والآلي والزبارج والزمرد والياقوت بألوانها الأخضر (Jade) ، والأحمر (Ruty) ، والأزرق (Saphir) ، والأصفر (Topaz) .

(3) فيما يتصل بالثياب المهداة : سنقف على نماذج تعبر - بما تضمه من أسماء وأشكال عما وصلت إليه الصناعة في ذلك العصر ، كما تعبر عما كان يروج من ملابس على عهد بني مرين مما أثبت بعضه المستشرق الهولاندي رينهارت دوزي في كتابه (المعجم المفضل بأسماء الملابس عند العرب) (1) :

وبالرغم من ثراء هذه العطايا وثقلها فإننا نلاحظ أن رسالة السلطان أبي الحسن تعتذر عن التقصير بوجوده آنذاك بعيداً عن فاس التي كانت تحتضن على هذا العهد ثلاثة آلاف معمل لصناعة الحرير .

ونذكر من هذه الحريم أو الإحرام الذي يجمع على الأحارم ، نوعاً من أغطية الرأس التي تجعل فوق العمامة على نحو الطيأسان عند المشاركة .

كما كان من أنواء الألبسة المهداة البرنس الذي قد يسميه المغاربة (السلهام) بالسين والماء وليس بالزاي والحاء كما يذكره خطأ الذي ترجموا دوزي ، والسلهام أو البرنس يكاد يكون من خصوصيات المغرب ولذلك نقرأ عن أبي الحسن اليوسى قوله التي تعطي شبه هوية للمغاربة يتميزون بها : لبس البرنس وأكل الكسكس وحلق الرؤوس .

ونجد كذلك الحياصة ، وتجمع على حوائص التي تعني نوعاً من الحزام كان يستعمل أحياناً من الفضة أو الذهب ، ويتحدث المقرئ في كتابه (وصف مصر) عن سوق الحوائصين الذي تباع فيه الحوائص وهي التي كانت تعرف بالمنطقة في القديم .

كما نجد إلى جانب الحياصة (المضمة) التي نقل دوزي عن الدبلوماسي الدانماركي (هوست) في كتابه حول المغرب أنها المضمة من ملابس رجال البلاط بمثابة زينة .

ونجد كذلك الشاشية التي تجعل على الرأس وقد خصص لها دوزي في 'معجمه عن الملابس حيزاً واسعاً يرجع إليه والمهم فيه أنه يؤكد أنها تعبر عن درجة معينة في المجتمع الذي يلبسها ، وتضاف إلى كل هذا ألفاظ أخرى كالخلادي لنوع من القماش الذي تحدثنا عنه ،

(1) ترجمة د. أكرم فاضل - نشر وزارة الإعلام - بغداد 1971 .

والرمان كذلك للنسيج معين مستورد ،
والفضالى لنوع من الثياب ، والشقق ج شقة
لقطع من النسيج يحتوى على عدد من القالات
ولهاذرع .

(4) ومما يتدرج فى أشكال الفراش الذى
رحل إلى مصر نجد على سبيل المثال : الكلمة ج
كلل ، واللفظ يعنى غشاء شفافاً بخاط كالبيت
وتجعل فوق الفراش يتوقى به من البعوض ،
والناموس وقد يسمى « الناموسية » .

كما نجد كذلك الطنفسة أو الطنفسة (كلمة
فارسية الأصل) تجمع على طنافس ، واللفظ
يعنى نوعاً من البساط الذى تستعمله الطبقات
الميسورة وهذه غير (الحنايل) (ج حنبل)
الذى ورد ذكره ضمن الهدايا المرفوعة ...
إن الحنايل تكون عادة من ألوان مختلفة ومن
الطريف أن نجد النص فى لائحة المواد المهداة
على أن الحنايل يوجد فيها ما هو مصنوع
يزمور من أرض المغرب الأقصى ومنها ما هو
مصنوع بونشريس التى توجد فى توجين
بالمغرب الأوسط ... وكأن السلطان أبا الحسن
يعنى بهذا أنه ممكن من المغربيين ...

أ : ثم نجد كذلك ضرباً مما تغطى به عمادة
الخدان حتى لا تظهر للناس بجبسها وجبرها ،
وهذا ما يحمل اسم (الحايطى) الذى يكون
مزخرفاً مطرزاً بشتى أنواء التطريز وهو
منظر يضئ على البيوت مسحة من الرفاه ،
والأناقة ...

ونرى من المناسب أن نذكر تحت هذا
الباب الخيام الفخمة الرائعة التى تبادل المغرب
إهداءها مع مصر .

وينبغى أن نتصور هذه القصور المتنقلة
التي حملتها الوفادة المغربية إلى المشرق ، والتي
حملتها الوفادة المصرية إلى المغرب : الخباء
الكبير الذى توجد له أبواب بعدد من الجهات
الأربع : شمال وجنوب وشرق وغرب ،
والذى يحتوى على مائة حجرة التى تسميها
الوثائق المغربية (البنيقة) ... تسع تلك
الخيمة الحاشية الملكية بوزرائها وكتابها .

ثم الخيام المغربى الثانى الذى يحتوى على
ستة وثلاثين حجرة والذى كان مخصصاً ،
فيما يبدو ، للسلطان وحريره وهو يحتوى على
ست وثلاثين حجرة وقد طرز من داخل بحلق
مذهبة ، وكسى من خارج بالحرير الأبيض .

أما عن الفسطاطين اللذين صنعاً فى الشام :

الأول : كان فعلاً على تصميم قصر مربع
فخم يحتوى على قاعات يقصد الاستعراض
والاستقبال ، وعلاوة على الأبراج المنصوبة
فيها للإشراف على ما يأتى به الطريق ، فإن هناك
غرفاً للنوم طبعاً إلى جانب المطابخ ودو المياه
ينبغى أن نذكر هنا أن حوائط هذا الفسطاط
كلها من خرق الكتان المفصلة على الأشكال
والمساحات التى يريدها المستعملون حتى لها

تبقى الحجرات صغيرة أو تشرك مع بعضها عند الحاجة .

أما الفسطاط الثاني : فقد كان على شكل مستدير على السمك رحب الفناء وهو يسع أزيد من خمسمائة فارس ...

وإن من أطرف ما حملته إلينا هذه الأخبار أن يصحب الفسطاط الأول بتمثال (ماكيط) لمسجد على تصميم مشرقى بمحرا به وسواريه ومثلثته ...

والجدير بالذكر هنا أن ظاهرة لإنشاء الماكيطات أو الرسوم المحسّمة كانت شائعة على هذا العهد ...

فقد قرأنا في كتاب المسند لابن مرزوق (ص 448) أن السلطان أبا الحسن حرّو الذي رسم بذات يده مساحة الدار التي سكنها الأميرة الخنصية عزوثة التي خطبها من والدها أبي يحيى .

وقرأنا أيضاً في رحلة ابن بطوطة (ج ٤ ص 354) عن صنع ماكيط لجبل طارق كان يحتفظ به السلطان أبو عنان في قصره بفاس (1) ...

(5) وفيما يتصل بآلات الركوب والعدة نقف أيضاً على عدد من الألفاظ الدالة على

مدى ما بلغت المدنية آنذاك في البلاطين المصرى والمغربى وهكذا نجد لفظ أسلة ج سليل بمعنى الدرع الذى يحشى الفرس ... يحصن به الفرس على نحو ما يحصن الفارس بالدرع ...

ونجد إلى جانب هذا البراقع التي تخصص للخيل ، وفي هذا الصدد نجد أن البرقع يختلف من فرس إلى فرس شكلا وقيمة فهو يصل أحيانا إلى أن يكون كله من ذهب وأحيانا أخرى تتنوع مادته ...

ونجد مع الحيوانات المهداة ... أربعاً وثلاثين صقراً أو بازاً .. وينبغي أن نقف قليلا مع هذا النوع من الهدايا ... لعل بعضنا لا يعرف أن العصور الوسطى اصطلمت على أن إهداء الصقر من التعابير الدالة على أن العلاقات بين أمة وأخرى بلغت غايتها في التواصل والتكامل ... فالصقر الحر إذن سفير سلام ومحبة ... وليس هذا فقط ولكن إهداء الصقر يعبر في جنة أخرى عن مدى ما وصلت إليه ذقة ورقة ورهافة حضارة الجهة التي تهديه ... فإن الصقر لا يهدى وحده كطير عار عاطل ... ولكن الصقر تصحبه جهازات وأدوات وأثاثات ... نجد في صدرها البراقع التي عبرت عنها لائحة

(1) د. التازى . التاريخ الدبلوماسى للمغرب ج 7 ص 98 .

الهدايا بالوقايات وهي تجعل على عيني الصقر
أثناء تدريبه وهي تكون من جلد ومن فضة
وأحياناً من الذهب الخالص ؟؟ ١١

كما نجد في تجهيزات الصقر ما يسمى بالمناقل ،
أى القفاز ، الذى ينتقل عليه الصقر على
يسرى مربيه الذى يحمل فى المغرب اسم
البياز وفى المشرق اسم البازريار ١١

هذا إلى الوكر الذى يعنى الحُجْم الذى
يجلس عليه الصقر للراحة والنوم وهو غير
المنقلة السالفة الذكر...

هذا كذلك إلى الخجل الذى يربط فى
إحدى رجلي الطائر وهو يساعد البياز أو الصقار
على التذليل على مكان صقره فى حالة ضلاله
عن الطريق ! وأخيراً الخيوط التى تلازم
رجل الصقر بطريقة لا تضره ولا تضيقه
كذلك .

طبعاً كل الأدوات تكون من مواد تعبر
عن المركز الاجتماعى للمُهدى وللمُهدى له ...

ولا يمكن أن نتصور هدايا من هذا النوع
رائحة من ملك إلى ملك دون أن تكون
مصحوبة بهذه التجهيزات الدقيقة سيما ونحن
نعرف عن مدى اهتمام السلطان الناصر بأمر
الطيور الجوارح التى وجد منها نحو مائة
وعشرين صقراً بعد وفاته على ما نقرأه فى
تاريخ مصر ... تماماً على نحو اهتمامه بالخيول
وأنسائها وأسمائها وأعمارها وأثمانها ...

ولم يكن هناك غير سلطان المغرب أبى
الحسن يقدر مكانة هذه الهواية عند أخيه
الناصر سلطان مصر ... إن أبا الحسن نفسه
من الهواة الكبار للقنص بالصقر (1) ...

ومما يندرج فى هدايا العدة نذكر الدروع
وخاصة منها التروس الجلدية للمطبعة المصنوعة
من جلد حيوان اللمط (2) الذى لا يخرقه سهم
ولا نبل ، والذى ظل حديث الكهافة والفرسان
فى العصور الوسطى ...

وبالإضافة إلى السروج على اختلاف

(1) د. التازى . القنص بالصقر بين المشرق والمغرب ، المطبعة العصرية - الرباط 1980 ص 91-92 أب
القاسم الفجيجى : الفريد فى تقييد الشريد وتوطيد الربيد ، تقديم وتحقيق د. عبد الهادى التازى ، مطبعة
النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1983 .

(2) اللمط ، كما نعلم ، حيوان يشبه الثور من حيث شكله ، ولكنه أصغر حجماً وقوائمه وقرونه أكثر
دقة ، ولونه يكاد يكون أبيض غير أن أظلاله سوداء فاحمة وتصنع من جلده - كما يقول ابن الوزان تروس
شديدة المقاومة لا يخرقها شيء باستثناء قذيفة عن سلاح نارى ! وتباع هذه التروس بأسعار عالية جداً .
وقد ورد فى كتاب البلدان لابن الفقيه المحدث : « وأهل لمطة أصحاب الدرق ينقعونها فى اللبن حولاً
مجرداً فينبو عنها السيف ، وإن قطع السيف منها شيئاً نشب السيف فى الدرقه اللمطية ليس عليها قياس . »

أنواعها ما بين ثقيل وخفيف وإلى المهاميز على اختلاف أشكالها ، وزخرفها وإلى اللجم والركب واللزمات والمهندات والرايات المغربية من التي صحبت مئآت المطايا والخيول. بالإضافة إلى ذلك نجد النص على أثاث البيت بما يتطلبه المطبخ والمغسل والمفرش والماعون ما يعرف في اللغة العربية بالخرثي لهذا اللفظ الذي يعد بنفسه لفظاً من ألفاظ الحضارة :

(6) وينبغي أن نقف قليلاً عند الألقاب والوظائف التي مرت بنا ونحن نعيش مع هذا الحدث ...

ونذكر منها أمير المسلمين وملك البرين وسلطان العدوتين وحامي القبليتين وخادم الحرمين ...

كما نذكر لفظ الأرسال التي تستعملها بعض الوثائق السياسية جمعاً لكلمة رسول بمعنى السفير بين القوم ...

ونذكر لفظ « المتولى » و « ناظر الخاص » بمعنى المشرف على النفقات الخاصة ، وقد عرفنا من هؤلاء القاضي شرف الدين الذي

يحمل لقب النشو ... والمهمندار بمعنى مدير المراسيم والتشريفات ، والقهرمان بمعنى وكيل الدخل والخرج^(١) ، هذا إلى لفظ « الفرائق » وهو يعني حامل الخرائط أى ساعي البريد ، الذي يحمل في المغرب اسم « الرقاص » أخذاً من أصل اللفظ العربي لكلمة الرقص : قال حسان :

بزجاجة رقصت بما في قعرها

رقص القلوص براكب مستعجل

(7) ولابد من التنصيص هنا على تلك المبالغ الهامة من الدنانير التي خلتها الوفادة المغربية إلى الديار المشرقية ... والسؤال عن طريقة صرفها في تلك الجهات ؟

وهنا نذكر أن دنانير بني مرين كانت نسخة طبق الأصل من الدينار المرابطي الذي طبقت شهرته الآفاق من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق ، والذي كان في عصره عملة دولية على نحو ما نسمعه اليوم عن الدولار الأمريكي وقد دخل الدينار المرابطي القاموس اللاتيني وأصبحنا نسمع عن (AL-MARAVEDI) ...

(1) الصابني ، كتاب الوزراء - ابن خلدون : 7 ، 551 دكتور عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين الماليك ورسوم مصر 1967 . مكتبة الأنجلو المصرية دكتور حسن الباشا ، الألقاب الإسلامية من التاريخ والوثائق والآثار 1978 دار النهضة المصرية .

ذلك الدينار المرابطي هو الذي احتفظ به المغرب أيام بني مرين ، وقد قرأنا في كتب التاريخ المغربي الأندلسي عن إعانة السلطان أبي يوسف يعقوب (تـ 684 = 1285) للعاهل الإسباني بمبلغ مهم من الدينار « المرابطي » ...

وهكذا فإن الدنانير سواء منها الذهبية أو الفضية كانت تحمل معها قيمتها أينما توجهت ، وقد ضربت على أساس سليم ودقيق صدر به الأمر في جميع دور السكة الموجودة آنذاك في القواعد المغربية الكبرى : فاس ، سبتة ، مراكش وسجلماسة (1) ...

(8) أما عن عدد الشخصيات المغربية التي رافقت الأميرة مريم ... فإنه يفوق العد ، وإنه ما يزال علينا أن نعرف عن المزيد ممن لم نقف لهم على ذكر إلى الآن واعتقد أن هؤلاء كثير وكثير فقد دأبت العادة في مثل هذه المناسبات أن لا يذكر جميع المرافقين لأسبابه أمنية ولأغراض يقتضيها عدم إثارة الحساسيات أو الرغبة في التستر على بعض ذوات الحجاب .

ومع ذلك فسنذكر ما وصلنا من أسماء هؤلاء مرتبة حسب ما يبلغ الأغلفة التي توصلوا بها ولو أننا نعرفه سلفاً عن الرصيد العلمي لبعض من

زحلقتهم تلك المبالغ عن رتبهم ممن استحقوا عند السلطان الناصر محمد بن قلاوون أن يقدموا على غيرهم في الخطاب الذي بعث به للسلطان أبي الحسن المريني :

وهكذا يأتي الترتيب بعد ذكر الأميرة هكذا :

(1) عريف السويدي (1000 دينار) :

نقد أبو زيان عريف بن يحيى بن عثمان السويدي أمير بني زغبة من عرب بني هلال كان قد قدم على السلطان أبي سعيد والد السلطان أبي الحسن فأحياه أعلى رتبة واتخذه جليساً وأميناً ، ولما جلس أبو الحسن على كرسي الحكم عنه حاجباً له ومن خواصه وأهل سفارته ، سافر عنه إلى المشرق في هذا الركب ثم سافر عنه لتونس عام 746 = 1345 - 46 في خطبة بنت الملك الحفصي أبي يحيى السلطان أبي الحسن نفسه ... كان وافر العقل مشاركاً في العلم والأدب والتاريخ ، توفي بمدينة سلا ودفن إلى جانب السلطان أبي الحسن بشالة عام 755 = 1354

(2) أبو محمد عبد الله بن القاسم المزوار ، المدعو (عبو) (400 دينار) .

(3) الحسن ابن عمران ، المدعو حسون (400 دينار)

(1) أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم الكومي المديوني . الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة اقتضب من الروضة الغضة في معركة أحكام الذهب والنضة .

(4) أحمد بن يوسف بن أبي محمد بن صالح
نعت في ابن مرزوق بشيخ الركب ولم يتذكر
المبلغ الذي دفع له .. فافترضت أنه كأمير
الركب ...

(5) إبراهيم التازي (300 دينار) :

أبو إسحاق إبراهيم بن أبي زيد عبد الرحمن
ابن أبي بكر بن أبي يحيى التسولي التازي ثم الفاسي
ويكنى أيضاً أبا سالم ويعرف بابن أبي يحيى ،
الفتية القاضي من صدور المغرب ، له مشاركة
في العلم وتبحر في الفقه ، وله مركز مرموق
عند الملوك ، صممهم وحضر مجالسهم واستعملوه
في السفارة عنهم للاندلس وبلاد المشرق ...
كان مليح المجالسة أنيق المحاضرة ، جميل
الصورة ، نبيه الشارة ، فاره المركب ،
قائم على تدريس التهذيب والرسالة القيروانية
وتقييده عليها ... مرض بفاس ونقل إلى داره
من تازي بلده فتوفي بها في حدود
749=1348 .

(6) عطية بن مهلهل بن يحيى (300) .

(7) سليمان بن أبي بكر العسكري (150) .

(8) أبو سعيد عثمان بن سليمان من أولاد
حمادة (150) .

(9) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن
سيد الناس (100 دينار) (1) .

(10) يوسف ابن عبلة المدعو يشو (60
دينار) .

(11) عبد الرحمن بن القاضي الملي
50 دينار) .

(12) ابن خميطة (50 ديناراً)

(13) أبو الفضل أو أبو المجد بن أبي
عبد الله محمد بن أبي مدين العثماني وسماه ابن
خلدون صاحب ديوان الخراج وكاتب الحباية
والعساكر ... ووصفه في نكير الجمال لصاحب
القلم الأعلى ... كتب العلامة للسلطان أبي
الحسن ... سفر لدى هذا السلطان الناصر
هذه المرة مرة أخرى لدى ابنه السلطان أبي
الفداء إسماعيل عام 745 كما سفر عنه لتونس
عام 745 مع عريف السويدي لخطبة الأييرة
الخصمية للسلطان أبي الحسن .. ولم يذكره
ابن مرزوق - كما أسلفنا - فلم نعرف مبلغ
الغلاف الذي تسلمه والذي يظهر أنه كان
غلافاً ثقيلاً كذلك !

وهكذا فنحن أمام زهاء مائة وخمسة عشر
لفظاً حضارياً أمكن تقصيصها في هذه المجموعة

(1) يعرف عن ابن سيد الناس أنه راح في معية الطرابلس عام 755 هـ من لدن السلطان أبي عنان .

Canard : Relations P : 61

المحدودة من الوثائق التي تتعلق بسفارة واحدة
وردت من المغرب على المشرق نذكرها مرتبة
على حسب الحروف الهجائية :

الأبنوس

الإحرام ج أحرام

الأديم

الأردب

أمير المسلمين

إصطبل

إيوان ج أووين

الباز ج بزا

برج ج أبراج

برنس ج برانس

برقع ج براقع

بنيقة ج بنائق

البشماط

البازيار - البياز

التجفاف : الدرع

الترس ج تروس

تمثال ج تماثيل

التوابل

الخلجل

جهاز ج جهازات

جوهر ج جواهر

حامى القبليتين ؟

الحايطي ج حياطي

الحباك ج حبك

الحبيبة

حبس - وقف

الخرة .

الحرير

الحنبل

الحياصة : الحزام

خادم الحرمين

الخروثي .

الخلدي ج خلادي

الخلعة ج خلع

الخيمة ،

الدرع

الدرق

الدرهم

الديباج

الدينار (المرابطي)

الراية ج رايات .

الربعة ج ربعات .

الردهة .

الركاب ج ركب ...

الرصان : نوع من القماش

الرقاص : ساعى البريد

رسول ج أرسال

زاد ج أزودة

زبرجد ج زبارج

زمرد

طنفسة ج طنافس

الضوئية

الضياع ج ضيعة .

العساج

العرض - استعرض

العلم ج أعلام

غلاف ج أغلفة

غشاء ج أغشية

الفرائق

القدود

القطار

قضيب ج قضب

قفاز

قهрман ج قهارمة

الكاغد

الكبر ج أكبار : ذروة

الكتان

الكلّة ج كلل

كساء - كسوة

الفانوس ج فانوسات

فرّق : وزع

فروش الجلد :

الفضالى : نوع من الثياب .

الفسطاط ج فساطيط .

الاجام ج لحم

اللحاف ج لحف .

الازمة ج لزومات

اللؤلؤ

المتزيدات

المتولى

الحجّم

المحورات

الحمل

المحفف .

المخدة ج مخاد

المزوار : النقيب .

ملكة البرين

الملف (الخوخ) :

المنقلة ج مناقل .

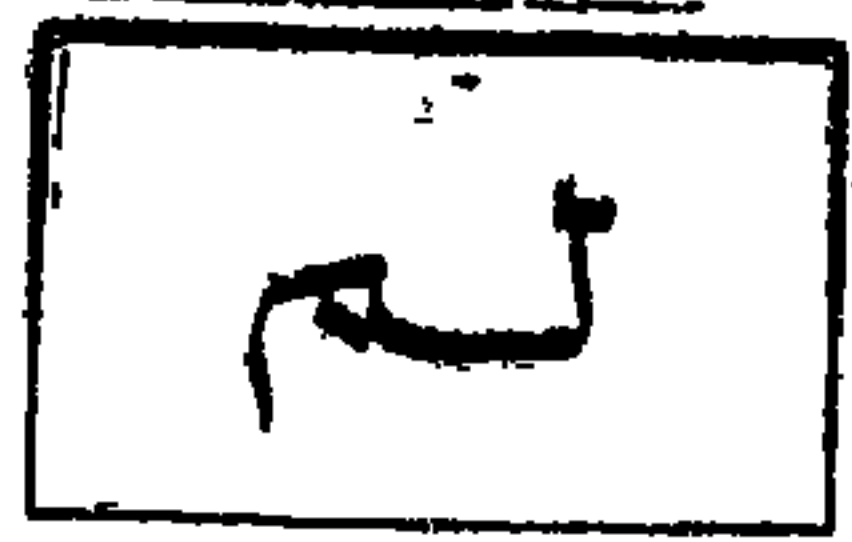
المضمة	سرج ج سروج
المشرف	سلطان العدوئين
المشقف	السقاء ج سقائين
المهماز ج مهماميز	سلهام : (ZULAM)
المهندات	سلايل ج أسلة
المهمندار	شاشية ج شواشى
الميدان	الشريط ج شرائط
ناظر الخصاص	الشقة ج شقق
الناموسية	الوراق ج وراقين
نهود الدرع ...	الوكر
الصندل	الوصيف : الخادم .
الصقور	الوقايات : البراقع .
الصوان ج أصونة	الياقوت

ولكنها تعدت ذلك إلى إثراء المعاجم الأوربية
بطائفة من المفردات التي تستعمل اليوم على
الصعيد السياسى وفى المجال العلمى كذلك .

إننى على مثل اليقين من أن تتبع مثل هذه
الوثائق الدبلوماسية من شأنه أن يعرفنا على
المزيد من الكلمات التي ابتكرتها عبقرية أسلافنا
والتي لم تقتصر فائدتها على المعجم العربى فحسب

عبد الهادى التازى
عضو المجمع المراسل من المغرب

مدخل إلى الألفاظ الإسبانية المأخوذة من العربية للدكتور محمور مكي



تنقطع الصلات أبداً

بين شبه جزيرة إيبيريا

(إسبانيا والبرتغال الآن) وبين الشعوب الأفريقية والآسيوية، فقد تعرضت هذه البلاد لهجرات كثيرة قادمة من بلاد الشرق ومن شمال أفريقيا على نحو مستمر منذ فجر التاريخ. ولعل أهم هذه الهجرات في العصور القديمة هي تلك التي مثلها التوسع الفينيقي في نحو سنة ١٠٠٠ (ق. م.)، فقد امتد هذا التوسع من سواحل بلاد الشام على طول الشمال الإفريقي حيث أقام الفينيقيون العديد من المراكز التجارية، ثم واصلوا امتدادهم إلى سواحل إسبانيا الجنوبية، فأنشأوا مدناً كان لها إزهار عظيم استمر حتى اليوم عبر الحضارات المتعاقبة. على أن التأثير اللغوي الفينيقي لا يكاد يلاحظ اليوم إلا في أسماء بعض المدن التي قاموا بإنشائها، ونذكر من بينها قادس Cádiz (وكان اسمها القديم

Gadir - من الأصل السامي ^١ق د ر لأن معناها المدينة القادرة أو القوية المحصنة) ومدينة مالقة Málaga (وكان اسمها Malaca - من الأصل السامي م ل ك لأنها كانت تعني «المدينة الملكية»، ولهذا فقد ترجم الرومان هذا الاسم ترجمة حرفية حينما أطلقوا عليها لفظ Reggio المشتق من Rex أي الملك).

واستمرت حضارة الفينيقيين على أرض شبه الجزيرة أكثر من أربعة قرون، فلما ضعف أمرهم وفدت على شبه الجزيرة موجة قادمة من بلاد الشرق أيضاً، ولكنها أتت من بلاد الإغريق. ثم عادت تطرق أبواب البلاد هجرة جديدة ذات أصول سامية وإن كان منطلقها من شمال أفريقيا، ونعني بها القرطاجيين القادمين من إفريقية (تونس)، والقرطاجيون هم من سلالة الفينيقيين، وقد اعتبروا أنفسهم

* أتى في الجلسة الثانية عشرة يوم الأحد ٤ من شعبان سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ١٢ من مارس (آذار)

ورثة هؤلاء منذ سقطت حاضرة دولتهم صور في أيدي الأشروريين ، واستطاعوا الاستيلاء على جزيرة سردينيا ثم على جزر البليار منذ أواخر القرن السادس (ق . م .) ومنها نفذوا إلى أرض شبه الجزيرة ومدوا سلطانهم على شرقي البلاد وجنوبها ، وظلوا يحكمون هذه المناطق حتى نهاية ما يعرف باسم « الحروب البونية » في منتصف القرن الثاني الميلادي ، وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل الوجود السامى الإفريقي في شبه الجزيرة . على أن القرطاجيين لم يخلفوا في لغة البلاد آثاراً واضحة ، إذ أن الرومان الذين سيطروا على البلاد بعد ذلك محوا آثارهم محوا ، واستطاعوا أن ينشروا فيها لغتهم اللاتينية منذ احتلالهم لها حتى انحلال امبراطوريتهم في أوائل القرن الخامس الميلادي . أما القوطيون الذين كانوا ينحدرون من أصول جرمانية وسيطروا على شبه الجزيرة حتى أوائل القرن الثامن فلأنهم بدورهم لم يتركوا في لغة رعاياهم إلا آثاراً قليلة جداً .

وأخيراً دخل العرب أرض شبه الجزيرة رافعين راية الإسلام في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) . واستمر وجودهم في البلاد ممثلاً في كيان سياسي حتى سنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) . ونلاحظ أن هذا « الوجود » لم ينقطع باستيلاء المملوكين الكاثوليكين على دولة بني الأحمر في غرناطة آخر معاقل الإسلام في البلاد ، بل ظل الشعب الأندلسي المسلم الذي خضع للسلطة المسيحية

يعيش في كل أنحاء شبه الجزيرة متخذاً في البداية اسم « المدجنين Mudéjares » ثم اسم « الموريسكيين Moriscos » إلى أن صدرت مراسيم طرد هؤلاء المسلمين بين سنتي ١٦٠٩ و ١٦١٤ . ومع هذه المراسيم قامت محاكم التحقيق La Inquisicion التي أنشأتها السلطات الكذسية بأبشع أعمالها الهادفة إلى محو كل أثر للثقافة الإسلامية واللغة العربية . ففضلاً عن التعذيب والاضطهاد لكل من يرتاب في كونه محتفظاً ببعيدته كانت هناك قوانين تحرم استعمال العربية وتنص على إحراق ما ألف بها من كتب . ومع ذلك فقد كانت اللغة العربية قد نفذت إلى صميم كيان اللغة الإسبانية على طول القرون السابقة ، وأصبح كثير من الكلمات والتعابير العربية جزءاً من تراث الإسبانية حتى اليوم .

ويختلف العلماء الذين بحثوا هذا الموضوع في نسبة الكلمات العربية إلى مجموع مداخل المعجم الإسباني ، فمنهم المقلل والمكثر ، إذ أن هناك من يزعم أن هذه النسبة لا تتجاوز الـ ٥ ٪ وهناك من يرتفع بها إلى نحو ٢٠ ٪ وترجع أسباب هذا الاختلاف إلى عدة عوامل :

١ - هناك من يقتصر على اللفظ الإسباني المأخوذ من أصل عربي بغير أن يلحق به مشتقاته المختلفة وهناك من يضيف هذه المشتقات إلى الأصل .

٢ - هناك من يدرج جميع الألفاظ حتى ما قل استعماله أو سقط ، هناك من يقتصر على المستعمل الشائع .

٣ - هناك ألفاظ كثيرة مختلفة في أصولها الاشتقاقية ، إذ أن الرأي الأخير لم يستقر حول تلك الأصول .

٤ - من اللغويين من يستبعد الألفاظ التي يعد أصولها إغريقية أو فارسية أو تركية أو بربرية ، ومنهم من يرى أن هذه الألفاظ إنما دخلت عن طريق العربية ، فينبغي أن تدرج في الألفاظ العربية الأصول .

والذي يعترف به الجميع على كل حال هو أن اللغة العربية هي التي تلى اللاتينية في إمدادها اللغة الإسبانية بثروتها من الألفاظ ، ذلك أن الذي أخذته هذه اللغة من اللغات القديمة المختلفة أو اللغات الحديثة لا يقاس في مجموعه إلى ما أخذته من العربية . ويعد ذلك أمراً طبيعياً إذا ذكرنا أن العرب الذين دخلوا إسبانيا لم يلبثوا أن شيدوا بنياً حضارياً استمدوا أصوله من مصادر شرقية إسلامية عربية وكان شيئاً جديداً يبهز أنظار الناس في القارة الأوروبية كلها . وكان من أول من تنبه لهذه الحقيقة في أوروبا القس اليسوعي الإسباني خوان أندريس في كتابه عن أصول الآداب الأوربية (المنشور أولاً بالإيطالية بين سنتي ١٧٨٢ و ١٧٩٨ ثم بالإسبانية بين ١٧٨٤ و ١٨٠٦) حينما قال إن شعوب أوروبا المسيحية رأت في الأندلس شعباً ذا حضارة أرق بكثير مما لديهم ، حيث كان رجال الكنيسة في بلاد أوروبا - وهم قمة ما لديهم من «ثقافة» - لا يكدون يعرفون أكثر من مبادئ التزاعة والكتابة والحساب على حين كان العالم العربي - بما فيه

الأندلس - يحنل بالعلماء من كل نوع . (انظر خطاب المستشرق الإسباني أنخل جونزالث بالنشيا Angel González Palencia في حنل استقباله في المجمع الملكي التاريخي ، مدريد ١٩٣١ ص ٨ - ٩) . وكان من الطبيعي أن يصبح أولئك الأوربيون تلاميذ لمسلمي إسبانيا ، وما كان ذلك ليتم إلا إذا تعلموا العربية واستخدموا ألفاظها التي أصبحت ضرورة من ضرورات الحضارة . وليس من الغريب أن يصبح مسيحيو إسبانيا هم أسبق الأوربيين إلى ذلك بحكم المعيشة الطويلة للمسلمين .

ولعل من أهم ما تتمثل فيه هذه الحقيقة ذلك اللقب الذي حمله أولئك الإسبان المسيحيون وهو « المستعربون » (Mozàrabes) ، إذ أنه يصور اصطلاح هذه الطائفة لثقافة العرب ولغتهم وكل مظاهر حضارتهم . ولسنا بحاجة إلى إيراد تلك العبارة المشهورة التي قالها ألبارو القرطبي Alvaro de Córdoba أحد كبار رجال الدين المسيحي والتي يشكو فيها من أن نصارى إسبانيا قد هجروا اللاتينية وأصبحوا مغرمين بالعربية حتى إن أحدهم لم يعد قادراً على كتابة خطاب لأخيه باللاتينية على حين أنه قد يجيد الكتابة بالعربية نثراً وشعراً . وربما كان خير دليل يؤكد هذه الحقيقة هو تلك المجموعة الكبيرة من الوثائق الطليطلية التي نشرها أنخل جونزالث بالنشيا في سنة ١٩٣٠ ، وتبلغ ١١٧٥ وثيقة كتبت كلها بالعربية

وكانت تتناول موضوعات مختلفة متعلقة بالمعاملات التجارية بين المستعربين المسيحيين بعضهم وبعض أو بينهم وبين مساكينهم من المسلمين واليهود. وتواريخ هذه الوثائق تتراوح بين سنتي ١٠٨٣ و ١٣٩١ م. ومما يلفت النظر أن الملك المسيحي ألفونسو السادس Alfonso VI قد انتزع طليطلة من أيدي المسلمين في سنة ٤٧٨ هـ. (١٠٨٥ م.) وبهذا فقد المسلمون سلطانهم على المدينة ، ومع ذلك فقد استمر سكانها المسيحيون يستخدمون العربية في معاملاتهم على مدى أكثر من ثلاثة قرون . وهذا وحده دليل على قوة تأثير الحضارة العربية في هذا الشعب الذي لم يرغمه أحد على استخدام العربية ، وإنما كانت حاجته إلى هذه اللغة لشعوره بأنها أكثر وفاء بمطالبه من اللاتينية هي التي حملته على ذلك .

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ممن استولت عليهم خنزوانة التعصب القومي والديني أن يشكك في هذه الحقيقة . وكان من أبرز هؤلاء فرانسيسكو خافيير سيمونيت الذي تعرض لتلك القضية في كتابه عن « الألفاظ الإيبيرية والرومانية المستعملة بين المستعربين » (مدريد ١٨٨٨) وذلك في قوله : إنه إذا كان صحيحاً أن هؤلاء المستعربين قد أخذوا عن العربية « بعض الألفاظ » فإن المسلمين الأندلسيين قد أخذوا أيضاً كثيراً من الألفاظ اللاتينية عن جيرانهم ومعايشهم

من المسيحيين ، واستشهد على ذلك بما اشتملت عليه الكتب الأندلسية من إشارات إلى معرفة مسلمي الأندلس لللاتينية أو اللاتينية الدارجة (لطينية أو عجمية الأندلس) (انظر مقدمة الكتاب ص ٧٩ وما بعدها) . وهذه حقيقة أكدتها المصادر الأندلسية حقاً ، ويصورها استخدام كثير من تلك الألفاظ في ديوان الزجال ابن قزمان القرطبي وفي الخرجات العجمية للموشحات الأندلسية . غير أن هذا لا ينبغي أن يعد مطعناً على الأندلسيين الذين كانوا — شأن المسلمين في سائر الأمصار — لا يحتقرون أي مصدر من مصادر المعرفة ، ولهذا فإن ثقافتهم استوعبت كل الثقافات السابقة ، كما أن لغتهم عربت محصولاً وافراً من ألفاظ اللغات التي احتكوا بها . ذلك أن العربية كانت من المرونة بحيث لم تبرح أبداً آخذة معطية ، وهذه سمة من سمات اللغات الحية التي تستجيب لحاجات كل مجتمع متطور . على أن الذي أخذته العربية من اللاتينية لا يقاس بما أخذته الإسبانية منها لافي العدد ولا في أهمية الدلالة الحضارية :

عرض تاريخي للدراسات اللغوية التي تناولت التأثير العربي في الأسبانية :

ربما كان أول ما سجله المستعربون المسيحيون من مظاهر حاجتهم إلى اللغة العربية هو ظهور أول معجم لاتيني عربي كتبه

ولدينا من الآثار الإسبانية المتعلقة
بموضوع الألفاظ العربية التي اقترضها اللغة
الإسبانية من العربية عدة كتب ذات أهمية
بالغة .

أولها كتاب برناردو ألدريتي حول أصل
اللغة الإسبانية :

Bernardo Aldrete : Del origen de la
lengua castellana o romance que hoy
se habla en España, 1606.

وثانيها كتاب سباستيان دي كوبراروبياس
« كنز اللغة القشتالية » :

Sebastián de Covarrubias y Orozco : Te-
soro de la lengua castellana, Madrid,
1611.

وثالثها كتاب برناردينو جونتالث . وكان
راهباً درس العربية في بلاد الشرق وأقام
زمناً في دمشق ، وكتابه هذا معجم عربي
إسباني انتهى من تأليفه في سنة ١٧٠٩ :

Bernardino González : Diccionario
árabe-español

على أن هذا الكتاب لا يزال مخطوطاً بعد
لم يجد سبيله إلى النشر ، ويوجد أصله اليوم في
خزانة دير الإسكوريال .

وفي القرن الثامن عشر قام راهب
الفرنسيسكاني فرانسيسكو كانيس بنشر معجمه
الإسباني اللاتيني العربي (مدريد ١٧٨٧) ،
وكان هذا الراهب قد قضى — مثل سابقه —

مؤلف مجهول ينتمي إلى تلك الطائفة خلال
القرن العاشر الميلادي ، وهو المعجم الذي
نشره فريدريك زايبولد في برلين سنة ١٩٠٠
عن مخطوطة في (ليندن) :

Glossarium latino-arabicum, edidit Ch. F.
S. ybold, Berolini, 1900.

وربما كان هذا هو أول معجم مشترك بين
العربية وإحدى اللغات الأجنبية .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي وضع
المستشرق القبطاني الراهب راييموندو مرتين
كتابه « المعجم العربي » الذي اضطلع بنشره
المستشرق الإيطالي إسكيبا باريللي في فلورنسا
سنة ١٨٧١ :

Raimundo Martin: Vocabulata in arabico,
ed. C. Schiaparelli, Firenze, 1871

ثم تلاه في القرن الخامس عشر الراهب
بطرس التلعي (أو بدرو دي ألكالا)
Pedro de Alcalá الذي ألف في سنة ١٥٠٥
معجمه المعروف باسم Vocabulista arauigo
وهو معجم على جانب كبير من الأهمية ، إذ
أنه يعد وثيقة تسجل لنا اللهجة العربية الغرناطية
في آخر عصور الإسلام في الأندلس ، فصلا
عن كونه يمثل اللغة القشتالية القديمة وما أخذته
عن العربية . وقد أعيد نشر هذا الكتاب في
جوتنجن سنة ١٨٨٣ بعناية المستشرق الإنجليزي
وليم رايت :

William Wright : Petri Hispani di lingua
arabica, libri duo P. de Lagardi, Gottingae,
1883.

سنة عشر عاماً في بلاد الشام وأتقن العربية في دمشق :

Francisco Canes : Diccionario español-latino-arábico, Madrid, 1787.

وبعد ذلك بسنوات نلتقي بشخصية خوسيه أنتونيو بانكيري الذي كان من أجل أعماله نشره وترجمته الإسبانية لكتاب « الفلاحة » لأبي زكريا يحيى بن العوام الإشبيلي (وهو مؤلف عاش في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي) .

José Antonio Banqueri: Libro de Agricultura de Ibn al-Awwár, 2 vols., Madrid, 1802.

وهو كتاب له أهمية كبيرة من وجهة النظر اللغوية ، إذ أنه يحتوي على عدد كبير من المصطلحات والألفاظ المتعلقة بالفلاحة مما انتقل من العربية إلى الإسبانية . ولبانكيري كذلك دراسة لاتزال مخطوطة في المجمع التاريخي الملكي بمدريد حول تصحيح كثير من الأخطاء الشائعة بين الباحثين في اشتقاق أسماء الأعلام الجغرافية الإسبانية ذات الأصول العربية :

Discurso sobre la arbitrariedad de la mayor parte de etimologías de nombres árabigos de pueblos, vol. X.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر يتزايد الاهتمام بهذا الموضوع ، فنجد مجموعة طيبة من الدراسات التي يتمثل فيها التقدم العلمي الكبير الذي أحرزته الدراسات اللغوية

المقارنة . نذكر من أهمها كتاب العالم الهولندي إنجلمان حول « معجم الألفاظ الإسبانية والبرتغالية المأخوذة عن العربية » (ليدن ١٨٦١) . ومن هذا الكتاب صدرت طبعة ثانية مزيّدة ومنقحة في سنة ١٨٦٩ باشتراك العالم الهولندي أيضاً راينهارت دوزي :

A. M. Reinhardt Dozy et W. H. Engelmann : Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe, Leyde, 1869, seconde édition.

ولعل هذا الكتاب هو خير دراسة ظهرت حتى الآن للموضوع ، وإن كانت تحتاج إلى كثير من المراجعة والتهديب والإضافة والحذف وقد استفاد منها وأضاف إليها دوزي نفسه في كتابه القيم « تكملة المعجم العربية » الذي صدرت طبعته الثانية سنة ١٩٢٧ في مجلدين :

R. Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes, 2 vols., Leyde, 1881; seconde éd. 1927.

وقد قام بترجمة المجلد الأول من هذه « التكملة » الباحث العراقي المغفور له الدكتور محمد سليم النعيمي ، وصدرت ترجمته في خمسة مجلدات في بغداد ما بين سنتي ١٩٧٨ و ١٩٨٢ وبعد ذلك بسنوات قليلة أصدر المستشرق الإسباني ليوبولدو إيجيلاث يانجواس كتابه « معجم اشتقاقى للألفاظ الإسبانية ذات الأصول الشرقية » :

Leopoldo Eguilaz y Yanguas : Glosario etimológico de las palabras españolas de origen oriental, Madrid, 1886.

الإسبانية فإنه لم يسلم من شوائب ذلك التعصب
الذى ميز عمل سلفيه : يانجواس وسيمونيت :

Ramón Menéndez Pidal : Orígenes del
español, 3a ed., Madrid, 1950.

وفى سنة ١٩٣٢ أصدر المستشرق السويسرى
أرنالد شتايجر دراسة عظيمة القيمة حول
« صوتيات اللغة الأندلسية (الإسبانية العربية)
ومظاهر التأثير العربى فى اللغة الإيبيرية
الرومانية وفى اللغة الصقلية » :

Arnald Steiger : Contribución a la fonética
del hispano árabe y de los arabismos en
el ibero-románico y el siciliano, Ma-
drid, 1932.

وهى دراسة صوتية فى المقام الأول قام
بها عالم محقق واسع المعرفة مستقيم المنهج .

وقد تعددت بعد ذلك الدراسات الجزئية
التي قام بها جيل جديد من علماء اللغة الأوربيين
والإسبان بصفة خاصة حول ظواهر لغوية
مختلفة مما يدخل فى ميدان التأثير العربى فى
اللغة الإسبانية ، والملاحظ هو أن هؤلاء العلماء
قد بعدوا كثيراً عن نزعات التعصب
التي سادت دراسات الباحثين السابقة خلال
القرن التاسع عشر وشرط من القرن العشرين .
وتمثل هذه الدراسات الحديثة التي تمت خلال
السنوات الثلاثين الماضية تقدماً هائلاً فى هذا
الميدان ، لاسيما بعد أن نشرت نصوص
ووثائق أندلسية كثيرة لم تكن فى متناول
الباحثين السابقين . ويكفى أن نشير هنا إلى

وفى هذا الكتاب يحاول المؤلف من منطلق
قومى ودينى شديد التعصب أن يفند آراء
دوزى وإيجلمان حول ما أكده من تفوق
حضارة العرب الأندلسيين على حضارة إسبانيا
المسيحية ويشاطره فى هذا رأى زميله وصديقه
فرانسيسكو خافيير سيمونيت الذى ألف
كتابين لهما قيمة كبيرة لما حشد فيهما من
معلومات ووثائق كثيرة جديدة ، وإن كانت
آراؤه منبعثة من عصبية ذميمة كارهة أشد
الكراهة للعرب والمسلمين . أما هذان الكتابان
فهما : « معجم الألفاظ الإيبيرية واللاتينية
المستخدمة بين المستعربين » .

Francisco Javier Simonet : Glosario de
voces ibéricas y latinas usadas entre
los mozárabes, Madrid, 1888.

ثم كتابه عن تاريخ المستعربين فى إسبانيا :

F.J. Simonet : Historia de los mozárabes
de España , Madrid, 1897 - 1903.

ويسبب تلك العصبية جانب الصواب كثيراً
من آراء هذين العالمين الإسبانين .

ونشير بعد ذلك إلى دراسة العالم الإسباني
رامون منندث بيدال حول « أصول اللغة
الإسبانية » الذى ظهرت طبعته الأولى سنة
١٩٠٦ ثم توالى طبعاته مع مراجعات وزيادات
حتى الطبعة الثالثة الصادرة سنة ١٩٥٠ ،
وهو وإن كان يسلم بتأثير العربية الكبير فى

عالم إسباني معاصر يعد الآن - وهو لم يجاوز بعد طور الشباب - أعظم من يعملون في الميدان اللغوي الإسباني العربي ، ونعني به فيديريكو كورينتي كوردوبا الذي قدم للمكتبة اللغوية عدداً هائلاً من الدراسات المختلفة كان من آخرها كتابه المؤلف بالإنجليزية « دراسة تخطيطية نحوية لمجموعة اللهجات الإسبانية العربية » :

Federico Corrientc Córdoba : A Grammatical Sketch of the Spanish Arabic Dialect Bundle, Madrid, 1977.

وقد استطاع هذا المؤلف في عديد من أبحاثه ومقالاته أن يستدرك أشياء كثيرة على المعجم الاشتقاقى الذى أصدره المجمع الملكى للغة الإسبانية فيما يتعلق بالأصول العربية لعديد من الألفاظ الإسبانية .

ملاحظات حول الألفاظ الإسبانية

ذات الأصول العربية

١ - فى المجالات الدلالية :

لا يمكن هنا مجال دلالى من التأثير الواضح للغة العربية . وسنشير هنا فى إيجاز إلى بعض هذه المجالات التى يبرز فيها هذا التأثير :

فى مجال الحروب والمعارك وأدوات الحروب :

الصائفة aceifa (الحملة الصيفية التى كان المسلمون يجردونها على الإمارات المسيحية المجاورة) ، الغارة algara ؛ الدليل adalid (الذى يرافق الحملات ليكون دليلاً للجيش

على آمن الدروب والمسالك) ؛ الطلائع atalaya (مقدمة الجيش) ؛ ساقة zaga (مؤخرة الجيش) ؛ الخنجر alfanje ؛ الدرة adarga ؛ الجعبة aljaba (كنانة السهام) ؛ المغفر almôfar (الخوذة التى تحمى رأس المحارب) ؛ القصبة alcazaba (أكثر أجزاء المدينة أو القلعة حصانة) ؛ القلعة alcala ؛ الدرب adarve (من معانيه الشعب فى الجبل ، والساتر الذى يحتمى به رماة السهام من أعلى القلعة) ؛ الرباط rebato (المواقع المحصنة التى يقيم فيها المجاهدون للعبادة وقتال الأعداء فى الوقت نفسه) ؛ الطنبور atambor (الطبل الكبير الذى يستخدمه الجيش فى زحفه) ؛ الطبل atabal ؛ النفير anafil ؛ البوق albugue ؛ الفارس alférez ؛ زناى jincte (الفارس المحيد لفنون الفروسية تشبيهاً له بفارس زناى : القبيلة البربرية المشهورة) ؛ الشكات acicate (المهماز الذى يؤخذ به الفرس لحمله على الإسراع) ؛ الفرس alfaraz ؛ الزاملة acémila (البغل أو الدابة التى تحمل أثقال المحاربين أو أزوادهم) ؛ جهاز jaéz (ما يوضع على أعناق الخيل وظهرها من حلية وزينة) ؛ البرذعة albarda ؛ شكيمة jaquima (الحديد التى تجعل فى حنك الفرس) ؛ الثغر ataharre (السير الذى فى مؤخر السرج ويشد تحت ذنب الدابة) .

في مجال الفلاحة والزراعة :

كان مسلمو الأندلس على جانب عظيم من المهارة والخبرة بكل ما يتصل بالنشاط الزراعي من رى وفلاحة واستنبات لأنواع مولدة من الغروس والثمار ، وتشهد بذلك الألفاظ المتعلقة بالمياه والرى مما دخل إلى الإسبانية مثل : الساقية acequia ؛ الحب algibe (البئر) ؛ البركة alberca ، البحيرة albufeira ؛ السد azud ؛ ناعورة noria ؛ القادوس arcaduz ؛ والألفاظ الخاصة بالمجتمعات الزراعية والريف بمثل القرية alqueria ؛ الضيعة aldea ؛ المنية almunia (البستان أو المزرعة) ؛ المرج almarcha ؛ البقاع vega (المواضع ذات الماء والشجر) ؛ والألفاظ المتعلقة بالخضراوات والبقول والثمار مثل : اللوبيا alubia ؛ الخرشوف alcachofa ، السلق acelga ؛ الحلبة alholva ؛ الزعفران azafrán ؛ الإسفنجارية zanahoria (الجزر) ؛ باذنجان brenjena ؛ الخروب algarroba ؛ الحلججان ajonjolí (السمسم) ؛ الزيتون acettuna ؛ الزبيب acubibe ؛ البرقوق albaricoque الدراق durazno (الخوخ) ، التمرسك albarchigo (نوع من الخوخ) ؛ zafari سفرى (نوع من الرمان ينسب إلى مدخله في الأندلس : سفر بن عبيد الكلابي) ؛ الفقوس alficor ؛ الفستق alfofigo ؛ الحنّاء alhena ؛ الترمس altramuz ؛

الرز arroz ؛ زنجبيل gengibre ؛ القطن algodón ؛ والألفاظ الخاصة بالأزهار مثل الريحان arriayán ؛ الزهر azahar (وتطلق خاصة على أزهار البرتقال) الدفلى adelfa ؛ السوسن azucena « ؛ الخيري alheli ؛ ياسمين jazmin ؛ الخزامى alhucama ، الحبق albahaca وما يتعلق بالشجر وأنواع النبات مثل الأرز alerce ؛ والزنبج acebuche (وهو الزيتون البري) ؛ الكافور alcáfor

في مجال العمل والصناعة والتجارة :

طريجة tarca ؛ طراز tiraz ؛ الترصيع ataracca ؛ التوشية ataujia ؛ التوريق ataurique ؛ دار الصناعة atarazana ، الخياط alfayate رقم rreamar ؛ الفخار alfarero ؛ البناء albañil ؛ الجوهر aljofar الأقراط arracadas ؛ عظم الفيل marfil (العاج) ؛ بركان barragán (نوع من الصوف لا ينفذ منه الماء) ؛ سوق zoco ؛ الأسعار aranceles ؛ تعريفة tarifa ؛ الديوان aduana (مصلحة الجمارك) ؛ المخزن almacén (المتجر) ؛ الكراء alquiler ؛ المناداة almendra (يقصد به البيع بالمراد العلني) ؛ ركوبة recua (قافلة الدواب التي تحمل عليها أثقال التجار وبضائعهم) ؛ الحمال alhamel .

في مجال سك النقود والأوزان والمقاييس :

سكة ceca (دار ضرب النقود) ؛
مرابطى maravedi (عملة كانت من ضرب
أمراء المرابطين) ؛ quintal قنطار ؛
الربع arroba ؛ الثمن azumbre ؛
الرطل arrelde ؛ مثقال mital ؛
الدرهم adarme ؛ فرسخ parasanga ؛
فنيق fanega ؛ المد almud ؛ قنيز cahiz
الخروج alforja .

في مجال النظم والوظائف والحرف :

القاضى alcalde (ويطلق الآن على عمدة ،
المدينة أو المحافظ) ؛ القائد alcaide ؛
المقدم almocadén ؛ المحتسب almocén ؛
المشرف almojarife ؛ الوزير alguacil ؛
صاحب المدينة zabalmedince ، صاحب
الشرطة zabaxorta ، صاحب السوق
zabaceca ، صاحب السكة zabazque
الأمين alamin ، العريف alarife ،
الفخار alfarero ، bonil الحمال alhamel ،
الخياط alfayate ، الحجام alfacmc ،
البيطار albeitar

في العمارة والبناء :

القصر alcazar ، القصبة alcazaba ،
الزققة azoqueca ، الدرب adarvc ،
الرباط rebato ، الرابطة rábita ، rábida ،
المحصن almazán ، (البرج) البرانى

albarrena (torre) ، البناء albañil
الزليج azuleja ، اسطوان zaguan ، القبة
alcoba ، مقربصات mocarabes ،
التوريق 'ataurique' ، الطوب adobe
الشماس ajimez (أى المشربية) ، الفخار alfar

في الأثاث والأدوات :

الشوار ajuar ، الخمرة alfombra (أى
البساط) ، الحخاة almohada ، اللحاف alifafe
السطل acetre ، البرادة albarrada ،
الغرافة algarrafa ، الكوز alcuza
المهراس almirez ، السفط azafate
الطبق atabaque

في الطعام والشراب :

الرز arroz ، السكر azúcar ، الرب
atrope ، المخبنة almojabana ، الحشو
alfajor (نوع من الحلوى) ،
البورانية alboronia ، السكباج escabeche
الفانيل alfeñique ، البندقة albondiga

في الموسيقى والغناء :

الدف adufe ، البوق albogur ، الطنبور
atambor ، الطبل atabal ، النفير
añafil ، العود laúd ، الشبابة xabeba
زمرة zambra ، رباب rabcl ، الله
(صيحة الإعجاب) olé

في الألوان :

اللازورد azul ، النيل añil ، القرمزي
carmesi ، المغرة almagre ،
الخلوق aloque ، الزاج (الزرققة الداكنة)
aceche ، الزيتوني aceituni ،

في الملابس :

الجبة aljuba ، السراويل zaragüells
السباط zapato ، الكساء alquiccl ،
البرنس albornoz ، البلغة alpargata
كوفية cofia

في العطور والأفادية :

المسك almizcle ، الغالية algalia ،
الكافور alcanfor ، المصطكي almáciga ،

في الطيور والحيوانات والحشرات :

الذيب adive ، رأس (الماشية) res
ثور toro ، الزاملة acémila ، (خنزير)
جبلي jabali ، صقر sacre ، القطامي
alcotán ، لبلي nebli (نوع من
الصقور ينسب إلى منطقة لبلة في
الجنوب الغربي للاندلس) الغطاس alcatraz
الكروان alcaraván ، العقرب alcacrán
زرزور zorzal

في ألعاب التسلية والصيد :

الشطرنج ajedrez ، الزهر azar ،
شبكة jabega ، المزربة almadraba ، مسخرة
máscara ، مهرج mamarracho ، moharrece

ملاحظات حول الألفاظ الإسبانية ذات الأصل العربي

١ - من الناحية الصوتية :

الحروف الحلقية : وأولها العين والحاء
وكانتا تمثلان صعوبة كبيرة بالنسبة للمتكلمين
باللغة الإسبانية كما هو الشأن لدى سائر
الأوربيين . ومن النادر أن ينطقهما أجنبي
عن اللغة بصورة صحيحة كما يقرر الدكتور
بشر في كتابه « علم الأصوات » . وقد سجل
العالم الأندلسي الكبير ابن حزم القرطبي ذلك
من قبل في كتابه « الإحكام في أصول الأحكام »
(٣١ / ١ - ٣٢) إذ قال : « وإذا تعرب
الخليقي أبدل من العين والحاء هاء فيقول ميمداً
أراد أن يقول محمداً » . ويكرر بدرو القلعي
هذه الملاحظة إذ يقول إن العين صوت
يصعب نطقه جداً على غير العرب ، هذا
وإن كان يشير إلى قربها من الغين . وهذا
هو ما يفسر اختفاء العين من الغالبية العظمى
من الألفاظ الإسبانية المأخوذة من ألفاظ
عربية توجد فيها العين .

فن الألفاظ التي تبدأ بالعين :

عرق السوس orozu7

العرض alarde

العقرب alcacrán

العود laúd

ومن التي توجد العين في وسطها :

الزعفران azafràn

القليلة alcolca

مستعرب mozarabe

ومن التي توجد العين في آخرها :

الترصيع ataracea ؛ الرُّبْع

arroba ؛ القناع (خمار المرأة) alquinal

مشمع mojama (قد يد من لحم الأتون
أى التونة)

أما الحاء فانها تحولت إلى هاء (تصديقا
لما ذكره ابن حزم) ولكن الهاء في تطور
صوتي للغة الإسبانية أصبحت الآن تكتب
ولا تنطق .

ونرى أمثلة لها فيما يلي :

في بداية الكلمة : الحركة alharaca ،
حرة horra (المرأة الشريفة أو غير
الأمّة) الحاجة alhaja ، حتى hasta ،
الحمة alhama ، الحنا alheña

وأحيانا تحولت إلى كاف كما نرى في
حراقة carraca (سفينة كبيرة للنقل وقد
تستخدم في الحرب) .

في الوسط : كحل alcohol ، طاحونة
atahona ، الملحفة almalafa سَطِيحَة
azotea ، اللحاف alifafa الريحان arrayàn

في النهاية : قلعة رباح Calatrava

الخاء :

كثيرون ممن يستمعون إلى اللغة الإسبانية
اليوم فيجدون حرف الخاء يتردد فيها
بكثرة وهو حرف يصعب نطقه على كثير
من الأوروبيين (إذ لا يكاد يوجد إلا في
الألمانية واليونانية والروسية) يعتقدون أنه
دخل إلى هذه اللغة بفضل العربية ، غير أن
ذلك عار تماما عن الصحة . فقد كان من
المفارقات الغريبة أن اللغة القشتالية وما كان
يضطرب حولها في شبه الجزيرة من اللهجات
الإسبانية مع اقتراضها لكثير من الألفاظ
العربية لم تستطع أبداً أن تستوعب حرف
الخاء وتنطق به طوال معاشتها للعربية
على مدى قرون طوال . فظلت اللغة
القشتالية أو الإسبانية ولهجاتها المختلفة مستعصية
على الخاء حتى القرن السادس عشر حينما
ولى عرش إسبانيا الأمبراطور الألماني الأصل
كارلوس الخامس (شارلكان) بالنسبة
لألمانيا وهو الأول بالنسبة لإسبانيا
(وقد امتد حكمه بين سنتي ١٥١٧ و ١٥٥٨)
وفي ظله اتسعت الأمبراطورية الإسبانية
حتى أصبحت أقوى دول أوروبا وأوسعها
رقعة ، وفي عهده انثال عدد كبير من الألمان
إلى إسبانيا وكان هو نفسه لا يحسن الكلام
بالإسبانية بل كان يرتضخ فيها لكثرة جرمانية .
ومن هنا تسرب إلى لغة إسبانيا صوت الخاء
فأصبح ينطق به حرف الـ z حيثما ورد وحرف الـ g
أيضا إذا تلاها أحد الحرفين اللينين :

الـ i أو الـ e أما الألفاظ العربية التي اشتملت

على الخاء - وكانت قد دخلت اللغة الإسبانية قبل ذلك التاريخ - فإنها استبدلت بالخاء صورتا آخر كما نرى في هذه الأمثلة

في بداية الكلمة : خص choza (أى كوخ)، خليفة califa، الخرج alforja (ونلاحظ في هذه الكلمة أن الخاء قد تحولت إلى هاء h ثم إلى فاء f) (وكان هناك في الإسبانية خلط بين الهاء والفاء وهى ظاهرة لا نرى الآن موضعاً لشرحها). أما الجيم فقد كانت تنطق قريبة من الجيم المعطشة مثل الجيم الشامية أى چ وهى الحرف المقابل للـ z ومع التحول الذى أشرنا إليه فى نطق هذا الحرف منذ القرن السادس عشر تحولت إلى خاء).

الخرشوف alcurchofa

الخروب algarroba

وحينما تأتى الخاء فى وسط الكلمة تفقد أيضاً خاصيتها الصوتية العربية وتتحول إلى هاء لا تنطق مثل سنجينة (نوع من الحساء الذى يضاف إليه الدقيق) zahinas

وتتحول الخاء أحياناً إلى كاف فى آخر الكلمة مثل إسفيناخ espinaca وشيخ jé que

الضاد :

حينما تأتى الضاد فى أول الكلمة تتحول إلى دال مثل daifa ضيفة . ولو أن معناها تحول إلى دلالة سيئة إذهى بمعنى الخليلة ؛ الضفيرة adelfa (ولكن ليست بمعنى ضفيرة الشعر ، وإنما أصبحت تدل على الزخارف المصفرة التى تستخدم فيها بلاطات الزليج الملونة (أى القيشاني) بشكل مخصوص) ؛ الضبة aldaba وهى تدل على كلمة من الحديد أو الخشب تعلق على الباب لكى يستخدمها الطارق ؛

الضيعة aldeia

ويلاحظ فى هذين اللفظين أن الضاد قد سبقتها لام مما يدل على أن نطق الضاد كان شبيهاً بنطق اللام (كما شرح ذلك الدكتور كمال بشر فى كتابه عن الأصوات) .

وإذا أتت الضاد فى وسط الكلمة فقد تتحول إلى دال أيضاً كما ترى فى الغيضة algaida (بمعنى الغابة) ؛ روضة rauda وتستخدم بمعنى المقبرة

أما فى آخر الكلمة فإنها تأتى غالباً مسبقة باللام المفخمة مثل

القاضى alcalde ؛ البيضا albelda

البياض albaya ؛ الربض arrabalde وفى هذه الكلمة الأخيرة اختصرت الكلمة فحذف المقطع الأخير فأصبحت arrabal أى أن الضاد تحولت إلى لام فقط .

وظاهرة إضافة اللام إلى الضاد تظهر أيضا في الكلمات التي تشتمل على الطاء ، كما نرى في لفظ الطبق altabaque أى الصحيفة الكبيرة ولكنها لاتضاف إلى الضاد إذا سبقها حرف الراء مثل العرض alarde (وتطلق على الاستعراض العسكرى أو ما يشبه ذلك مجازاً) .

التغيرات الدالية :

تعرض الألفاظ خلال سيرة اللغة إلى تغيرات دلالية فقد تتجه الدلالة إلى اتساع أو إلى الضيق ، وقد تتخذ دلالات أسمى مما كانت عليه في الأصل ، وقد يحدث عكس ذلك فتتخذ اتجاهًا متدنيا (أو ما يسمى باللغات الأوربية degradation) فنحن نرى مثلا لفظ الحاجة alhaja الذى كان يدل على أى شىء يحتاج إليه ثم تحول في الإسبانية الحالية إلى التحفة القيمة أو الحلية الفاخرة .

على حين نجد لفظ الوزير alguacil الذى كان يدل على هذا المنصب الكبير قد أصبح في الإسبانية الحالية يدل على وظيفة متواضعة تعادل دلالة فرّاش (ويمكن المقارنة بين هذا اللفظ ولفظ « الحاجب » العربى) على أن هذا التطور على ما يبدو كان قد بما أيام حكم المساميين للأندلس فإن منصب الوزير كان قد تدنى منذ سقوط الخلافة

الأموية في الأندلس في أوائل القرن الخامس الهجرى وقيام دول الطوائف حتى إن أحد الشعراء خاطب وزيراً من وزراء ذلك الزمن بقوله :

هبك كما تدعى وزيراً
وزير من أنت يا وزير
والله ما للأمير معنى
مكيف من وزير الأمير

والأمثلة على هذه التغيرات الدالية كثيرة ويسمى بعضها بعض اللغويين الشف Calco : وهناك لون من التأثيرات العربية التي نصلح على تسميتها بالخفية أو المستورة وتعنى بها ما ترجمته اللغة الأسبانية ترجمة واضحة عن العربية ونضرب عليها أمثلة من بعض الألفاظ والتعابير التي لا نجد لها مثيلاً في اللغات الأوربية الأخرى :

تستخدم الأسبانية تعبير tomaron en hablar أى أخذوا في الحديث وهو ترجمة حرفية عن العربية :

وكذلك « رجل ذو حياء un hombre de vergüenza وذلك في مقام المديح ، ولو قيل مقابله في الانجليزية أو الإيطالية أو الفرنسية Un uomo di vergogna لكان أشبه بالذم ، un homme de honté

ومنه de buena sombra (خفيف الظل) وعكسه de mala sombra (ثقيل الظل) .

وهناك ظواهر محوية يبدو فيها تأثير
الأسبانية بالنسق النحوي المتبع في العربية
فكثيراً ما نجد الجملة الأسبانية تبدأ بالفعل
قبل الفاعل وهي ظاهرة لا نجدها في اللغات
الأوروبية الأخرى

وهناك صيغ مسكوكة تبدو منقولة عن
العربية :

كالخمار يحمل أسفاراً

como un asno cargado de libros

وهو ترجمة للتعبير القرآني وقد صيغ من
قبل شعراً في بيت كان العالم القرطبي الطنبلي
يتمثل به وهو :

زوامل للأشعار لا علم عندهم

بما حملوا إلا كعلم الأباعر

أو مظلم كجوف الخمار osкуро como boca
de asno وهو تعبيراً استخداماً سرفانتيس

في رواية دون كيخوتي : ويبدو منقولاً
عن البيت المنسوب لامرئ القيس :

ووادٍ كجوف العير قفر قطعته

به الذئب يعوى كالخليع المُعَيَّل

وبعد فهذا ليس إلا قليلاً من كثيرٍ ممّا
تدين به اللغة الأسبانية للغة العربية وعليها
أن نذكر أن الأسبانية كما كانت معبراً للثقافة
العربية إلى أوروبا فقد كانت معبراً لكثير من
هذه الرواسب العربية إلى اللغة المتكلمة في
العالم الجديد عالم أمريكا اللاتينية . ومع اللغة
حملت الأسبانية كثيراً من التأثيرات العربية
في الفكر وفي الأدب وفي الفن :

هي صفحة مشرقة من تاريخنا اللغوي
والثقافي الذي ما زال بحاجة إلى تجلية وبيان
وهو عمل يتطلب تكاتف أجيال من الباحثين .

د. محمود مكي

مفسر المجمع

إحياءات بديع الزمان لابن شهيد في التوابع والزوابع للدكتور شوقي ضيف

بديع

الزمان هو أحمد

ابن الحسين أصله من

همدان بإيران وإليها ينسب توفي سنة ٣٩٨
ولم ينل كاتب في عصره ما نال من التمجيد
والشهرة ، وفيه يقول الثعالبي في اليتيمة : « هو
معجزة همدان ونادرة الفلك وبكر عطار
وفرد الدهر وغرة العصرة . لم يُرَ ولم يُرو أن
أحدًا بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء
بمثل إعجازه وسحره » وكان أهم ما راع معاصريه
من أدبه مقاماته المشهورة . وقبيل وفاته بنحو
سنة عشر عاما ولد بقرطبة في الأندلس
ابن شهيد أحمد بن عبد الملك في بيت ثراء
وعز ومجد ، وتوفي سنة ٤٢٦ وكان شاعرا
وناثرا بارعا وفيه يقول ابن بسام :

« نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل
والنهار ، إن هزل فسجّع الحمام ، أوجد فزئير
الأسد الضرغام ، نظم كما اتسق الدر على النحور
ونثر كما خلط المسك بالكافور » .

ومن أروع آثار ابن شهيد الأدبية رسالته
« التوابع والزوابع » والتابع الحنى والزابعة
الشیطان ، وهو يذكر في صدرها أن
صديقا له يسمى أبا بكر بن حزم كان يروعه
أدبه روعة لاحد لها ، مما جعله يقسم أن له
تابعة من الجن تنجده في فرائده البديعة
وزابعة من الشياطين تسعفه وتؤيده . واعترف
لصديقه بأن له تابعا من الجن يسمى زهير
ابن نسمير من قبيلة أشجع في الجن تقابل قبيلة
ابن شهيد أشجع العربية في الإنس ، وأن هذا
التابع ترأى له يوما على فرس أدهم بباب
مجلسه حين أرتج عليه القول في أثناء مرثية
ينظمها فأنشده بيتا حل به عقدة لسانه في
مرثيته وتحادثا حيناً ، وعلمه أبياتا ينشدها إذا
أراد استحضاره ، وأوثب فرسه الحائط
وغاب عنه ، فكان ابن شهيد بعد هذا اللقاء
لتابعه كلما أرتج عليه أو ضاق به مسلك في
الشعر ينشد الأبيات فيترأى له توًّا فيدرك

(هـ) ألقى في الجلسة الثانية عشرة يوم الأحد ٤ من شعبان سنة ١٤٠٩ الموافق ١٢ من مارس (آذار)

سنة ١٩٨٩ م .

بقرحتته ما يرغب فيه ويريده ، ويقول
ابن شهيد لصاحبه أبي بكر بن حزم : إن صحبتته
لتابعه تأكدت وأنهما ذات يوم تذاكرا أخبار
الشعراء والكتاب القدماء ومن كان يالفهم من
التوابع والزوابع ، وأنه سأل تابعه
هل يمكن أن يلتقى معه بهم ، فقال له : ينبغي
أن أستاذن شيخى من الحن فإن أذن لى حققت
لك ما تريد ، وطار عنه إلى شيخه الحنى كلمح
بالبصر . وعاد مسرعاً وقد أذن له ، فأردف
ابن شهيد على فرسه ، وسار بهما كالطائر
يحتاب الجو فالحو ويقطع الدو فالدو إلى أن
رأى ابن شهيد أرض الحن : أرضاً لا كأرض
الإنس مكتظة بالشجر عطرة الزهر ، وقال
له تابعه : بمن تريد أن نبدأ ، فأجابه
ابن شهيد : الكتاب أولى بالتقديم ولكنى إلى
الشعراء أشوق ، فقال له من تريد منهم ؟ قال
صاحب امرئ القيس ، فأمال تابعه : عنان
الفرس إلى واد من أودية الحن وصاح :
يا عتيبة بن نوفل ومثل لهما فأقسم عليه تابع
ابن شهيد بسقط اللوى فحوّمل ويوم دارة
جلجل (وهى مواضع فى المعلقة) إلا
ما أنشدتنا من شعرك وسمعت من الإنسى
صاحبى وعرفتنا كيف إجازتك له ، وسأله
عتيبة أهذا (يريد ابن شهيد) فتاهم ؟ وما لبث
أن أنشدهما قصيدة امرئ القيس :

(سَمَّاكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كَانَ أَقْصَرَا)

حتى أتمها . وسأل ابن شهيد أن ينشده
بعض شعره فهم بالنكول إجلالا له ، ثم
تماسك وأنشده قصيدة حماسية ، فأعجب بها

عتيبة وأجازه وغاب عنهما . فسأله تابعه
زهير بن نمير من تريد لقاءه بعده ؟ فأجابه
صاحب طرفة ، فأرسل فرسه قاطعا وادى
عتيبة إلى غيضة ملتفة الأشجار .
وفىها صاح زهير : يا عنتر بن العجلان حل
بك زهير وصاحبه ، ويستحلفه بخولة صاحبة
طرفة وبما أمضى معها من ليلة إلا استقبلهما ،
فبدا لهما فارس جميل الوجه متوشح بسيف ،
ورحب بهما . وسأله ابن شهيد أن ينشدهما
بعض قصائده ، فأنشدهما لامية قصيرة
لطرفة ، وأنشده ابن شهيد خمرة بديعة ،
فصاح عنتر قائلاً لله أنت اذهب فانك مجاز
وغاب عنهما . فسأله زهير من تتوق إلى
لقاءه ؟ ويلتقيان بأبى الخطار صاحب قيس
ابن الخطيم ويحييهما ويستنشد ابن شهيد ،
وينشده إحدى قصائده ، ويعجب بها ويحيزه
ويعدل إلى صاحب أبى تمام وينشده ابن شهيد
بعض قصائده ، ومن بينها قصيدة فى رثاء
صديقه حسّان بن مالك ويعجب بشعره ويحيزه .
ويلتقى مع تابعه زهير بصاحب البحتري
ويسميه أبا الطبع ، وينشدهما قصيدة له إلى
نهايتها ويستنشد ابن شهيد ، فيعارضه بقصيدة
بديعة ، ويحيزه . ويسأل تابعه زهيراً أن
يلقى به صاحب أبى نواس ، ويقول له زهير
إنه بد يرحل منذ أشهر قد غلبت عليه الخمر ،
ويركض الفرس إليه ، ويشق سمعهما قرع
النواقيس ، وأخذاً يمران بأديار وكنائس

وحانات حتى انتهيا إلى دَيْر حُنَّة، فوقف
زهير ببابه ، وقال سلام على أهل دَيْر حنة
فأقبلت نحوهما الرهبان وقد وضعوا في
أوساطهم الزنانير وقبضوا على العكاكيز ،
ولحاهم ورءوسهم تشتعل شيبا ، وسألوا زهيرا
ما بغيتك ؟ .

قال : حسين الدنان صاحب أبي نواس
قالوا إنه عاكف على شراب الخمر منذ عشرة
أيام ، ومضوا بهما إلى بيت اصطفت دِيانته ،
به حسين : شيخ طويل الوجه . افترش أضغاث
زَهْرٍ واتكأ على زقٍّ خمر وبيده كأس كبيرة ،
فقال له زهير حياك الله أبا الإحسان ، فتمتم
بكلام لا يعقل لغلبة الخمر عليه . ولم يلبث
ابن شهيد أن أنشده خمرية من خمرياته ، وكأنما
حين سمعها عرفه ، فصاح به أشجعي أنت ،
فقال له ابن شهيد أنا ذاك ، فاستدعى ماء
شرب منه وغسل وجهه فأفاق واعتدل إليه ،
وتلطف له طالبا منه أن ينشده بعض شعره ،
فأنشده قصيدة له مشهورة في دَيْر حُنَّة ، وكاد
ابن شهيد يخرج من جلده طربا . وسأل حسين
ابن شهيد أن ينشده بعض أشعاره ، فأنشده
من غزله الصريح ومراثيه ومجونه وبلغ من
طرب الحسين لبعض ما سمع منه أن قام برقص
به ويردده ، وأفاق ، فقال : هذا والله شيء لم
نُكَلِّمَنَّهُ نحن ، واستدناه ، فدنا منه ، فقبَّله بين
عينيه ، وقال له اذهب فإنك مجاز على الرغم من
الحاسد الكاره . وقال له تابعه زهير من
تشتاق إلى لقاءه بعد من لقيت ؟ فقال له خاتمة

القوم صاحب أبي الطيب فقال : اشدد له
حيازيمك وعطَّر له نسيمك ، وأمال عنان
فرسه نحو طريق طويل ، وجعل الفرس
يركض بهما ، وزهير يتأمل آثار فرس بعيدة ،
فقال له فيم تتأمل ؟

قال : إنها آثار فرس حارثة بن المغلس
صاحب المتنبي وهو شغوف بالقنص والصيد ،
وانتهيا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب
على كشيبي ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه
وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبة
صفراء ، فحياه زهير ، فأحسن الرد من مقلة
شؤساء ينظر بمؤخرها تكبرا وتها ، فعرفه
زهير مقصدي ورغبتي في إجازته لي ،
واستنشده حارثة ، فأنشده قصيدة حماسية من
طراز شعره وما به من حكم وشعور بالقوة
وحملة على الدهر ورفع له للأراذل الجهلاء .
ويعجب بشعره حارثة ، ويقول لزهير : إن
امتد به العمر فلا بد أن ينظم الدر ، ويجيز
ابن شهيد ، وبذلك يضع في ميزانه ضد خصومه
إجازات هؤلاء الشعراء الكبار وشهاداتهم له
بالتفوق في الشعر والبراعة فيه .

ويسأل زهير ابن شهيد : من تريد بعد هؤلاء
الشعراء ؟ فقال له : مل إلي الخطباء يريد الكتاب
فقد كفاني ما سمعت من أصحاب الشعراء ،
فركض الفرس في الصباح ، ولقيا فارسا أسر
إلى زهير ببعض الكلام وتركهما ، فقال
زهير لابن شهيد : جمعت لك كتاب الجن

بِمِشْرَجٍ دَهْمَانٍ، وانتهيا إلى المِرج، وإذا بناد عظيم وقد تحالَّق فرسان الكلام حول شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة، فقال ابن شهيد سِرًّا الزهير من هذا الشيخ؟ فأجابه عَتَيْبَةُ بن أَرْقَم صاحب الجاحظ، فقال ليس لي رغبة إلا أن ألقاه وألقى صاحب عبد الحميد الكاتب، فقال له زهير إنه ذلك الشيخ الذي بجانبه، وعرف زهير عتبة صاحب الجاحظ ميل ابن شهيد إليه، فاستدناه وأخذ في الكلام معه وأعجب به وقال له: إنك حائك للكلام مجيد، لولا أنك مغرم بالسجع، فكلامك أشبه بالشعر نه بالنثر، وقال له ابن شهيد: ليس هذا - أعزك الله - مني جهلا بأمر الكتابة وما في المماثلة والمقابلة من فضل، وابن شهيد يريد ما تميز به الجاحظ في كلامه من الازدواج والمماثلة بين العبارات دون محاولة للسجع وقوافيه. ويستمر ابن شهيد قائلا لصاحب الجاحظ إنه إنما يستخدم السجع تمشيا مع فرسان الكلام لزمه الذين يستحبون السجع على الازدواج، ويصوغ ذلك في عبارات شبيهة بأسلوب الجاحظ وما يطبعه من الازدواج والمماثلة، ويتدخل صاحب عبد الحميد الكاتب فيقول لصاحب الجاحظ: لا يغرنك منه ما تكلف من المماثلة فإن السجع طبعه. ويقول له ابن شهيد لا تعجل، ويصوغ له عبارات من نمط أسلوبه. ويتلطف صاحب الجاحظ وعبد الحميد معه ويسألانه أن يقرأ عليهما

بعض رسائله، فيقرأ رسالته في صفة البرد والنار والخطب ويستحسناتها، ثم يقرأ رسالته في الحلواء، ويختار طائفة من ألوانها مثل الفالودج وهو حلواء هلامية من الدقيق والسمن وعسل النحل، والخبيص وهو حلواء من النمر والسمن والبيض، والزلابية وهي حلواء من عجين بُقْلَى في الزيت ويُعتقد بعسل النحل، إلى غير ذلك من ألوان يطيل في وصفها ساجعا سخعا بديعا في لفظ رشيق، مما جعل صاحب الجاحظ وعبد الحميد يقولان له: إن لسجعك موزعا من القلب ومكانا من النفس. ويسألانه عن يطعنون عليه من أبناء جنسه، وعن هم أشد طعنا عليه؟ فيذكر لهما ثلاثة هم من يسمى أبا محمد وقد دس عليه عند الخليفة المستعين الأموي (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) وشخصيته غير معروفة. ومن يسمى أبا بكر، وهو إما أبو بكر بن حزم الذي وجه رسالته إليه، والذي اتهمه بأن له تابعا يوثده، وإما أبو بكر محمد بن القاسم المعروف باسم إشكياط الذي كان يتهمه بسرقة بعض نثره البديع من سابقه والثالث اللغوي المشهور في عصره أبو القاسم الإقليلي ويصيح تابعا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب، يا أنف الناقة بن معمر، من سكان خيبر - وهو صاحب الإقليل وتابعه - ويقوم إليهما جِنِّي رُبْعَة، اختلط البياض في شعر رأسه بالسواد مزهواً بنفسه، يتعارج في مشيته، فقلا لابن شهيد: هذا صاحب الإقليل، وسألاه عن ابن شهيد، فقال: لا أعرف على من قرأ

—وكانوا يتنقصون من يأخذون العلم عن
الصحف المكتوبة ، ولا يأخذونه عن الشيوخ—
وحين سمع منه ابن شهيد كلمته قال لنفسه :
إن لم تُعرب عن ذاتك ، وتظهر بعض أدواتك
وأنت بين فرسان الكلام لم يطرلك بعدها
طائر ، وكنت غرضا لكل حَجَر عابر .
وقال لتابع خصمه الإفليلي : وأنا أيضا
لا أعرف على من قرأت ، فقال له : طارحني
كتاب الخليل (يقصد معجم العين)
أو فاطرني على كتاب سيديويه ، ثم قال له :
أنا أبو البيان ، فقال له ابن شهيد ساخرا :
إنما أنت كمن وسطلا يطرب ، وهيهات حتى
يكون مساقك عذبا ، وكلامك رطبا ، وحتى
تتناول الوضيع فترفعه والرفيع فتضعه والقبيح
فتحسنه ، وقال له تابع الإفليلي : أسمعني
مثالا ، فقال له ابن شهيد حتى تصف برغوثة
فتقول :

« أسود زنجي ، وأهلي وحشي ، ليس بوان
ولا زُمَيْل (جيان) وكأنه جزء لا يتجزأ من
ليل ، وشونيزة (الحية السوداء) أو ثبتها
غريزة أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب
قراد (دُويبة) شريه عجب ، ومشيه وثب ،
يكن نهاره ويسرى ليله ، يدارك بطعن مؤلم ،
ويستحل دم كل مسلم ، مساور للأسورة ،
يجر ذيله على الجبابرة ، يهتك ستر كل حجاب
ولا يحفل ببواب . . شره مبعوث ، وعهده
منكوث ، وكذلك كل برغوثة ، وكفى بهذا

نقصا للإنسان ، دالا على قدرة الرحمن »

ويعرض على تابع الإفليلي وصفا بديعا
مماثلا لثعلب ، ولفته في هذا النادى الخاص
بالكتّاب فتى كان يرميه ببطرفه . فلما أنهى
وصفه للثعلب قال له : تحيّل على الكلام
لطيف . وسأل ابن شهيد تابعه عنه فقال له :
إنه زُبدة الحقب تابع بديع الزمان ، فصاح
ابن شهيد يا زبدة الحقب اقترح على ما تشاء ،
فقال له : صف جارية ، فوصف جارية له ،
فأعجبه وصفه فقال ابن شهيد : هلا أسمعني
وصفك للماء ، فقال زبدة الحقب إنه من
البيان المعجز ، فأقسم عليه أن يذكره ، فذكره
قائلا : « أزرق كعين السُّنَّور (القط) صاف
كقضيبي البلاءور ، انتخب من الفُرات ،
واستعمل بعد البسات ، فجاء كلسان الشمعة
في صفاء الدمعة » . ولم يلبث ابن شهيد أن
عارضه بقطعة في وصف الماء يقول في فاتحتها :
كأنه عصير صَباح ، أو ذوب قمر لسياح ،
(ناصع) ينصب في إنائه ، انصباب الكوكب
من سمائه » . ويغضب زبدة الحقب لروعة
بيانه ، ويضرب الأرض برجله فتنشق تحت
قدمه ويتدحرج فيها ، ويغيب شخصه وينقطع
أثره . ويضحك تابعا الجاحظ وعبد الحميد
الكاتب من فعله ، ويشدد غيظ أنف الناقة ،
ويسأل ابن شهيد هل له أوصاف في شعره
لا يستطيعها ؟ فيورد عليه وصفا لسحاب
مطر في إحدى قصائده ووصفا لذئب ،
ويصيح فتیان الجن معجبين أشد الإعجاب ،
وتعلاو أنف الناقة كآبة شديدة ، ويشفق عليه

ففى من الجن فيصفه لابن شهيد بأنه زير علم
وحرى به أن يعطف عليه ويرفق به ، فيقول
له ابن شهيد : وهل كان يضيره أن يصبر لى
على زكّة فى شعر أو نثر ولا يعلنها لتلاميذه ،
ويجعلها إحدى مفاخره . فيقول له الفقى
الحنى إن الشيوخ قد تهفوا أحلامهم فى الندرة
ويرد ابن شهيد عليه : بل إنها المرة بعد المرة .
ويقول له صاحبها الجاحظ وعبد الحميد
الكاتب ، وقد بلغ الإعجاب به منهما مبلغا
كبيرا : اذهب فانك شاعر كاتب . وانفض
الجمع فى وادى الكتّاب ، والأبصار إليه ناظرة ،
والأعناق نحوه مائلة .

ويقول ابن بسام أن ابن شهيد امتد به
الكلام واتسع به الإطناب ، فرأى أن يكتفى
بهذا القدر من التوابع والزوابع ، غير أنه عاد
يقتطف منها فصولا ، واختار فصلا حضر
فيه ابن شهيد مع تابعه زهير مجلسا من مجالس
الحنى دار الحديث فيه على ما تعاورته الشعراء
من المعانى ومن أخذ المعنى وزاد فيه ومن
قصر ، وحاوره بعض الجن فى أشعار لشعراء
مختلفين وأنشد بعض أشعار بديعة له توضح
مدى إحسانه فى الشعر ونظمه . ويورد
ابن بسام فصلا طريفا من فصول التوابع
والزوابع مشى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير
فى أرض الجن فأشرفا على روضة فيها قطع
من حُمُر الوحش والبهائم ، ولحقت به
الحُمُر ، وقالت له : تهيأ للحكم ، فسألها

ابن شهيد : بما الخطب ؟ فقالت : شهيدان
لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضىناك
حكما ، فقال ابن شهيد : حتى أسمع فتقدمت
إليه بغلة شهباء ، عليها جلثها (غطاؤها
الصائت لها) وبسرقعها (قناع المرأة) وأنشدته
شعرا غزليا لبغل فى صاحبة له وشعرا غزليا
آخر لحمار فى أتان أحبها ووسوس لها نمام
ما جعلها تتغير والحمار يشكو تباريح حبه .
فقال ابن شهيد إن أنف الناقة كان أولى بالحكم
منى ، وفهمت البغلة أنه فضّل شعر البغل على
شعر الحمار ، وقالت لابن شهيد : أما تعرفنى ؟
فقال لها : لو كان هناك علامة ، فنهضت لثامها
فإذا هى بغلة أبى عيسى والخال على خدّها ،
فتباكى معها طويلا وأخذتا فى ذكر ما ضيما
وأيامهما ، وسألته ما فعل الأوبة بعدى ؟ أهم
على العهد ؟ فأجابها ابن شهيد : شبّ الغلمان ،
وشاخ الفتيان ، وتنكر الخيلان ، ومن إخوانك
من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة ،
فسألته أن يقرّتهم السلام . وكانت فى بركة
بقرهما لوزة بيضاء فى مثل جثمان النعامة ،
لم يرسّ أخف من رأسها حركة ولا أحسن للماء
فى ظهرها صبّا ، ثنى رقبته وتكسر حلقها
فترى الحسن مستعارا منها ، فصاحت بالبغلة :
لقد حكمتم بالهوى . فسأل ابن شهيد زهير
عنها فقال له : هى تابعة شيخ من مشيختكم
تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف ، وهى
ذات حظ من الأدب . فتعرّض لها قائلا :

أيتها الإوزة الجميلة العريضة الطويلة
 أحسن بجمال حدقتيك واعتدال منكبيك
 واستقامة جناحيك وطول جييدك مقابلة
 الضيف بمثل هذا الكلام ؟ وأنا الذي همت
 بالإوزة صباية . فدخلها العجب من كلامه
 واعترتها خفة شديدة في مائها فرة ساجحة ،
 ومرة طائفة ، تنغمس في الماء هنا ، وتخرج
 منه هناك . وهو فعل معروف من الإوزة عند
 الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها
 وعرضت صدرها وعملت بسمجدا فيها ،
 واستقبلتها جاثية كصدر المركب فقالت
 موجهة الخطاب إلى ابن شهيد أيها المغرور
 كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول ؟
 وسألته : ما الذي تحسن ؟ فقال لها ارتجال الشعر
 والخطب (يريد الرسائل) فقالت له : ليس عن هذا
 أسألك . إنما أردت بذلك إحسان النحو
 وغريب اللغة ، إذ هما أصل الكلام ومادة
 البيان ، واهتزت من جانبها ، وجمال الماء
 في عينها ، وسألها يا أم خفيف ؛ أيهما أفضل :
 الأدب أو العقل فقالت : بل العقل ، فقال لها :
 هل تعرفين في الخلائق أحق من إوزة فتطلبين
 سقل التجربة إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة ،
 فإذا أحرزت منه حظا فحينئذ ناظري في الأدب .

ويبدو من حديث ابن شهيد مع
 الإوزة وأخذها عليه أنه لا يحسن النحو وغريب
 اللغة أنها تابعة لخصمه ابن الإفليلي بجانب
 تابعه أنف الناقة ، وقد رماها بالحمق وقلة

العقل ، ودعاها إلى أن تطلب عقل التجربة إذ
 تفقد عقل الطبيعة : وهو في كل ذلك يقصد
 ابن الإفليلي الذي كان يتتبع كلامه ليجد فيه
 فيه عثرة يذكرها لطلابيه . ويؤكد رأينا
 أن ابن الإفليلي مقصده في حملته على الإوزة
 وأنها تابعة مثل أنف الناقة تابعه ما قاله
 ابن بسام من أنه هو الذي عرض به ابن شهيد
 في التوابع والزوابع وأنه كان منها الغرض
 والهدف .

واختلف الباحثون في التاريخ الذي كتبت فيه
 رسالة التوابع والزوابع ، فرأى بعضهم أنها كتبت
 في مطالع القرن الخامس الهجري ظنا منه أن
 أبا بكر بن حزم الذي أهدى إليه ابن شهيد
 الرسالة هو أخو ابن حزم العالم الأندلسي
 المشهور على بن أحمد بن سعيد إذ كان له
 أخ بنفس الاسم : أبي بكر ابن حزم توفي
 في أثناء وباء للطاعون بقرطبة سنة ٤٠١
 فظن أنه هو الشخص الذي أهدى إليه
 ابن شهيد الرسالة ، ولم يلاحظ أنه كان حينئذ
 في الثامنة عشرة من عمره ، ويبعد أن يكتبها
 في هذه السن المبكرة ، وينتفى ذلك يقينا حين
 نقرأ ترجمة أبي بكر يحيى بن حزم في جذوة
 المقتبس عند الحميدي إذ تمضي على هذا
 النحو : « يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من
 شيوخ الأدب ، وله في ذلك ذكر ، وهو الذي
 خطبته ابن شهيد برسالة التوابع والزوابع
 التي سماها : « شجرة الفكاهة » وهو من بيت

آخر غير بيت الفقيه أبي محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم . وإذن فهو — دون ريب ليس أخا لابن حزم المفكر الأندلسي المعروف ولا هو من أسرته ، إذ هو من أسرة أخرى بشهادة الحميدى . وكثرت ظنون الباحثين في تاريخ الرسالة ، فقليل ألفها ابن شهيد في سنة ٤٠٤ ، وقليل ألفها في عهد الخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ — ٤٠٧) بقرطبة ، وقليل بل سنة ٤١٤ إذ في الرسالة قطعة من مرثية لابن شهيد نظمها في ابن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة فلا بد أن تكون الرسالة قد ألقت بعد هذا التاريخ . وقليل إنها ألقت سنة ٤١٥ . وجميعها ظنون مخطئة ، إذ يذكر فيها ابن شهيد رثاء له في الوزير الأديب حسان ابن مالك بن أبي عبدة ، وفي كتاب الصلة لابن بشكوال أنه توفى في شوال سنة ٤١٦ للهجرة ، وفي ذلك دليل واضح على أن الرسالة لم تؤلف قبل هذه السنة ، وبذلك تتداعى كل الظنون السابقة :

ولما كانت الرسالة تتناول عالماً وراء عالماً الواقعى هو عالم الجن والشياطين ، وكانت رسالة الغفران لأبي العلاء المعرى تتناول أيضاً عالماً وراء عالماً هو العالم الأخرى وكل ما يتصل به من حشر ونعيم وجحيم ، وكانا جميعاً متعاصرين ، فقد أخذ الباحثون يتساءلون هل تأثر أحدهما بصاحبه

في رسالته ، وكان من السابقين إلى إبداء الرأى في هذا التأثير الدكتور أحمد ضيف في كتابه « بلاغة العرب في الأندلس » إذ قال : « لعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء في رسالته الغفران ، لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبي العلاء كانت ذائعة في المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق في كل شئ » .

ومضى الباحثون بعد الدكتور أحمد ضيف يتساءلون عن تاريخ تأليف الرسالتين ، فلاحظوا أن ابن شهيد ألف رسالته قبل سنة ٤٢٠ للهجرة بينما ألف أبو العلاء رسالته — فيما يظن — سنة ٤٢٤ أو بعدها ، فهي متأخرة عن رسالة ابن شهيد ، ومن ثم قالوا إن أبا العلاء هو الذى تأثر بابن شهيد ، ومن هؤلاء غرسية غوميس فقد زعم — كما نقل عنه بالثنيا في كتابه تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة الدكتور حسين مؤنس — أن ابن شهيد صور في رسالته رحلة شاعر إلى الجنة سابقاً بذلك المعرى وهو خطأ بين إذ ليس في رسالة ابن شهيد أى ذكر أو إشارة إلى الجنة فضلاً عن أن تكون رحلة إليها ، إنما هى رحلة إلى عالم الجن والشياطين فلا علاقة له أى علاقة بعالم الغفران الأخرى وكل من يقرأ الرسالتين يعرف — بوضوح — أن رسالة التوابع والتوابع تستلهم ما شاع عند العرب

قدما من فكرة الجن والشیاطین التي تلهم
 الشعراء في دنيانا ما ينظّمونه من الشعر .
 بينما رسالة الغفران لأبي العلاء تستألف عقيدة
 المعاد الإسلامية وما يتصل بها من الحشر
 والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار واللقاء
 مع بعض من غفر لهم من الشعراء في الجنة
 ورؤية إبليس والزنادقة في الجحيم ، فلا
 صلة أي صلة بين الرسالتين وخطأ لا
 يماثله خطأ افتراض التأثير بينهما أو التأثير .
 ووضح كل الوضوح مما قدمت أن رسالة
 التوابع والزوابع تتصل بما كان يزعمه
 الجاهليون من أن الجن والشیاطین تلهم
 الشعراء أشعارهم . وبلغ بهم الخيال أن سموا
 لبعض الشعراء توابعهم ، واشتهر بينهم اسم
 مسحل لتابع الأعشى ، ورووا عنه أخباراً
 وأقاصيص ، وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج
 الأصفهاني خبران عنه يجامها أما أولها فيذكر
 أن شخصاً رحل في الجاهلية ، فأقبل ليلة
 ببعيره على بئر يريد أن يسقيه منها ماء ، فاذا
 عندها نفر مشوهون ، وإذا رجل أشد منهم
 تشويهاً أتاهم ، فقالوا لصاحب البعير : هذا
 شاعر ، ثم سألوا الرجل أن ينشده بعض شعره
 فأنشده قصيدة الأعشى : « ودّع هريرة إن
 الراكب مرتحل » حتى أتى على آخرها لم يسخرم
 منها حرفاً فتعرض له صاحب البعير يسأله :
 من نظم هذه القصيدة ، فقال له : أنا نظمها
 فتعجب وقال له : لولا ما أنشدت وسمعت
 لأخبرت أنك الأعشى أنشدنيها العام الماضي

بينسجّران ، فقال له : إنك لصادق ، أنا
 الذي ألقيتها على لسانه ، وأنا مسحل ،
 ما ضاع شعر شاعر وضعه عند الأعشى
 والخبر الثاني يحكي لقاء طويلاً بين الأعشى
 نفسه وبين شيطانه مسحل في طريقه بأوائل
 أرض اليمن يريد قيس بن معديكرب بحضر موت
 لمديحه ، فأصابه مطر ، فرمى ببصره يطلب
 مكاناً يلجأ إليه ، ف وقعت عينه على خيباء من
 شعر فقصده ، وإذا شيخ على باب الخيباء ،
 فسلم عليه فرد السلام ورحّب به فحط رحله ،
 ودخل الخيباء فسأله من أنت ؟ وأين تقصد ،
 فقال له : أنا الأعشى أقصد قيس بن معديكرب
 فقال له حياك الله أظنك امتدحتني
 بشعر ، فقال له الأعشى : نعم فسأله أن
 يسمعه لهم فأنشده قصيدة يتغزل فيها بمن تسمى
 سمية ، وفوجيء الأعشى به ينادى :
 ياسمية اخرجي ، فخرجت فقال لها أنشدي
 عمك قصيدتي التي مدحت بها قيس بن معديكرب
 وتغزلت في مطلعها بك فأنشدتها لي
 آخرها ، وصنع به نفس الصنيع في
 قصيدته : « ودع هريرة » حين ذكر له
 مطلعها ، ونادى على جارية عنده تسمى
 هريرة فأنشدتها لي آخرها ، وتخيّر الأعشى
 وغشيت رعدة ، فقال له : لا تُرّع فأنا
 هاجسك مسحل الذي ألقى على لسانك الشعر
 فسكنت نفسه .

وقد يؤذن مثل هذين الخبرين عن
 الأعشى وشيطانه مسحل بأن فكرة الجاهليين

عن أن لكل شاعر شيطانا أو رعييا من الجن
هي التي أوحى إلى ابن شهيد بصنع رسالته
«التوايع والزوايع» .

ومن يقرأ الرسالة : يلاحظ أن ابن شهيد
يلقى فيها شياطين امرئ القيس وطرفة
وقيس بن الخطيم ولايلقى شيطان
الأعشى مسلحا مع ما ذكر عنه من
أخبار مختلفة في كتب الأدب ، ومعروف
أن الأعشى يُعدُّ من فحول الشعراء في
الجاهلية ، وهو أحد أصحاب المعلقات العشر ،
وأحد المقدمين على سائرهم مع امرئ القيس
وزهير النابغة ، وفي رأينا أنه ليست فكرة
شياطين الشعراء وما حدث الجاهليون من
أخبارهم هي التي أوحى إلى ابن شهيد
رسالته ، إنما أوحى إليه بها بديع الزمان
في مقامة بين مقاماته تسمى المقامة الإبلية ،
كما أشرت إلى ذلك قديما في كتابين لي هما :
« المقامة » و « الفن ومذاهبه في النثر العربي »
ورأيت أن أعود إلى بسط الفكرة وتوثيقها
بأدلة جديدة .

ومقامة بديع الزمان تدور على
أن عيسى بن هشام راوى المقامات أضل إبلا
له فخرج في طلبها ، وما زال يتنقل من واد
لن واد حتى دخل واديا من أرض الجن
وهو لا يدري ، واديا أخضر ، به أنهار جارية
وأشجار باسقة وثمار يانعة وأزهار ناضرة
وبسط مفروشة ، وإذا شيخ جالس فارتاع
منه ، فهدأ روعه ، وأمره بالجلوس فامتل
وسأله عن حاله ، فذكر له ضلال إبله
فقال له الشيخ : أصبت دليلك . ووجدت

ضالتك ، فهل تروى من أشعار العرب
شيئا ؟ فقال له : نعم وأنشده أشعارا لامرئ
القيس وعبيد بن الأبرص ولبيد وطرفة
فلم يطرب لشيء من ذلك . وقال لعيسى
ابن هشام : أنشدك من شعري ،
وأنشده قصيدة بديعة من قصائد جرير حتى
أتمها ، فقال له عيسى بن هشام : يا شيخ
هذه القصيدة لجرير وقد ذاعت وشاعت
بين البدو والحضر وتداولتها الألسنة منسوبة
لجرير ، فهو صاحبها وناظمها : فقال له
دعك مما ظننت ، وأنشدني شعرا لأبي
نواس إن كنت تروى له بعض أشعاره
فأنشده إحدى خمرياته ، فطرب لها أشد
الطرب . وقال له : امض على وجهك
وستلقى رجلا ، ووصف لعيسى بن هشام
ما بيد الرجل ملغزا بوصفه للمدبة وسراج
ثم قال له : ما أحد من الشعراء إلا ومعه
معين منا ، وأنا الشيخ أبو مرة (لبليليس).
ثم غاب عن عيسى بن هشام ولم يعد يراه
ومضى عيسى لوجهه ، فلقى رجلا في
بلد مدبة ، فعرف أنه صاحبه الذي ذكره
له أبو مرة وقال له ما سمعته منه ، فناوله
سراجا ، وأشار إلى غار مظلم في جبل ،
فقال له : ادخله وفي يديك السراج ، فدخلاه
على هدى السراج ، وما إن خرج من أرض
الجن حتى وجد إبله ، فأوى وجوهها
وردّها .

والصلة واضحة بين هذه المقامة الإبلية
عند بديع الزمان ورسالة التوايع لابن شهيد

إذ هي التي أوحى إليه بإطار رسالته ، وأقصد لقاءه بشياطين الشعراء في أرض الجن . وقد اتسع ابن شهيد بالفكرة وطورها تطويراً بديعاً ، وجعل للكتاب في تلك الأرض توابيع كتوابيع الشعراء ، وأضاف إلى ذلك ما روى في الأساطير العربية من تمثل الجن في صور بعض الحيوان والطير .

ولكن هل من دليل على أن ابن شهيد عرف مقامات بديع الزمان ، والأدلة على ذلك في داخل الرسالة كثيرة ، ومن أهمها أن نجد ابن شهيد يلتقي بثلاثة هم - في رأيه - كبار الكتاب في العصرين الأموي والعباسي حتى زمنه ، وهم عبد الحميد الكاتب والجاحظ وثالثهم بديع الزمان ، فقد طلب إلى تابعة كما مر بنا - أن يلتقي توابيع الكتاب والتقى بتابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، والتقى أيضاً بتابع بديع الزمان ، وسماه زبدة الحقب ، وكأن الأيام ظلت طوال العصور تمخض الكتابة والكتّاب ، حتى استخلصت الزبدة أو الكاتب الأملعي بديع الزمان ؛ وليس كل ما أوحى به البديع إلى ابن شهيد فكرة أرض الجن ، فقد أوحى إليه مقاماته أن يحاكي منها المقامة المضبرية التي يصور فيها بديع الزمان بعض الأطعمة الشهية وما تتولى من يرونها من سيلان اللعاب واتقاد الأكباد ، وقد مضى ابن شهيد - على شاكلته - يضع رسالة في وصف ألوان من الخبواء وما تودع في قلوب المشاهدين

لها من سعار الوله والشره ، حتى لتتحررك الألسنة على الشفاه ، وحتى لتلمع العيون وتحقق الأفئدة . وقد عرضها ابن شهيد على تابعي عبد الحميد الكاتب والجاحظ فأعجبها بها إعجاباً شديداً ، كما أعجبها بتفتننه على طريقة البديع في وصف البرد والنار والوقود ووصف برغوث وتغلب . والتفت ابن شهيد إلى تابع بديع الزمان : زبدة الحقب فقال له : اقترح عليّ ما تريد ، فاقترح عليه وصف جاريه ، فوصفها واستحسن وصفه زبدة الحقب قائلاً : أحسنت ما شئت أن تحسن ، وسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء على لسانه فقال له إنه من المعجز الذي لا يمكن أن يجاريه أحد فيه وذكره له كما مر بنا في حديثنا عن الرسالة ، ومرت معه معارضة ابن شهيد له بوصف للماء بديع . وهو عمل شابه بغير قليل من الروح المرحّة ، مما جعله يسمى الرسالة كما قال الحميدى - باسم شجرة الفكاهة لما فيها من تهكم ودعابة .

وحرى بي أن أشير إلى ما تصور إحياءات مقامات بديع الزمان لابن شهيد في رسالته : «التوابيع والزوابيع» من سرعة انتقال آثار أسلافنا من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب والعكس ، فهذه مقامات بديع الزمان الهمداني

الإيراني تدقل سريعا إلى أقصى الغرب ، إلى
قرطبة ، فتلهم ابن شهيد رسالته التوابع
والزوابع ، ونزداد عجبنا حين نجد الثعالبي
النيسابوري الإيراني المعاصر لابن شهيد
والمتموفي بعده بثلاثة أعوام يترجم نه في
كتابه اليتيمة ويذكر ما نوّه به في التوابع
والزوابع من رسائله وأوصافه البديعة ،
وكاد الثعالبي لا يترك لابن شهيد معاصرا

له في الأندلس إلا وترجم له مع من ترجم لهم
في جميع الأوطان العربية إذ كان لديه
ولدى أسلافنا شعور عام طوال قرون
متعاقبة بأن تلك الأوطان جميعا وطن
واحد تعمه وحدة أدبية واحدة ، وهو
ما نتمنى أن يتحقق من جديد لأوطاننا
العربية وأدينا العربي الخالد .

شوقي ضيف
الأمين العام للمجمع

قام بإعداد هذا الجزء ومراجعته

السيدة / سميرة صادق شعلان

المحررة بلجنة التحرير والشؤون الثقافية

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

رئيس مجلس الادارة
رمزى السيد شعبان

رقم الايداع بدار الكتب ٧٥٧٧ / ١٩٨٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
١٤٤٩ — ١٩٨٩ — ٢٠٠٢



